

تأليف : چوناثان كلر

فردينان دوسوسير

تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات



العلم واللغة في العصر الحديث



ترجمة وتقديم :
محمود حمدي عبد الغني

مراجعة :
محمود فهمي حجازي

المشروع القومي للترجمة

فردينان دوسوسير

(تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات)

تأليف

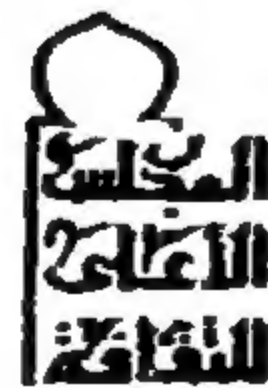
جوناثان كلر

ترجمة وتقديم

محمود حمدي عبد الغني

مراجعة

محمود فهمي حجازي



٢٠٠٠

هذه ترجمة

***Jonathan Culler, Saussure,
Fontana / Collins, Great Britain 1976***

الإهداء

إلى أول من درست على يديه
إلى أبي رحمه الله ورضي عنه

م - ح

المحتويات

7	- تقديم المترجم.....
15	- مقدمة المؤلف.....
21	الفصل الأول : الرجل والمحاضرات.....
29	الفصل الثاني : نظرية دوسويسير فى اللغة.....
32	١ - الطبيعة العشوائية للعلامة.....
36	٢ - جوهر الوحدات اللغوية.....
43	٣ - ثنائية الـ «لسان» والـ «كلام».....
48	٤ - المنظوران التزامنى والتعاقبى.....
59	٥ - تحليل «اللغة».....
64	٦ - اللغة بوصفها حقيقة اجتماعية.....
67	الفصل الثالث : مكانة نظريات دوسويسير.....
69	١ - علم اللغة السابق على دوسويسير.....
80	٢ - النحاة الشبان (النحاة الجدد).....
86	٣ - فرويد وبنو كاييم والمنهج.....
94	٤ - تأثير دوسويسير.....
96	أ - التمييز بين الـ «اللغة» والـ «الكلام».....
100	ب - التمييز بين الـ «تزامنى» والـ «تعاقبى».....
102	ج - العلاقات فى النسق اللغوى.....
107	الفصل الرابع : علم العلامات: الإرث السويسرى.....
112	١ - مجال علم العلامات.....
122	٢ - ملامح التحليل السيميولوجى.....
125	٣ - الجنس التصحيفى ومركزية الكلمة.....
133	الاستنتاجات.....

تقديم المترجم

دوسوسير واستطلاع

مقومات الحضور اللغوي للإنسان داخل المجتمع

مع وفاة فردينان دوسوسير F. de Saussure في أوائل هذا القرن فقدت جامعة جنيف Geneva أحد مؤرخي اللغات الهندية الأوروبية المرموقين الذين أنفقوا معظم حياتهم الأكاديمية في تدريس الفيلولوجيا التاريخية والمقارنة. ومع ذلك لم يشتهر هذا «الأستاذ» أو يذاع صيته بعد وفاته من هذا المنظور الفيلولوجي الأكاديمي الضيق، وإنما بوصفه العقل المبدع الذي ظفر عن استحقاق برسم معالم الطريق الإبستمولوجي الخصيب الذي سار فيه علم اللغة الحديث، بالشكل الذي احتفظ له بموقع الريادة والمبادأة بين مختلف فروع المعارف الإنسانية، بلا استثناء، تلك الفروع التي لم تجد مفرّاً من اتخاذ هذا العلم مصدراً للإلهام والإنارة، والبدء بطريقة موازية لتحديد هويتها العلمية الخاصة.

والمثير في الأمر أن هذا الاعتراف الحار الذي تحقق لدوسوسير بعد وفاته، والذي لم يكن يحلم به في حياته قد قام على «نص» لم يكتبه بقلمه قط، فالمعروف عنه أنه لم يكن مؤلفاً غزير الإنتاج (حيث لم يتعد عدد الصفحات التي نشرها في حياته الستمائة صفحة)، والمعروف أيضاً أنه لم يترك أي مخطوطات نظرية يمكن أن يكون لها قيمة عامة، إنه فقط في عام ١٩٠٧ وعقب تقاعد فيرثيمر Wertheimer (أستاذ علم اللغة بجامعة جنيف) عهدت إدارة الجامعة إليه بمهمة تدريس مقرر «علم اللغة العام»، وقد قام دوسوسير بتدريس هذا المقرر لمدة ثلاثة أعوام، وعقب وفاته المفاجئة في عام ١٩١٣ قرر زملاؤه الاحتفاظ بالدروس التي ألقاها في هذا المقرر، وطبعها في كتاب ظهر في عام ١٩١٦ بعنوان: محاضرات في علم اللغة العام Cours de Linuistique Générale.

إنه على الرغم من كل ما يمكن أن يقال عن نبوغ بوسوسير أو نفاذ بصيرته وجرأته في الخروج بالدرس اللغوي من حصار الميتافيزيقا التاريخية أو الفيلولوجيا الكلاسيكية إلى رحاب المعرفة السيميولوجية الحية المقيدة بقيود الزمان والمكان، فإنه لا يمكن الادعاء بأي حال أن هذا الإجلال الفائق الذي تحقق لاسمه بعد وفاته كان يمكن أن يتحقق لولا القرار الجريء الذي اتخذته جامعة جنيف في شأن طبع المحاضرات والحفاظ عليها، وبون هذا المثال الأكاديمي المهيب الذي ضرب به بالي Ch. Bally وسيشيهاي A. Sechehaye زميلا بوسوسير اللذان تحملا في عزم وإخلاص مسئولية إحياء الأفكار من كراسات الطلاب والانتقال بها من مدرجات الجامعة إلى حلقات العلم والعلماء، كي يخرجوا إلى النور هذا المجلد القيم الذي كان المصدر الرئيسي لكل التأثير المتأجج الذي مارسه بوسوسير في شتى فروع المعارف الإنسانية وشهرته الأكاديمية على حد سواء.

في عام ١٩١٦ كان كتاب « محاضرات في علم اللغة العام » هو المرجع الوحيد المنشور في علم اللغة الحديث. وعلى الرغم من عدم شرعية إعطاء أية فرضيات نظرية الاعتراف الكامل، فإن الفرضية النظرية المهمة التي احتواها هذا الكتاب وصادفت الاعتراف الكامل، كانت دراسة اللغة *la langue* بوصفها الموضوع الرئيسي لعلم اللغة. وكما تقول المحاضرات : « كي ينشأ علم اللغة بوصفه علماً حقيقياً يجب عليه تحديد الموضوع الملائم للدراسة، فبدون القيام بهذه الخطوة الأولية لن يكون بمقدور هذا العلم تطوير المناهج الملائمة لدراسة هذا الموضوع ». كانت قاعدة تصنيف الظواهر اللغوية والفهم الصحيح لترتيباتها الطبيعية تمثل في الواقع نقطة الانطلاق الأولى في بلورة الموضوع الملائم الذي تصوره بوسوسير لعلم اللغة، فقد كان يدرك أن الظواهر اللغوية ظواهر متغايرة الخواص ولا تخضع للتصنيف، حيث إنها متعددة الوجوه وتفتقر إلى التجانس ولا يمكن التنبؤ بسلوكها، وحيث كانت تنتمي بطبيعتها إلى مجالات معرفية متباينة (فيزيائية وفسولوجية وتاريخية واجتماعية ونفسية)، وقد كان من المستحيل - في رأيه - تصنيف الظواهر اللغوية ضمن أي من التصنيفات الشائعة التي يمكن أن تقدمها تلك المجالات، وكما نصت المحاضرات: « كي يصبح علم اللغة علماً حقيقياً فإن عليه عدم دراسة حقائق التاريخ أو الاجتماع أو النفس التي تعبر اللغة الإنسانية عنها عادة، وإنما دراسة اللغة بحد ذاتها ولذاتها ».

لقد مهد دوسوسير بنفسه الطريق لإرشاد الدارسين إلى كيفية تحديد الموضوع الملائم لهذا العلم، وقد كانت الخطوة البارعة التي قام بها في هذا الشأن هي التفرقة بين اللغة *la langue* وأفعال الكلام *le parole*، فقد كان يدرك أن من السهل الانزلاق في التفكير في اللغة بوصفها مجموعة من التعبيرات الكلامية. ولأن تعلم اللغة الحية لا يتطلب أن يحفظ المرء عن ظهر قلب مجموعة من التعبيرات الكلامية بقدر ما يتطلب منه أن يكتسب نسق القواعد والأعراف الذي يسمح بإنتاج هذه التعبيرات وفهمها، فلقد رأى أن من واجب دارس اللغة عدم الاكتفاء بدراسة التعبيرات الكلامية ذاتها إلا بالقدر الذي توفر به له الشواهد أو الأدلة الخاصة بالنسق العقلي الكامن للغة الحية التي تنتمي إليها. ولقد أطلق دوسوسير على هذا النسق العقلي الكامن مصطلح اللغة *la langue*، وعرفه بأنه مجموعة القواعد والأعراف التصورية المشتركة التي تتيح لمحدثي إحدى اللغات الحية التفاهم فيما بينهم، في حين أطلق على الأفعال الكلامية المتبادلة ذاتها مصطلح أفعال الكلام *le parole*، وعرفها بأنها التجليات أو الشواهد الفعلية المتحققة لتلك القواعد والأعراف التصورية المشتركة في الكلام والكتابة. ولقد ظهر الفارق الجوهرى بين هذين المصطلحين حين شبه دوسوسير «اللغة» بالسيمفونية الموسيقية المكتوبة، وما تتمتع به هذه السيمفونية من وجود مستقل يميزها عن أى عزف منفرد يمكن أن يتم انطلاقاً منها. فقد تختلف آلات العزف، وقد تتباين قراءات العازفين وتوزيعهم لها، وقد ترتكب الأخطاء أثناء العزف، ولكن كل ذلك لا يمس حقيقة استقلال السيمفونية الأصلية في شئ.

ولكى يحتاط دوسوسير لعدم الخلط بين أفعال الكلام والنسق العقلي الكامن قدم عدداً من المعايير للتمييز بينهما. أول هذه المعايير هو التمييز بين القاعدة والسلوك، وهو يعد على أى حال أحد التمييزات الحاسمة التي يمكن استثمارها للتفرقة بين دراسة الأنساق الطبيعية والأنساق الإنسانية التي تقوم بإنتاج المعنى. عند بحث النسق الطبيعي قد يقوم المرء بصياغة القوانين التي تلخص في العادة السلوك الملاحظ مباشرة، ولكن ذلك لا يصدق بطبيعة الحال عند بحث النسق الإنسانى، حيث توجد في هذا النسق فجوة قائمة دائماً بين السلوك الملاحظ والقاعدة، وحيث لا تتمثل القاعدة إلا على مسافة من السلوك الملاحظ، وفيها يكمن المعنى الخاص. علاوة على ذلك قد ينحرف السلوك الملاحظ في النسق الإنسانى (وعلى خلاف من النسق الطبيعى) عن القاعدة، إلا أن ذلك لا يفند حقيقة وجود الأعراف الإنسانية بوصفها قواعد للسلوك، وبالفعل قد يتم في بعض الأحيان كسر بعض التوقعات العرفية أو الخروج عليها؛ إلا أن ذلك لا يمس جوهر القاعدة الأساسية في نسق المفهومات الإنسانية: «يجب حفظ

نسق التوقعات العرفية قائماً دائماً، ذلك لأنه إن لم يتم حفظ هذا النسق حياً دائماً، فقد تثار الشكوك حول مدى فهم الأشخاص للنظام المتوقع وتمثلهم لقواعده. وعلى الرغم من التلازم الإمبريقي القائم في النسق الإنساني بين القاعدة والسلوك، فإن مهمة الدارس لا تنحصر في رصد السلوك الإنساني الملاحظ مباشرة، بقدر ما تنحصر في إعادة تمثيل النسق العقلاني الكامن الذي انطبع في الأذهان تدريجياً حول هذا السلوك.

أما المعيار الثاني الذي قدمه بوسوسير لعدم الخلط بين أفعال الكلام والنسق العقلي الكامن فهو التمييز بين اللاوظيفي والوظيفي، وهو التمييز الذي استثمرته حلقة براغ Prague للتفرقة بين علم الصوتيات Phonetics (العلم الذي يدرس الأصوات الإنسانية بوصفها ظاهرة طبيعية) وعلم الفونولوجي Phonology (العلم الذي يدرس الموضوع ذاته بوصفه ظاهرة إنسانية). ولقد ظهر الفارق بين المظاهر اللاوظيفية المتفردة للأصوات وبين مظاهرها الوظيفية داخل نسق اللغة حين استشهد ترويتسكوي N. S. Trubetskov بالدراسة الأثنولوجية للأزياء بوصفها مشروعاً مماثلاً للوصف الفونولوجي للغة. ففي الدراسة الأثنولوجية للأزياء لايهتم الباحث الأثنولوجي بالمظاهر المادية المتفردة للأثواب بقدر ما يهتم بقيمتها الاجتماعية. فعلى الرغم من أهمية المواد الخام المتفردة التي تصنع الأثواب منها بالنسبة لمرتديها إلا أن الباحث الأثنولوجي لايهتم في العادة بهذه المواد الخام، بقدر ما يهتم بإعادة بناء نسق الأحكام التمييزية الذي تمثله أعضاء المجتمع لإضفاء المعنى الاجتماعي عليها، مثل : طول الأجزاء السفلية للأثواب أو قصرها، أو التقابل بين الألوان الفاتحة والغامقة ... وهكذا، فتلك الأحكام الاصطلاحية (العشوائية) تمثل الأحكام المهمة في الدراسة الأثنولوجية للأزياء، إنها تدل باختصار إلى المظاهر الوظيفية التي استثمرتها نسق الموضة السائد في إحدى الثقافات لتحويل الأثواب ذاتها إلى علامات Signs.

ولأن اللغة الإنسانية لم تكن موضوعاً لا زمنياً ساكناً يمكن أن يتجاوز عمليات التحول التاريخي فقد أجبرت هذه الحقيقة بوسوسير على تضيق منظور علم اللغة وعلى شرح الفارق بين الهوية المادية التاريخية للغة وهويتها التزامنية، واستجابة لذلك قدم تفرقته الأصلية بين المنظورين التعاقبي diachronic والتزامني Synchronic، واعترف بضرورة الفصل بينهما خشية أن تقوم وجهة النظر المادية التاريخية بتزييف الوصف التزامني للغة، فلم تكن الوحدات اللغوية كينونات موجبة قد تحددت هوياتها وفقاً لقيمها المادية المتفردة، أو وفقاً لهوياتها التاريخية المحتملة، وإنما تحددت وفقاً

للمواضع التي تشغلها داخل النسق، ولذلك فقد كان على دارس اللغة - في رأيه - عدم الاهتمام بالقيم المادية المتفردة للوحدات اللغوية ذاتها، أو بالعلاقات القائمة بينها وبين المراحل التاريخية السابقة الخاصة بها، وإنما بالعلاقات الوظيفية القائمة بينها داخل النسق في فترة زمنية محددة .

ولإيضاح هذه الفكرة قدم دوسوسير القياس التمثيلي التالي : نحن مستعدون لتقائماً للتسليم بأن قطار الثامنة و ٢٥ دقيقة جنيف / لندن هو القطار ذاته الذي ينطلق يومياً من جنيف إلى لندن، هذا على الرغم من احتمال تغير القاطرة أو المركبات أو الأشخاص الذين يستقلونه كل يوم، وذلك لأن هذا القطار ليس كينونة مادية متفردة، وإنما هو شكل تحددت هويته في ضوء العلاقات التي تميزه عن بقية القطارات الأخرى التي تغادر يومياً محطة جنيف إلى المدن الأخرى. ولذلك يظل هذا القطار القطار ذاته حتى وإن غادر محطة جنيف متأخراً عن مواعده طالما ظل الاختلاف بينه وبين قطار السابعة و ٢٥ دقيقة وقطار التاسعة و ٢٥ دقيقة قائماً. وعلى الرغم من عدم إمكانية تمييز هذا القطار عن بقية القطارات إلا في ضوء الكينونة المادية المتحققة له؛ إلا أنه ليس هناك علاقة بين الهوية الاجتماعية للقطار وبين التحقق المادي له، علاوة على ذلك فربما كانت القاطرة والمركبات التي تشكل هذا القطار في أحد الأوقات هي ذاتها القاطرة والمركبات التي كانت منذ ساعات قليلة عناصر في أحد القطارات الأخرى؛ إلا أنه ليس هناك أية صلة وثيقة بين الهوية الآنية المائلة للقطار والهوية التاريخية السابقة لعناصره، حيث تتحدد هوية القطار في ضوء الموضع الذي يشغله في نسق أو قائمة مواعيد القطارات بصرف النظر عن التحقق المادي لعناصره أو مصدرها التاريخي.

وعلى هذا الأساس مال دوسوسير إلى إعطاء الأولوية المطلقة لدراسة اللغة الموجودة في فترة زمنية محددة بصرف النظر عن هويتها المادية المتحققة، أو تحولاتها التاريخية السابقة، وقد شكلت هذه المسألة المنهجية أساس نظريته إلى «اللغة La Langue بوصفها نسقاً من العلامات والتقابلات بصرف النظر عما صادفته هذه العلامات من تغيرات عبر الزمن، وهكذا شاع علم اللغة بوصفه علماً لاوضعياً ولاتاريخياً في التوجيه، وشاع نموذج التحليل الفونولوجي التزامني الذي يحرص على دراسة متصل الصوت البشري بوصفه كلاً وظيفياً واختزال هذا المتصل إلى مظاهره التمييزية أو سماته الفارقة بوصفه النموذج الشائع لعلم اللغة ذاته، واعتقد العلماء - مع دوسوسير - أن المقابلات التمييزية الثنائية هي إحدى الخصائص العقلية المتوارثة

فى المنخ البشرى؁ فهى تمثل العمليات العقلية الأولية التى يتعلم الطفل بواسطتها الأداء الإنسانى أو إنتاج المعانى.

* * *

بإمكاننا أن نتذكر أن هذا التوجه اللاوضعى واللاتارىخى لعلم اللغة كان يمثل فى الحقيقة أحد المظاهر الإبستمولوجية المترمقة التى تصورها دوسوسير لهذا العلم. حيث لم يكن علم اللغة علماً ينتمى - فى رأيه - إلى أحد العلوم الوضعية أو التارىخية؁ وإنما كان ينتمى إلى علم لم يكن وقتئذ قد نشأ بعد؁ وهو علم العلامات *Sémiologie*؁ وقد رأى دوسوسير أن على علم اللغة الانتظار حتى ينشأ هذا العلم كى يستطيع فى ضوئه تحديد موضعه الإبستمولوجى الصحيح؁ ولكى يهتدى علم العلامات «المتخيل» إلى رسم حدوده الصحيحة كان عليه أن يتخذ من مناهج علم اللغة ومفاهيمه مصدراً للإنارة والطموح؁ وقد قدم دوسوسير الأداة التحليلية التى اعتقد أنها ستساعد علم العلامات فى تحليل الظواهر الإنسانية غير اللغوية؁ ألا وهى مفهوم العلامة اللغوية.

العلامة اللغوية عشوائية؁ كانت تلك الصيغة تمثل فى الواقع نقطة الانطلاق الرئيسة التى أقرها دوسوسير لفهم علم اللغة للعلامة اللغوية؁ بمعنى أنه لاتوجد علاقة سببية جوهريّة بين متتالية الأصوات التى تتخذها العلامة اللغوية دالاً *Signifier* لها؁ والمفهوم الذى تستخدمه بوصفه مدلولاً *Signified* له. وبصرف النظر عن إمكانية الحديث عن الدال والمدلول بوصفيهما العنصرين المستقلين المكونين للعلامة اللغوية إلا أنهما لا يوجدان فى الحقيقة هكذا؁ بمعنى أنه لا يمكن الفصل بينهما دون تحطيم جوهر العلامة اللغوية ذاتها بوصفها كذلك.

ولقد كانت الخطوة الجسورة التى قام بها دوسوسير لشرح الخاصية العشوائية للعلامة اللغوية هى إنكاره الارتباط القائم بينها والموضوع الخارجى الذى تشير إليه؁ وهو ما يعرف فى الدرس اللغوى بمبحث الإحالة *reference*؁ فقد أقر دوسوسير عدم الإحالة إلى مشاهد الطبيعة؁ فى حين أنكر وجهة النظر الاسمائية فى تفسيره للعلامة اللغوية وأصر على التمثيل للاسمائى لها؁ فلم تكن العلامة اللغوية تمثل فى رأيه موضوعاً مادياً متفرداً واسماً يدل عليه؁ وإنما كانت تصوراً عقلياً خالصاً لعنصر الصوت (الدال) من ناحية؁ وعنصر الفكر الذى يدل عليه (المدلول) من الناحية الأخرى؁ وهكذا لم يكن العامل الحاسم فى تحديد معنى العلامة اللغوية يتمثل فى المشهد أو المرجع المادى المتفرد الذى تحيل العلامة اللغوية دالها عليه؁ وإنما كان يتمثل فى

الموضع الذى تحتله داخل نسق اللغة *la langue*، وعلى هذا الأساس نقل دوسوسير مبحث الإحالة اللغوية بكامله إلى داخل العقل الإنسانى، وأصبحت اللغة بوصفها نسقاً من العلامات اللغوية ظاهرة عقلانية خالصة بصرف النظر عن الصور الصوتية أو الكتابية التى تتحقق فيها الدوال. أو عن مشاهد الطبيعة التى يحيل المتمثلون له أفعالهم الكلامية عليها.

لم تكن اللغة بوصفها نسقاً من العلامات اللغوية تمثل بالنسبة للعلم الذى تصوره دوسوسير للعلامات غير اللغوية مجرد مصدر للإلهام أو التنوير فقط، وإنما كانت نموذجاً منهجياً متحققاً لدراسة جميع الظواهر الثقافية غير اللغوية بوصفها «لغات». ومع أن دراسة اللغة بهذه الكيفية لم يكن يمثل بالنسبة لعلم العلامات العام سوى أحد الأمثلة الإيضاحية المحددة؛ إلا أنها - بما هى كذلك كانت تمثل - فى رأى دوسوسير - النسق السيميولوجى الأمثل لعمليات الانتخاب الاصطلاحي (أو العشوائى) التى يمكن أن يقوم العقل البشرى بها على الإطلاق. وهذا هو السبب الذى جعل من نموذج التحليل السيميولوجى للغة بوصفها نسقاً من العلامات نموذجاً صالحاً للتصدير إلى الميادين الثقافية التى تفتقر أنساق المسميات فيها إلى مشاهد الطبيعة (مثل الأدب، الأساطير، القرابة، الأزياء، فنون الطهى ... إلخ)، أو ربما كان السبب الذى دفع المتخصصين فى هذه الميادين إلى محاكاة النموذج السيميولوجى فى الأصل. وعلى أى حال لم يرغم نموذج التحليل السيميولوجى للغة هؤلاء المتخصصين على دراسة الظواهر الثقافية غير اللغوية بوصفها «لغات» فقط، وإنما دفعهم إلى الإصغاء إلى عمليات الانتخاب الاصطلاحي أو العشوائى للأنساق الرمزية الجمعية التى يدرسونها والتى لم يكن بمقدورهم الإصغاء إليها بمعزل عن دراسة الظواهر الثقافية والاجتماعية بوصفها أنساقاً من العلامات.

وبعد ...، فقد صدر كتاب جوناثان كلار: «دوسوسير» فى سلسلة فونتانا «الأساتذة المحدثون»، وهى سلسلة تعليمية المقصود منها - مثل الموسوعات العامة - مخاطبة جمهور القراء من غير المتخصصين، ولذلك لا تحرص هيئة التحرير على اختيار الأساتذة المتوجين فقط، وإنما تحرص أيضاً على اختيار كتاب السير الذين سيتولون تبسيط الأفكار أو المناقشات الصعبة للقراء المبتدئين. ومن هذا المنظور يحسب لهيئة تحرير فونتانا ليس فقط اختيارها لدوسوسير لمثل هذا التقديم التعليمى فى هذه السلسلة وإنما اختيارها أيضاً لجوناثان كلار ليتولى مهمة تبسيط السيرة

الفكرية لـ «الأستاذ» لجمهور القراء المبتدئين ، لأن الذى يميز الكتاب الحالى هو المنهاج النقدى الخصيب الذى اتبعه كلر فى تحقيق هذه السيرة.

ولتوضيح ذلك علينا أن نتذكر النص المحرر من «محاضرات فى علم اللغة العام». فمن الثابت فى هذا النص - وكما سبق أن أشرنا فى هذا التقديم - أن ثنائية اللغة / الكلام كانت تمثل محور الارتكاز الأول فى التصور الذى قدمه دوسوسير لعلم اللغة بوصفه فرعاً من علم العلامات العام، ومع ذلك فقد رفض كلر التسليم بتلك الثنائية بوصفها الثيمة المحورية التى يمكن أن يدار حولها كل الأفكار المتشعبة التى شغلت ذهن دوسوسير . وأثبت بدلاً منها مبدأ الطبيعة الاصطلاحية أو العشوائية للعلامة اللغوية بوصفه المبدأ المحورى الذى انطلق منه دوسوسير، وكان دائم الاحتياط له فى مناقشاته لمختلف القضايا التى ألقى محاضراته حولها فى مدرجات جامعة جنيف.

فمن هذا المنظور يقدم الكتاب الحالى إخراجاً نقدياً جديداً للملخص الفكرى الذى قدمه دوسوسير لعلم اللغة الحديث وعلم العلامات العام كليهما، وربما كانت إحدى الفضائل الأساسية فى هذا الكتاب أن كلر لم يكتف بالنص المحرر من «محاضرات فى علم اللغة العام» وجعله مسودة ينقل لنا منها جانباً من السيرة الفكرية للأستاذ، وإنما حرص على الرجوع إلى كراسات الطلاب التى اعتمد عليها بالى وسيشيهائى فى تحرير «المحاضرات»، ليتحرى بنفسه من منطق حياة الأفكار، ولنا أن نتصور كم الجهد الذى بذله كلر فى إعادة تحقيق الأفكار أو فى إعادة إثبات نسبها الجينيولوجى الجديد على لسان الأستاذ، وهى الأفكار ذاتها التى سبق وأن شاعت منسوبة إليه بفعل «النص المحرر من المحاضرات» لفترة تجاوزت الستين عاماً، بين ظهور هذا النص فى عام ١٩١٦ وظهور الكتاب الحالى فى عام ١٩٧٦.

ولهذا السبب بالذات حرصنا على ترجمة هذا الكتاب لأصدقائنا من قراء العربية، وعلى الرغم من قصره إلا أنه ينقل - فى رأينا - جوهر الملخص الفكرى الذى قدمه دوسوسير لعلم اللغة والعلوم الإنسانية الحديثة على حد سواء من منظور جديد، وأحسب أن الكتاب يمثل على هذا النحو مقدمة تعليمية عامة لهؤلاء المبتدئين الذين يرغبون فى الاطلاع على أهم ملامح النثر السيميولوجى الحديث فى أسلوب واضح المعالم ومقنع، أملين أن يكون لترجمتنا هذه بعض القيمة لكل من يتفضل ويجد الوقت اللازم لقراءتها .

محمود حمدي

الإسكندرية فى ١٩٩٩/٤/٧

مقدمة المؤلف

فردينان دوسوسير F. de Saussure مؤسس علم اللغة الحديث هو الرجل الذي أعاد تنظيم الدراسة المنهجية للغات في بداية القرن العشرين بالأسلوب الذي مكن علم اللغة من تحقيق كل الانتصارات التي أحرزها في هذا القرن. وهذا في حد ذاته جعل منه رائداً عصرياً، رائد في هذا العلم الذي جعل هو منه علماً عصرياً. ليس هذا فحسب فهناك الكثير من الدعاوى التي قدمها دوسوسير تهمنا أيضاً.

أولاً : فقد ساعد دوسوسير ومعاصراه العظيمان إميل دوركايم E. Durkheim وسيجموند فرويد S. Freud في وضع دراسة السلوك الإنساني في مسار فكري جديد تماماً. فقد أدرك هؤلاء الرواد الثلاثة أن الاكتفاء بدراسة السلوك الإنساني بوصفه سلسلة من الأحداث المماثلة لأحداث العالم الطبيعي لا يمكننا من تحقيق الفهم الملائم للإنسان ونظمه. فقد يكون بإمكان العالم الفيزيائي دراسة تلك الموضوعات الحسية في مختلف الظروف الثابتة (كمسارات القذائف من مختلف الزوايا أو سرعة الضوء أو التفاعلات التي تتم بين المواد الكيميائية في مختلف درجات الحرارة)، والقيام بوصف ما يحدث وتفسيره دون أن يلتفت إلى انطباعات الناس حولها أو آرائهم فيها. إلا أن الموقف في دراسة السلوك الإنساني غالباً ما يختلف، حيث لا يستطيع دارس السلوك الإنساني صرف النظر عن الانطباعات الذاتية التي تتكون لدى أعضاء المجتمعات عنه، أو المعاني التي يمكن أن يعبر عنها هذا السلوك لديهم، فحين يرى أعضاء مجتمع من المجتمعات أن تصرفات بعينها غير مهذبة أو أنها لا تتسم بالكياسة والأدب، فتلك «حقيقة» اجتماعية تدرج ضمن ما يهتم به دارس السلوك الإنساني مباشرة، وعلى ذلك فإن تجاهل المعاني الخاصة بالتصرفات أو الموضوعات الحسية يجعل من دراسة السلوك الإنساني مجرد دراسة للأحداث الفيزيائية لا غير، لأن دارس السلوك الإنساني لا يقوم في الواقع بتحليل الأحداث الواقعة بذاتها، وإنما يقوم بتحليل الأحداث التي تكسوها المعاني.

بالإضافة إلى ذلك فقد اعتقد العلماء الثلاثة أن الاكتفاء باقتفاء أثر الأسباب التاريخية للأحداث الواقعة بوصفها أحداثاً مستقلة ومنفصلة يمكن أن يفقد دراسة

السلوك الإنساني أهم مقوماتها. لذلك فقد رأى ثلاثتهم ضرورة دراسة الوظائف التي تقوم بها الأحداث الواقعة داخل الهيكل الاجتماعي العام، أى يجب معالجة الحقائق الاجتماعية بوصفها جزءاً من نسق محدد من الأعراف والقيم. لقد أصبح السؤال الرئيسى عندهم هو: ما الأعراف والقيم التي تسمح للبشر للعيش معاً داخل المجتمع، وتمكنهم من الاتصال فيما بينهم ومن التصرف بالطريقة التي يتصرفون بها؟ ولقد كانت الإجابة عن هذا التساؤل تؤدي مباشرة إلى وجود «علم» يختلف كلية عن العلم الذي يبحث عن الأسباب التاريخية للأحداث الواقعة. فقد أرسى بوسوسير مع معاصريه الأثنين مثل هذا النمط الجديد من البحث، وهو نمط لا يبحث عن الأسباب التاريخية للأحداث الواقعة بقدر ما يبحث عن النسق العقلاني الكامن وراءها، وهكذا فقد أتاح هؤلاء العلماء الثلاثة إمكانية القيام بالدراسة التفصيلية والملائمة للإنسان.

ثانياً: لقد ساعد بوسوسير بمنهجه، وبمختلف اقتراحاته المثمرة على إنشاء علم العلامات *Sémiologie* وظهور البنيوية *Structuralisme* فى الأنثربولوجيا والنقد الأدبي وعلم اللغة. وبالفعل يعود الاهتمام المكثف الذي شهدته السنوات الماضية ببوسوسير إلى كونه الأب الملهم لعلم العلامات والنزعة البنيوية وعلم اللغة البنائي على حد سواء.

ثالثاً: لقد قدم بوسوسير بملاحظاته المنهجية الثاقبة، وبمدخله إلى اللغة أسلوباً واضحاً من التعبير عن استراتيجيات الفكر الحدائى، وهى استراتيجيات التفكير التي كان يعمل فى ضوءها العلماء والفلاسفة والكتاب والفنانون فى الجزء المبكر فى هذا القرن، والتي كانوا يحاولون عن طريقها التوصل إلى تحقيق فهم ما لهذا الكون الهيولى المعقد. لقد كان السؤال المطروح بين هؤلاء فى مختلف مجالات تخصصاتهم: كيف يمكن للمرء أن يتغلب مقولياً أو تصنيفياً على حالة الهيولة أو حالة الخلط فى العالم الحديث؟ وقد كانت الإجابة التي قدمها بوسوسير على هذا السؤال إجابة نموذجية: إنك لا تستطيع أن تتطلع إلى الحصول على وجهة نظر مطلقة للأشياء، وإنما يجب عليك أن تختار منظور ما، منظور تستطيع من خلاله تحديد الأشياء ليس بماهيتها وإنما بالعلاقات التي تقيمها فيما بينها. وهكذا مكننا بوسوسير من تحقق الفهم الواضح لاستراتيجيات الفكر الحدائى.

أخيراً: لقد ركز بوسوسير فى معالجته للغة على المشكلات الناتجة عن الطرق الجديدة من التفكير حول الإنسان، وعلى الأخص فيما يتعلق بالعلاقة الوثيقة بين اللغة والعقل. فإذا كنا نعلم الآن بأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي تتميز علاقاته بالعالم

الموضوعى بالعمليات البنائية والتمييزية، وهى العمليات التى تتجلى بكل وضوح فى اللغة، فإن الفضل فى هذا السبيل يعود إلى نوسوسير، لأننا متى تحدثنا عن نزعة الإنسان لتنظيم الأشياء فى أنساق بغاية نقل المعانى، فقد وضعنا أنفسنا إلى حد بعيد فى الخط النوسوسيرى من التفكير.

تلك الإسهامات العريضة التى قدمها نوسوسير سواء إلى علم اللغة أو إلى العلوم الاجتماعية أو إلى علم العلامات أو إلى النزعة البنيوية والفكر الحدائى وإلى تصورنا للإنسان عموماً جعلت منه هذا العلامة البارز فى تاريخ الفكر الحديث. وعلى ذلك فإذا كانت لدينا رغبة حقيقية فى التعرف على أهمية نوسوسير يجب أن يشتمل كتابنا الحالى على علم اللغة والعلوم الاجتماعية وعلم العلامات والفلسفة. ولكن المفارقة هنا هى أن نوسوسير لم يكتب ذات يوم شيئاً يمكن أن يكون له مثل هذه الأهمية العامة. فهو لم ينشر أثناء حياته سوى كتاباً واحداً حول «النظام الأساسى للصوائت فى اللغات الهندية الأوربية القديمة *Mémoire sur le système primitif des Voyelles dans les langues indo - européennes*، والأطروحة التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ليبزج *Leipzig* حول «استخدام حالة المضاف إليه المطلق فى السنسكريتية *De L'emploi du genitif absolu en sanscrit* وعدد ضئيل من الأبحاث اللغوية المتخصصة. ولم يترك بعد وفاته أى مخطوطات يمكن أن يكون لها أية قيمة عامة. وإنما قام كل هذا التأثير البالغ الذى مارسه نوسوسير داخل علم اللغة وخارجه على «نص» لم يكتبه بقلمه قط. فالثابت أنه بين عامى ١٩٠٧، ١٩١١ قام بتدريس ثلاثة مقررات فى علم اللغة العام بجامعة جنيف *Geneva*. وبعد وفاته عام ١٩١٣ بثلاثة أعوام قام تلامذته وزملاؤه بنشر المحاضرات التى ألقاها فى تلك المقررات فى مجلد حمل عنوان «محاضرات فى علم اللغة العام *Cours de Linguistique Générale*».

فى الفصل الأول لدينا الكثير مما يمكن قوله حول التكوين الغريب للمحاضرات، والطريقة التى تم جمع النص المنشور بها، وعلى الرغم من ذلك فربما كانت القضية المثيرة هى أن نوسوسير - على الرغم من كل تلك المكانة المرموقة التى يحتلها فى الفكر الحديث - لم يكن سوى عالم لغوى دارس للغة، وقد يظن المرء - بناء على تلك الأهمية التى ترتبط بنوسوسير بوصفه مؤسساً لعلم اللغة الحديث، وصاحباً لتصور جديد للغة، وملهماً لعلماء الأنثروبولوجيا ونقاد الأدب - أن كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام» كتاب يمتلئ بالتعميمات العريضة، أو بالملاحظات المحملة بالاحتمالات حول

طبيعة اللغة والعقل الإنساني، أو أنه كتاب يتضمن عدداً من النظريات الدقيقة البليغة حول الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً واتصالياً، ولكن الواقع غير ذلك، فالمثير في هذا الكتاب هو اهتمام بوسوسير الدائم بتحديد مبادئ علم اللغة وموضوعه على حد سواء.

لقد اتخذ الاهتمام الذي أظهره بوسوسير بطبيعة اللغة ومبادئ علم اللغة شكل الاستفسارات التي طرحها «نحن» حين نتحدث عن اللغة. على سبيل المثال: لو صدر منك مجموعة من الأصوات *a noise* وصدر مني في وقت لاحق مجموعة أخرى من الأصوات. ما الشروط التي يمكن في ضوءها أن نقول إن كلانا قد نطق بالكلمات نفسها؟، وتلك استفسارات قد تبين تافهة وعديمة القيمة، وقد يميل المرء إلى رفض طرحها على اعتبار أنها استفسارات عديمة المضمون، أو قد يقول المرء إننا نعرف بشكل واضح ما إذا كان شخصان معينان قد نطقا بالكلمات نفسها أم لا. ومع ذلك فمن المؤكد أن المسألة لم تكن عند بوسوسير على ذلك النحو، وإنما كانت كيف يمكن لنا معرفة ذلك؟ أو كيف يمكن لنا أن نعرف أن هذين الشخصين قد نطقا بالكلمات نفسها أم لا؟ وما الذي يتضمنه معرفتنا لذلك؟ لأنه مهما كان «هذا» المضمون فإنه يُعد بذاته جزءاً من معرفتنا باللغة، أي يُعد جزءاً من معرفتنا بوحدات هذه اللغة. وهكذا إذا كانت لدينا الرغبة الحقيقية في تحليل اللغة فإنه يجب علينا تشكيل فكرة واضحة ومنسقة حول وحدات هذه اللغة وعناصرها. فلو اعتقدنا - على سبيل المثال - أن «الكلمة» هي الوحدة الأساسية للغة فإنه يجب علينا أن نعرف كيف نطق الشخصان الكلمة ذاتها بالرغم من اختلاف الأصوات الفيزيائية الفعلية التي صدرت عن كل منهما.

هكذا طرح بوسوسير الاستفسارات الأساسية العميقة التي لم يحدث أن طرحها أي من علماء اللغة من قبل، وقدم الإجابات التي أحدثت ثورة هائلة في الطريقة التي تُدرس اللغة بها. وهي إجابات لم تثر اهتمام دارسي علم اللغة فقط - كما قد يبدو من الوهلة الأولى - وإنما أثارت اهتمام جميع المشتغلين بالعلوم الإنسانية بلا استثناء، وهي العلوم التي تهتم بعالم الموضوعات والأفعال الإنسانية ذات المعنى (على المقابل من العلوم التي تهتم بالموضوعات والأحداث الفيزيائية ذاتها). ومهدت الطريق أمام دراسة الطرائق العامة التي يقوم العقل بتنظيم الخبرات الإنسانية بها.

على أي حال فنظراً لأهمية المضمون العريض لأفكار بوسوسير لدى قراء هذا الكتاب، سوف نتناول القضايا الكبرى في الفصول التالية. ومع ذلك فقد يتطلب فهم المرء لأفكار بوسوسير من المرء نفسه الحرص على تتبع منطقة في التفكير بالتفصيل. أي يوجب الأمر على المرء العودة إلى المبادئ الأولى عند بوسوسير وطرح التساؤلات

الأولية التي طرحها «هو» حول اللغة وطبيعة العلامة وماهية وحدات اللغة. وبإختصار يجب علينا أن نبدأ الكتاب باكتشاف نظرية اللغة عند دوسوسير.

وتلك مهمة ليست يسيرة على أى حال، لأنها تتطلب شرحاً تفصيلياً مطولاً للمقولات اللغوية عند دوسوسير، والمناقشات التي ساقها حولها. ويزيد من صعوبتها أن نعرف أن دوسوسير نفسه لم يشعر فى وقت من الأوقات أنه فى وضع يسمح له بالفعل بكتابة كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام» بنفسه، فهو لم يكن قد اقتنع بعد بأنه انتهى بالفعل من معالجة المشكلات الأساسية لعلم اللغة بأسلوب واضح لا لبس فيه، وقد كان يشعر طوال الوقت بأنه ما زال يتلمس الطريق لصياغة مرضية للأفكار التي لم يكن قد ألقى عليها بالكاد نظرة خاطفة. فالثابت أنه إن كان دوسوسير قد اقتنع بأنه قد انتهى بالفعل من تمحيص الأفكار ومناقشاتها لكان قد كتب الكتاب بنفسه بون شك، ولأن ذلك لم يحدث فى الواقع فإن علينا أن نبذل المزيد من الجهد لفهم هذا الفكر المبتسر الذي لم يكن قد ولد كاملاً بعد، والذي كان فى مقدوره - حتى فى حالته المبتسرة هذه - تحقيق مثل هذا التأثير البالغ فى الأجيال المتعاقبة من علماء اللغة ومن غيرهم.

إن: فمهمتنا الأولى بعد إلقاء نظرة موجزة على حياة دوسوسير والظروف التي أدت إلى نشر المحاضرات هي اكتشاف نظرية دوسوسير فى اللغة، أى علينا البدء بالمبادئ الأولية عنده قبل أن نعيد تأليف مبادئ علم اللغة الحديث، وقبل الشروع فى المهمة الأساسية الثانية. فقد نشأت المحاضرات نتيجة استياء دوسوسير من علم اللغة (التاريخى) كما كان يمارس أثناء حياته. وهكذا إذا أردنا التوصل إلى فهم حقيقى لأفكار دوسوسير ومغزاها فإن علينا التعرف على وضع علم اللغة كما رآه دوسوسير فى ذلك الحين وإلى أى حد ينطبق بحثه فى تاريخ علم اللغة على بحث تاريخ التفكير فى اللغة عموماً. وبعد ذلك سنتنقل فى الفصل الرابع من الماضى إلى الحاضر والمستقبل، وسوف نلخص فى هذا الفصل مغزى بحث دوسوسير فى علم العلامات العام، وهو العلم الذى وضع دوسوسير تصوراً كاملاً له، هذا مع أنه لم يتخذ شكله الحقيقى فى الواقع إلا بعد سنوات طويلة من وفاته.

على أى حال مهمتنا الأساسية فى هذا الكتاب هي تتبع أفكار دوسوسير فى علم اللغة وعلم العلامات العام وتتبع تأثيرها الفعلى فى هذين المجالين، إلا أنه إذا كنا نود بالفعل تكوين رأى صحيح أو التوصل إلى حكم دقيق حول المغزى الحقيقى لأفكار دوسوسير ومكانتها فى عالم الفكر فى القرن العشرين فإن علينا أن نتناول بكل

صراحة تلك المظاهر التي صيغت بشكل غير مناسب في المحاضرات المنشورة أو التي
أسئ فهمها وتفسيرها أو تلك التي تم تجاهلها. وبهذا الأسلوب فنحن نؤكد على أن
نوسوسير لم يكن العلامة الملهم في الماضي القريب فقط، وإنما يعد الممثل الفكري
الرئيسي في العصر الحاضر أيضاً.

الفصل الأول

الرجل و المحاضرات

وبوسوسير هو تلك الشخصية الباهرة الأسرة المثيرة للإعجاب وللغربة في الوقت نفسه، ذلك لأنه عاش مثل هذه الحياة الهادئة الخالية من الأحداث المهمة، فهو لم يعان أثناء حياته من أية أزمات فكرية طارئة، ولم يمر أثناء حياته أيضاً بأية لحظات حاسمة من التبصر أو من الهداية، ولم يُصادف أن كان لديه مغامرات شخصية مثيرة. ومن ثم فإن هذا التواضع الذاتي الذي يأتي على النقيض تماماً من هذا الفكر الجريء العنيد يجعل من الصعب على المرء تتبع كيفية ظهور هذا الفكر في حياته العقلية المبكرة، هذا بالإضافة إلى أن بقاء البحث الرئيسي غير مكتوب حتى وفاته يمثل في الحقيقة الذروة المناسبة لسير حياته المهنية المتناقضة هذه.

ولد بوسوسير في «جنيف» عام ١٨٥٧ بعد مولد فرويد S, Freud بعام واحد، وقبل مولد دوركايم E. Durkheim بعام آخر، وعاش ابناً وحيداً لأحد علماء الطبيعة البارزين وفي عائلة اشتهرت بإنجازاتها في العلوم الطبيعية. وفي سن مبكرة تعرف بوسوسير للمرة الأولى على علم اللغة عن طريق أولف بيكتيت Adolphe Pictet عالم الفيلولوجيا وصديق عائلة الأب، وقد حاول وهو ما زال في الخامسة عشر من عمره (بعد أن تعلم اليونانية والفرنسية والألمانية والإنجليزية) استنتاج نسق عام للغة، وكتب في عام ١٨٧٢ «مقال حول اللغات» Essai sur les langues سلمه إلى بيكتيت. في هذا المقال ذهب بوسوسير إلى أن اللغات جميعها تمتد بجنورها إلى أحد الأنساق المكونة من ثلاث حروف صامتة أساسية. ولا شك أن وجه بيكتيت قد ارتسمت عليه ابتسامة هادئة حين اطلع على تلك المحاولة الغضة، ولكنه لم يثبط من عزيمته الطالب بوسوسير الذي كان قد بدأ وهو ما زال في المدرسة في دراسة اللغة السنسكريتية .

وفي عام ١٨٧٥ التحق بوسوسير بجامعة جنيف، وسجل اسمه بوصفه دارساً للفيزياء والكيمياء كما تقضى التقاليد العلمية للعائلة، إلا أنه تابع في الوقت نفسه مقررات القواعد اليونانية واللاتينية بالجامعة ذاتها. وهي المتابعة التي أقنعتة بعد عام من التحاقه بالجامعة أن تخصصه الأكاديمي يقبع في دراسة اللغة، ولم يكن ذلك بسبب التحاقه في ذلك الحين بإحدى الروابط اللغوية المتخصصة (وهي الجمعية اللغوية في باريس) وإنما كان لاحتساسه أن العام الأول الذي مضاه في جامعة جنيف قد تبدد دون نتيجة. وقد نجح حينئذ في إقناع والديه في إرساله إلى جامعة ليبزج Leipzig بألمانيا لدراسة اللغات الهندية الأوروبية.

كانت جامعة ليبزج في الواقع اختياراً موفقاً بالنسبة له، لأنها كانت تمثل في ذلك الحين مركزاً لمدرسة تضم عدداً من علماء اللغة التاريخيين الشبان، هم النحاة الشبان أو النحاة الجدد Neo-grammarians، وقد استطاع دوسوسير منذ البداية أن يباري القدرات العقلية الفائقة لهم، وتؤكد له حسه الإبداعي الذاتي حين اكتشف أحد أساتذة جامعة ليبزج وهو بروجمان Brugmann ما عرف باسم قانون الأصوات الأنفية Nasal Sonans. وهو القانون الذي كان دوسوسير قد اكتشفه قبل ذلك بسنوات، ولكن اكتشافه قوبل بالرفض لتصارعه من الفرضيات السائدة بين علماء اللغة البارزين حينذاك.

مكث دوسوسير في جامعة ليبزج فترة تعدت الأربعة أعوام، تخللتها فترة فاصلة (ثمانية عشر شهراً) قضاهما في جامعة برلين، ونشر في ديسمبر من عام ١٨٧٨ وعمره لم يتعد حينذاك الواحد والعشرين عاماً بحثاً بعنوان: «تقرير حول النظام الأساسي للصوائت في اللغات الهندية الأوروبية». وهو البحث الذي وصفه أحد علماء اللغة المعاصرين بأنه: «من أكثر الأبحاث التي كُتبت في الفيلولوجيا المقارنة إبهاراً»، وسوف نتناول خلاصة هذا البحث ونتائجه في الفصل الثالث من هذا الكتاب. ولكن المثير في هذا البحث هو هجوم عالم اللغة الشاب على المشكلة الأساسية في علم اللغة التاريخي. فقد كتب دوسوسير في مقدمة البحث: «إنني لا أفكر في القضايا النظرية المبهمة، ولكن أبحث عن المبادئ الأولية للموضوع، تلك المبادئ التي يصبح بدونها كل شيء غير راسخ وعشوائياً ومشكوكاً فيه».

لقد لقي «التقرير» ترحيباً عريضاً في عدد كبير من الدوائر الأكاديمية، ولذلك فبعد عودته إلى جامعة ليبزج قادماً من جامعة برلين سأل أحد الأساتذة ذات مرة إن كان قد اتصل مصادفة مع عالم اللغة العظيم دوسوسير مؤلف «التقرير». ومع ذلك فالمرجح أن دوسوسير لم يجد في ألمانيا التجانس الفكري الذي كان يبتغيه، لأنه بعد أن دافع عن «الرسالة» التي تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه انتقل إلى باريس.

في فرنسا حقق دوسوسير النجاح الكامل، فبمجرد وصوله إلى جامعة باريس بدأ في تدريس اللغات السنسكريتية والقوطية Gothic والألمانية القديمة، وبعد عام ١٨٨٧ وسّع من دروسه لتغطي الفيلولوجيا الهندية الأوروبية عموماً، وظل يمارس تأثيره في مجال اللغة الاجتماعي وبخاصة على الجيل الأصغر من علماء اللغة الفرنسيين. وفي عام ١٨٩١، وبعد ترشيحه لدرجة الأستاذية بجامعة جنيف، قرر العودة إلى سويسرا. ولم يستطع زملاؤه الفرنسيون الأكبر سناً، ولم تستطع كل مظاهر الاحترام والحفاوة التي أظهروها له أن تبقيه في جامعة باريس.

فى جامعة جنيف كان عدد تلاميذ «الأستاذ» أقل وأبطأ تقدماً فى تحصيل العلم عن مثيلهم فى جامعة باريس، وقد قام دوسوسير حينذاك بتدريس اللغة السنسكريتية و علم اللغة التاريخى، وتزوج وأصبح أباً لاثنتين من الأبناء، وكان نادر السفر، ويبدو أنه استسلم للخمول الإقليمى المحلى، وبدأت كتاباته فى التضاؤل شيئاً فشيئاً، واستسلم للأحزان. فهو فى خطاب كتبه فى عام ١٨٩٤ - وهو أحد الوثائق الشخصية القليلة التى تم العثور عليها - يشير إلى «مقال» كان قد سلمه إلى أحد الناشرين، فنقرأ: «... ولكنى سئمت كل هذا، حتى أصبح من الصعب على كتابة مجرد عشرة أسطر حول القضايا اللغوية بحس جيد، لقد كان أول ما يشغلنى هو التصنيف المنطقى للحقائق اللغوية، وتصنيف موضوعات وجهة النظر التى أعالج هذه الحقائق اللغوية منها. إننى على وعى متزايد بالقدر الهائل المطلوب منى من البحث كى أظهر للباحث اللغوى ما يقوم به... عدم ملاعة المصطلحات التقنية السائدة، ومدى الحاجة لإصلاحها، ولكنى، لى أقوم بإنجاز ذلك، ولكى أقوم بشرح نوعية الموضوع الذى تمثله اللغة، فإن ذلك يسلبنى باستمرار استمتاعى بالفيلولوجيا. فعلى الرغم من أنه ليس هناك أمنية أعز عندى من عدم التفكير فى طبيعة اللغة إلا أن الأمر سوف يؤدى بى - ضد إرادتى - إلى كتابة كتاب سوف أشرح فيه نون تحيز أو انفعال سبب عدم وجود مصطلح واحد فى علم اللغة الآن يمكن أن يتضمن أى معنى بالنسبة لى، وبعد ذلك فقط سيكون بمقدورى متابعة البحث الفيلولوجى عند النقطة التى توقفت عندها».

ولكن دوسوسير وللأسف لم يكتب «هذا الكتاب» قط وإنما قام ببحث فى اللغة الليتوانية Lithuanian، والخرافات الألمانية فى العصور الوسطى، وبون الكثير من الملاحظات حول نظرية الجنس التصحيفى فى القصائد اللاتينية. وفى عام ١٩٠٦ ونظراً لتقاعد أحد أساتذة جامعة جنيف عهدت إدارة الجامعة إليه بمهمة تدريس مقرر «علم اللغة العام». وفى السنوات التالية (١٩٠٧، ١٩٠٨ / ١٩٠٩ . ١٩١٠ / ١٩١١) ألقى دوسوسير محاضراته فى هذا المقرر، وهى المحاضرات التى أصبحت فى النهاية كتاباً بعنوان «محاضرات فى علم اللغة العام»، وفى صيف عام ١٩١٢ سقط مريضاً، وتوفى فى فبراير من عام ١٩١٣ عن عمر يناهز السادسة والخمسين.

ولكن فعلى الرغم من النجاح الملحوظ الذى تحقق لدوسوسير أثناء حياته الأكاديمية فإن سيرة حياته لم تكن سيرة حياة عادية بأى حال. فقد أكدت كتاباته المنشورة مكانته المرموقة فى تاريخ الفيلولوجيا، مكانة لا تقل بأى حال عن تلك المكانة التى تحققت لبعض النحاة الشبان أو النحاة الجدد البارزين من أمثال بروجمان وفيرنر

Verner اللذين لا يعرفهما اليوم سوى دارسى الفيلولوجيا المتخصصين. وكان من حسن حظه البالغ أن حرص زملاؤه وتلاميذه على الاحتفاظ بالمحاضرات التى ألقاها فى علم اللغة العام، وأخرجوا إلى النور هذا المجلد القيم الذى جعل منه هذا المفكر الرائد.

وبتك مهمة لم تكن - وكما يروى بالى Bally وسيشيهائى Sechehayo فى تقديمهما لـ «المحاضرات» - مهمة سهلة بأى حال. نظراً لأن بوسوسير لم يحتفظ بأية مسودات خاصة بالمحاضرات التى ألقاها فى علم اللغة العام، ونظراً لأنه لم يكن بين يدى المحررين كذلك سوى تلك الملاحظات التى بونها الطلاب الذين ألقىت المحاضرات عليهم. حتى إن نجح المرء فى التوصل إلى بعض الأفكار الواضحة (لما قاله بوسوسير فى ثلاث سلاسل من المحاضرات) من خلال الموازنة بين الملاحظات التى بونها الطلاب والمقارنة بينها، فسوف تظل هناك مشكلة رئيسية. وذلك لأن طبع تنوينات الطلاب لسلاسل المحاضرات الثلاث فيه تكرار للنصوص (هذا إذا تغاضينا عن التضاربات فى تلك التنوينات)، ثم إن الاكتفاء بطبع سلسلة واحدة من المحاضرات سوف ينتج عنه حذف جزء كبير من أفكار بوسوسير، وذلك لأنه فيما يبدو قام بتأليف كل سلسلة محاضرات منها من جديد، ووفقاً لخطة مختلفة. وأمام هذه المشكلة المحيرة اتخذ المحرران - زميلا بوسوسير اللذان لم يحضرا بنفسيهما هذه المحاضرات - قرارهما الجرى الذى كان مسئولاً عن كل هذا التأثير المتأجج الذى مارسه بوسوسير. فقد قررا تأليف بحث واحد وإعطاء الأسبقية للسلسلة الثالثة من المحاضرات مع الاعتماد فى الوقت نفسه على المادة المستقاه من السلسلتين الأخريين، وعلى الملاحظات الشخصية التى بونها بوسوسير بنفسه.

قد يرتجف معظم الأساتذة حين يفكر أى منهم فى إمكانية أن يصادر أحد غيرهم وجهات نظرهم بتلك الطريقة. وبالفعل فمن غير المعتاد أن يرجى من القيام بمثل هذا الاجراء - المملوء باحتمالات إساءة الفهم وال طول الوسط - تقديم عمل مهم. ومع ذلك فالحقيقة ثابتة، لقد كان كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام» كما حرره بالى و سيشيهائى هو المصدر الوحيد لكل التأثير الذى مارسه بوسوسير وشهرته. ولم يكن فى الإمكان قبل عام ١٩٦٧ الانتقال إلى أبعد من هذا النص المحرر، ففى هذا العام قام رودلف انجلر R. Engler بنشر الملاحظات التى بونها الطلاب التى تم تأليف المحاضرات منها. وعلى الرغم من ذلك فقد كان نص «محاضرات فى علم اللغة العام» هو «النص» الذى مارس كل هذا التأثير المتأجج فى الأجيال المتتابة من الدارسين اللغويين.

وتلك حقيقة ثابتة لا يمكن بحضها بأى حال ومع ذلك فهى تطرح على مناقشتنا الحالية قضية أخرى. لأنه إذا كانت أهمية بوسوسير سواء فى علم اللغة أو التخصصات الأكاديمية الأخرى لم تقم على ما كان يتوخاه هو بالفعل بقدر ما قامت على ما تضمنه «النص المحرر من المحاضرات»، فإن وجود ملاحظات الطلاب ومدوناتهم منشورة توجد لدى المرء الرغبة للإشارة إلى المواضيع التى أخذ المحرران فيها حريتهما عند تحرير المحاضرات، أو المواضيع التى أساء فيها فهم أفكار بوسوسير أو حرفاها. فإذا كان لابد من الاعتراف بأن المهمة التى قام بها بالى وسيشيهاى مهمة مثيرة للإعجاب والتقدير فإن هناك أسباباً قوية للقول بأنهما لم ينجحا فى إنجاز تلك المهمة بالقدر الذى كان يأمله المرء لها، فربما لم يكن ترتيبهما للأفكار هو الترتيب الذى قد يختاره بوسوسير لعرض أفكاره؛ لأن هذا الترتيب لا يعكس فى الواقع التابع المنطقى «المحتمل» لمناقشاته. فلم يخضع المحرران على سبيل المثال مفهوم الطبيعة العشوائية للعلامة لكم المناقشة التى خضع لها هذا المفهوم فى ملاحظات الطلاب، ولم يدققا بالقدر الكافى فى مناقشة بوسوسير للخطأ الصوتية للغة، فقد توقفت تلك المناقشة عند مصطلحاتهما «هما» التقنية. وتلك مسائل مهمة لا يستطيع المرء أن يتجاهلها كلية. ولذلك فعلى الرغم من أن تركيزى سوف ينصب فى المحل الأول على نص «محاضرات فى علم اللغة العام» ، إلا أتنى سأحاول بقدر الإمكان إعادة إثبات منطق تفكير بوسوسير من خلال إعادة ترتيب العرض، وسوف ينصب اهتمامى الرئيسى على الدروس السوسيرية كما ظهرت فى «الكتاب» ومكانتها فى تاريخ علم اللغة هذا إلى جانب العرض الدقيق لنظرية بوسوسير فى اللغة. وهو الموضوع الذى سأنتقل إليه الآن، ولن أتردد فى تصويب مختلف السقطات العرضية التى وقع فيها المحرران.

الفصل الثانى

نظرية اللغة عند دوسوسير

كان دوسوسير حزيناً على علم اللغة الذي عانى منه زمناً طويلاً بسبب عدم اهتمام أسلافه بالتفكير الدقيق فيما كانوا يقومون به. ولذلك كتب: «لم يحدث وأن حاول علم اللغة أبداً أن يفصل في طبيعة الموضوع الذي يدرسه أو يدلي برأى فيه، وبدون القيام بتلك العملية الأولية لا يمكن لأى علم تقديم المنهج الملائم الخاص به»^(١). فالفصل في طبيعة موضوع علم اللغة يعد إحدى العمليات الضرورية لهذا العلم. وذلك لأن اللغة الإنسانية تعد إحدى الظواهر المعقدة وغير المتجانسة إلى أقصى الحدود، إلى درجة أن الفعل الكلامي الواحد يتضمن سلسلة طويلة من العوامل، ولذلك يمكن دراسته من وجهات نظر متعددة، بل ومتناقضة في بعض الأحيان، فبإمكان المرء أن يدرس الطريقة التي يتم بها إنتاج الأصوات عن طريق الفم والأحبال الصوتية واللسان، وبإمكانه أيضاً أن يبحث الموجات الصوتية التي يتم اخراجها من الفم والطريقة التي تؤثر بها الموجات الصوتية في ميكانيزم السمع، وبإمكانه أن يتأمل في القصد الدلالي للمتحدث، أو في مظاهر العالم الخارجي التي يشير كلامه إليها، أو في الظروف الفورية للسياق الاتصالي التي تؤدي به لإنتاج سلسلة خاصة من الأصوات أو الضوضاء. وقد يحاول المرء تحليل الأعراف التي تمكن المتحدث والمستمعين من فهم بعضهم بعضاً، أو استنتاج القواعد النحوية والدلالية التي يجب أن يتمثلوها إذا أرادوا الاتصال فيما بينهم بهذه الطريقة. وبإمكان المرء أن يقوم بما هو أكثر من ذلك، أى أن يقوم بتتبع تاريخ اللغة الذي أتاح وجود مثل هذه الأشكال الخاصة في عصر محدد بالذات.

أمام كل هذه الظواهر وكل تلك المنظورات المتباينة التي يمكن للمرء منها فهم هذه الظواهر يجب أن يسأل عالم اللغة نفسه: ما الذي يصفه على وجه التخصيص؟، وما الذي يتطلع إليه بالتحديد؟، باختصار ما اللغة؟. ولقد كانت إجابة دوسوسير على هذا السؤال إجابة شاملة ومهمة إلى أبعد الحدود، ذلك لأنها أدت إلى توجيه الانتباه إلى المبادئ الأساسية: اللغة نسق من العلامات، وأية ضوضاء لا تعد بحد ذاتها لغة إلا

(١) De Saussure , F.; Course in General Linguistics, translated by Wade Paskin, (١) London : Peter Owen, 1960, Fountana 1974, p. 3.

وسوف نشير إلى هذا المرجع فيما بعد بـ Course .

De Saussure, F.; Cours de Linguistique générale, edited by Tullio de Mauro. Paris :

Payot 1973, p. 16.

وسوف نشير إلى هذا المرجع فيما بعد بـ Cours.

حين تستخدم للتعبير عن الأفكار أو لإيصالها. وفيما عدا ذلك فالضوضاء ما هي إلا ضوضاء. ولإيصال الأفكار يجب أن تكون هذه الضوضاء جزءاً من نسق من الأعراف، أى جزء من نسق من العلامات والعلامة sign ما هي إلا اتحاد بين شكل بالذات (يسميه بوسوسير دالاً signifiant) وفكرة محددة بالذات (يسميه بوسوسير مدلولاً signifié)، وإذا كنا نستطيع الحديث عن «الدال» و«المدلول» كما لو كانا كينونتيتين مستقلتين فإنهما لا يوجدان في الحقيقة إلا بوصفهما العنصرين المكونين للعلامة. فالعلامة هي الحقيقة المحورية في اللغة. وإذا أردنا أن نفصل بين الجوهرى وبين الثانوى أو العرضى فإن علينا أن نبدأ من طبيعة العلامة ذاتها.

١- الطبيعة العشوائية للعلامة:

يركز المبدأ الأول في نظرية اللغة عند بوسوسير على الصفة الأساسية للعلامة، العلامة اللغوية عشوائية، فأى توافق متفق عليه بين «دال» و«مدلول» بعينهما هو بذاته توافق عشوائى، وتلك هي إحدى الحقائق المحورية في اللغة، وفي المنهج اللغوى على حد سواء. وعلى حد تعبير بوسوسير: «ليس هناك من بمقدوره تفنيد مبدأ الطبيعة العشوائية للعلامة، وإن كان اكتشاف إحدى الحقائق أسهل بكثير من تعيين موضعها الشرعى الصحيح. وهكذا فعلى الرغم من هيمنة هذا المبدأ على التحليل اللغوى لأية لغة فإن المرء لا يستطيع حصر النتائج المترتبة عليه، وذلك بسبب عدم تكافؤ درجات وضوحها الفورى، وعلى أى حال ليس بمقدور المرء اكتشاف أهمية هذا المبدأ في التحليل اللغوى إلا بعد الكثير من الانعطافات» (٢).

ما الذى يعنيه بوسوسير بالتحديد بالطبيعة العشوائية للعلامة؟. والإجابة بسيطة للغاية: لا يوجد أى ارتباط حتمى أو طبيعى بين «الدال» و«المدلول». فلأنى أتحدث الانجليزية فإننى أستخدم دالاً تمثل فى dog لأتكم عن أحد الحيوانات أو عن أحد الأنواع الحية المحددة. وهذه المتتالية أو تلك السلسلة المتعاقبة من الأصوات بالذات ليست أكثر ملائمة لتحقيق هذا الغرض بالذات عن أية متتالية أو سلسلة متعاقبة أخرى من الأصوات؛ حيث يمكننى استخدام lot أو tet أو bloop أو أى متتالية أخرى للغرض ذاته، بشرط أن تصادف المتتالية المختارة القبول بين أعضاء المجتمع الكلامى المحلى الذى أنتمى إليه. فليس هناك سبب جوهرى أو فعلى يقول أن «دالاً» بالذات وليس

(٢) Course, p. 68, Cours, p. 100.

«دال» آخر يجب أن يرتبط بمفهوم 'dog' (٢).

لا بأس ولكن! ألا يوجد استثناءات لهذا المبدأ الأساسي؟

والإجابة بطبيعة الحال بالإيجاب، فهناك طريقتان يمكن لأي منهما أن تجعل من العلامات اللغوية علامات غير عشوائية. أولاً هناك حالات تسمية الأشياء والأفعال بحكايات أصواتها *onomatopoeia*، حيث يظهر صوت «الدال» متسماً بشكل ما بالتقليد أو المحاكاة، كما نجد في الإنجليزية *bow - wow* و *arf - arf* [وفي الفرنسية *ouâ - ouâ*، والألمانية *wau - wau* والإيطالية *bau - bau*] إلا أن هذه الحالات قليلة جداً. وفي الواقع فنحن نعدها فئة منعزلة من العلامات، ونؤكد بشدة على أن العلامات المعتادة تتصف بالعشوائية.

على أي حال فالعلامات تتحرك داخل اللغات أو يتم شحنها بطرق مختلفة، على سبيل المثال تسمى الماكينة أو الآلة التي أكتب عليها *typewriter*، وبطبيعة الحال لم يكن هناك سبباً جوهرياً لعدم تسميتها *grue* أو *blimmel*. ولقد اصطبغت *typewriter* في الإنجليزية بصيغة خاصة نتيجة ارتباط معنى المتتاليتين الصوتيتين اللتين تؤلفان دالها وهما *type* و *writer* بمفهوم الآلة الكاتبة '*typewriter*' وهو ما يعرف باسم الشحن أو التحريك الإضافي. ولكن يجب أن نلاحظ أن العلاقة القائمة بين متتالية الصوت هذه والمفهوم الناتج عنها لا توجد سوى في اللغة الإنجليزية فقط، لأنه لو حدث واستخدم أحد الفرنسيين الشكل ذاته للحديث عن تلك الآلة فإن عليه أن يستخدم علامة عشوائية كلية. ذلك لأن المكون الأصلي *writer* ليس بعلامة في اللغة الفرنسية. علاوة على ذلك - وكما ذهب دوسوسير كما سنرى بعد - فإن عملية ضم *type* و *writer* لخلق علامة جديدة تماثل تماماً الطريقة التي يتم ضم الكلمات بها أو تجميعها لتشكيل عبارات (معناها قد ارتبط بالمعاني المتجمعة في الكلمات المفردة). ولذلك بإمكاننا القول إن لكل اللغات علاماتها العشوائية الخاصة بوصفها عناصر أساسية لها، وأن لديها عملياتها المختلفة لضم هذه العلامات أو التجميع بينها، ولكن ذلك لن يبدل من الطبيعة الجوهرية أو الفعلية للغة ومكوناتها الأولية على الإطلاق.

العلامة عشوائية، أي لا توجد أية رابطة تكوينية أو جوهريّة بين الدال والمدلول.

(٢) لاحظ أنني أستخدم هنا الحروف الإيطالية المائلة للإشارة إلى الأشكال اللغوية (مثل *dog* و *lot*) واستخدم علامات الاقتباس للإشارة إلى المعاني (مثل *dog*) وسوف أستخدم في ذلك في كل كتاب.

تلك هي الكيفية التي تم بها تأويل مبدأ نوسوسير دائماً. ولكن تأويل هذا المبدأ بهذا المنوال لا يعبر إلا عن أحد التصورات التقليدية للغة أو عن إحدى الحقائق الواضحة إلى حد ما حولها، حيث لا يمكن أن يترتب على هذا التأويل بهذه الطريقة المحدودة تلك النتائج الخطيرة التي طالب نوسوسير بها كثيراً حسب ما تذهب إليه ملاحظات الطلاب: «الوضع الهرمي لتلك الحقيقة في ذروته، وسوف يدرك المرء تدريجياً إلى أي حد لم تكن كثير من الحقائق المختلفة مجرد تفرعات أو تشعبات لتلك الحقيقة فحسب، وإنما كانت نتائج مستترة لها»^(٤). ولذلك يوجد في مبدأ الطبيعة العشوائية للعلامة ما هو أكثر من العلاقة العشوائية بين الدال والمدلول. وهذا هو ما يجب علينا أن نلفت النظر إليه.

استناداً إلى ما ذكرته حتى الآن فيما يتعلق بالدال والمدلول قد يجنح المرء إلى الظن أن اللغة مجرد عملية تسمية *nomenclature*: سلسلة من الأسماء اختيرت عشوائياً ونسبت إلى مجموعة من الموضوعات أو من المفاهيم. لأن من السهل جداً التفكير في اللغة - كما يقول نوسوسير - كما لو كانت مجموعة من الأسماء، ثم نرؤ قصة آدم المقدسة لتسمية البهائم أو الحيوانات على حساب الطبيعة الأولية للغة. فلو زعم المرء أن مفهوم كلب 'dog' قد ترجم في الانجليزية بـ dog أو تم التعبير عنه في الانجليزية بهذا الاسم، وفي الفرنسية بـ chien، وفي الألمانية بـ Hund فسوف يفهم هذا المرء بدهاءة أن لكل لغة من تلك اللغات اسم عشوائي لهذا المفهوم، وأن وجود المفهوم أسبق على وجود أية لغة منها ومستقلاً تماماً عنها.

لو كانت اللغة - ببساطة - مجرد تسمية لمجموعة من المفاهيم الكونية، فلربما كان من السهل على المرء الترجمة من لغة إلى لغة أخرى. وأن يستبدل مباشرة الاسم الفرنسي الذي يشير للمفهوم بالاسم الانجليزي الذي يشير إليه. ولو كانت اللغة كذلك فلربما كانت مهمة تعلم إحدى اللغات الجديدة أيضاً أسهل بكثير مما هي عليه بالفعل. ومع ذلك فإن أي شخص سبق له وأن حاول الترجمة من لغة لأخرى أو حاول تعلم لغة جديدة يعرف بالأدلة المباشرة أن اللغات ليست مجرد تسميات، وأن مفاهيم لغة بعينها ومدلولاتها تختلف جذرياً عن مثيلاتها في أية لغة أخرى. فالكلمة الفرنسية 'aimer' لا

(٤) De Saussure, F.; Cours de Linguistique générale, critical edition by Rudolf Engler Wiesbaden : O. Harrassowitz. 1967 - 74. Two Volumes, four fascicules
وسوف نشير إلى هذا المرجع فيما بعد بـ Engler.

تُدرج حرفياً في الإنجليزية، وعلى المرء الاختيار بين 'to like' و 'to love' وتتضمن الكلمة الفرنسية 'démarrer' إحدى الأفكار التي تعبر الإنجليزية عنها بـ 'moving off' و 'accelerating' وتغطي الكلمة الإنجليزية 'to know' الدائرة الدلالية التي تتضمنها الكلمتان الفرنسيتان 'savoir' و 'connaître'. وليس لتصورات الإنجليزية للرجل الشرير 'wicked' أو المدلل 'pet' أى نظائر في الفرنسية. بل هناك ما هو أكثر من ذلك، فما تطلق الإنجليزية عليه أزرق فاتح 'light blue' وأزرق غامق 'dark blue' وتعهما ظلين لأحد الألوان المستقلة يعدان في الروسية لونين أوليين متميزين. فكل لغة تصنف العالم الموضوعى الخارجى وتبنيه بشكل مختلف. واللغات لا تسمى الفئات الموجودة فحسب، وإنما تبنيها حسب هواها وبكامل حرياتهما.

علاوة على ذلك لو كانت اللغة مجرد قائمة من الأسماء المخصصة للمفاهيم المستقلة الوجود لكان من المحتم إذن أن تبقى تلك المفاهيم - أثناء التطور التاريخي للغة - ثابتة تماماً، ولكن الدوال - على الخلاف من ذلك - تتطور، بمعنى أنه يمكن لأية متتالية محددة من الأصوات المرتبطة بمفهوم محدد أن تتحول عنه وأن تنسب في الوقت نفسه لمفهوم آخر. فبين الحين والآخر قد يفرض على إحدى العلامات الجديدة أن تستخدم للإشارة إلى مفهوم جديد نشأ عن تغيرات حدثت في العالم الخارجى. ومع ذلك فالمفاهيم ذاتها - بوصفها كينونات مستقلة عن اللغة - لا تكون أبداً موضوعاً للتطور اللغوى.

ومع ذلك فتاريخ اللغات مملوء بسوابق لمفاهيم تبدلت حدودها وتغيرت. فقد كانت الكلمة الإنجليزية cattle - على سبيل المثال - تعنى فى إحدى المراحل التاريخية معنى «الملكية» بشكل عام. ثم اقتضت بالتدريج على إفادة ملكية نوات الأربع بالتحديد (مقولة جديدة)، ثم اتخذت أخيراً معناها الحديث المتصل بالماشية العائلية. أو من ناحية ثانية كان مفهوم a 'silly' person يشير ذات يوم إلى الشخص السعيد الذى تكسوه البركة والجدير بالاحترام لورعه، ثم تغير هذا المفهوم تدريجياً، وتغير مفهوم 'silliness' القديم ذاته وأصبح مفهوم الـ silly person مع بداية القرن السادس عشر يشير للشخص الساذج العاجز الجدير بالشفقة. وقد استمر هذا التغير حتى أصبح مفهوم الـ silly person يعنى الشخص الأحمق وربما الشخص الغبى أيضاً.

لو كانت اللغة مجرد عملية تسمية لكان من المحتم علينا أن نقرر أن هناك عدداً من المفاهيم المتميزة. وأن الدال silly قد ألصق فى البداية على إحداها، ثم ألصق بعد ذلك على مفهوم آخر منها. ولكن ذلك لم يحدث. فما حدث هو أن المفهوم الذى إلتصق

بالدال silly كان يُبدل من حدوده باستمرار، وكان يغير من هيئته الدلالية بالتدريج مبيناً مشاهد العالم بطرق اختلفت من عصر للعصر الذى يليه. وبالمناسبة فقد تطور الدال أيضاً وخضع لتعديل فى صائته الأوسط.

والسؤال الآن: ما مغزى هذا الكلام؟ وماذا يضيف إلى الطبيعة العشوائية للعلامة؟. ومغزى هذا الكلام أن اللغة ليست تسمية؛ لأن مدلولاتها ليست مفاهيم سابقة الوجود وإنما هى مفاهيم متغيرة وطارئة، بل وتتباين تبعاً للوضع التاريخى للغة. ولأن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة عشوائية – بمعنى أنه ليس هناك سبب ضرورى لنسب مفهوماً بالذات وليس مفهوم آخر لدال بالذات – فلا يوجد خاصية أو صفة محددة بالذات يجب أن يتصف المفهوم بها كي يُعد مدلولاً لهذا الدال. فالمدلول الذى ارتبط بإحدى النوال يمكن أن يتخذ أى شكل كيفما اتفق، وليس هناك جوهر فعلى فى المعنى يوجب الاحتفاظ به كي يعد بذاته المدلول الشائع لهذا الدال. فحقيقة كون العلاقة بين الدال والمدلول علاقة عشوائية تعنى عدم وجود مفاهيم كونية ثابتة، أو نوال كونية ثابتة. وتعنى أيضاً أن المدلول ذاته عشوائى وأن الدال كذلك، ومن ثم يجب أن نتساعل مع بوسوسير ما الذى يحدد أى دال أو أى مدلول؟ وسوف نقودنا الإجابة على هذا السؤال إلى أحد المبادئ المهمة إلى أقصى الحدود: «الدال» وكذلك «المدلول» كلاهما كينونتان عقلانيتان مجردتان، فلكونهما كينونتين عشوائيتين فهما كينونتان عقلانيتان. وهو مبدأ يحتاج منا التفسير.

٢ - جوهر الوحدات اللغوية:

يضع بوسوسير أهمية عظمى – أعظم بكثير مما يظهر فى النص المحرر من المحاضرات – على عدم كون اللغة «تسمية»؛ لأنه إن لم نع ذلك جيداً فلن نستطيع فهم التفريعات الكاملة لمبدأ الطبيعة العشوائية للعلامة. فاللغة لا تنسب مجموعة من الأسماء العشوائية إلى قائمة من المفاهيم المستقلة الوجود، وإنما توجد علاقة عشوائية بين نوال تتمتع بحرية الاختيار من ناحية، ومدلات تتمتع بحرية الاختيار كذلك من ناحية أخرى. فكل لغة لا تقدم قائمة مختلفة من النوال فقط (أى تستخدم متصل الصوت وتوزعه بأسلوب فريد متميز فقط) أو تقدم قائمة نوعية فريدة من المدلولات فقط، وإنما لديها

أيضاً أسلوبها المتميز - وكذلك العشوائى - لتبويب العالم وتأسيسه فى مفاهيم أو فى مقولات .

من الواضح أن متتاليات صوتية مثل *fleuve* و *rivière* تعد من نوال الفرنسية وليس من نوال الإنجليزية. فى حين أن متتاليات صوتية مثل *river* و *stream* تندرج ضمن نوال الإنجليزية وليس ضمن نوال الفرنسية. إلا أن الأمر غير الواضح - على الرغم من مغزاه العميق - هو اختلاف تنظيم المستويين التصوريين فى هاتين اللغتين. ففى الإنجليزية يختلف مدلول '*river*' عن '*stream*' لتعبيره عن الحجم الأكبر. فى حين أنه فى الفرنسية لا يختلف مدلول '*fleuve*' عن '*rivière*' لتعبيره عن الحجم الأكبر بالضرورة، وإنما لتعبيره عن الصب فى البحر. بإختصار لا يعد مدلولاً '*fleuve*' و '*rivière*' من بين مدلولات الإنجليزية أو من بين مفاهيمها ؛ لأنهما يمثلان لفظين يختلف مستواههما التصورى عن المستوى التصورى فى هذه اللغة.

تشير حقيقة قيام هاتين اللغتين بمهمتيهما بشكل دقيق وفقاً لاتساقين أو تمييزين تصوريين مختلفين؛ إلى أن تلك التقسيمات التصورية ليست طبيعية أو حتمية أو ضرورية، وإنما هى تقسيمات - وبمعنى له أهميته - عشوائية. فمن المهم - كما هو واضح - أن يكون للغة أساليب للتعبير عن الكتل المتدفقة من الماء، إلا أن بمقدور اللغة ممارسة تمييزاتها التصورية فى هذا المجال بما تراه من أساليبها المتنوعة (الحجم، هدوء حركة التدفق، الاستقامة، التعرج، اتجاه تدفق الماء، العمق، الصلاحية للملاحة... إلى آخره). فليس بمقدور اللغة الاختيار العشوائى لنوالها فقط، وإنما بمقدورها تقسيم طيف الإمكانيات التصورية بأى أسلوب تفضله أيضاً.

علاوة على ذلك، ونحن الآن بصدد إحدى القضايا المهمة، فإن كون هذه المفاهيم تقسيمات عشوائية بالفعل لم يتصل لا يعنى كونها كينونات مستقلة، بحيث تتحدد كل كينونة منها بجوهرها. وإنما يعنى أن تلك المفاهيم أعضاء فى أحداً الأنساق، وأن كل عضو منها لا يتحدد سوى بالعلاقات القائمة بينه وبين بقية أعضاء هذا النسق. فإذا رغبت فى تفسير معنى كلمة *stream* (وتعنى جدول) لأحد الإنجليز يجب على الإشارة إلى الاختلاف القائم بين الجدول والنهر والشلال... إلخ. وبالطريقة نفسها لا يمكننى تفسير معنى '*rivière*' لأحد الفرنسيين دون وصف الاختلاف القائم بين '*rivière*' و '*fleuve*' من جانب وبين '*rivière*' و '*ruisseau*' من جانب آخر.

من ناحية أخرى تعد مصطلحات الألوان بالتحديد المثال النموذجي لتلك الصفة المميزة للعلامة. لنفترض أننا نرغب في تعليم الألوان في الإنجليزية لأحد الطلاب الأجانب. ولنفترض أيضاً أنه طالب بطيء الاستيعاب نظراً لانتمائه لثقافة غير أوروبية. فلإنجاز هذه المهمة بنجاح علينا أن نقوم برسم استراتيجية تدريسية فعالة. وقد يبدو لنا أن أفضل السبل لتعليم هذا الطالب الأجنبي الألوان في الإنجليزية هو أن نتناول في كل درس أحد الألوان. فنبدأ - على سبيل المثال - باللون البني brown ولا ننتقل إلى أحد الألوان الأخرى إلا بعد أن نتأكد أنه أتقن معرفة اللون البني. وهكذا نشرع في عرض الموضوعات البنية اللون عليه، ونخبره أنها بنية اللون. وحرصاً منا على نجاح هذا الإجراء بوصفه أداة للتعليم جمعنا عدداً من الموضوعات البنية اللون (وليكن مائة من مختلف أنواع الموضوعات). وبعد أن شعر الطالب الأجنبي بالملل وشعرنا نحن كذلك ننتقل معه إلى حجرة أخرى لنقوم باختبار مدى معرفته للون البني 'brown'، فنطلب منه تحديد كل الموضوعات البنية اللون في تلك الحجرة. ويشرع الطالب الأجنبي في الاستجابة إلا أنه يتوقف لصعوبة الاختيار. وبعد أن ينفذ صبرنا معه نقرر أننا لم نكن بالنسبة لهذا الطالب وسيلة التعليم الفعالة حتى الآن. ونبدأ في اليوم التالي من جديد بعد أن نكون قد أحضرنا خمسمائة موضوع بني اللون.

من حسن الحظ أن معظمنا لا يتبنى مثل هذا الحل العقيم. ويعترف بعدم صحة هذا الإجراء..، لأنه على الرغم من ضخامة عدد الموضوعات البنية اللون التي تم عرضها على الطالب الأجنبي إلا أنه لم يعرف معنى اللون البني brown، ولن يكون بمقدوره اجتياز اختباراتنا إلا إذا قمنا بتعليمه التمييز بين البني والأحمر، والبني والأسود المصفر، والبني والرمادي، والبني والأصفر، والبني والأسود؛ لأن هذا الطالب الأجنبي لن يبدأ في فهم اللون البني إلا حين يفهم العلاقة القائمة بين هذا اللون وبقية الألوان الأخرى. والسبب في ذلك أن اللون البني ليس بذاته مفهوماً مستقلاً قد تحدد وفقاً لبعض الخصائص الجوهرية، وإنما هو مصطلح لوني واحد داخل نسق مصطلحات الألوان. مصطلح تحددت هويته بالعلاقات القائمة بينه وبين بقية المصطلحات الأخرى التي تحده داخل هذا النسق.

في الواقع تنقلنا هذه الخبرة التدريسية إلى فهم أن العلامة عشوائية، وأنها ليست سوى نتيجة لتقسيم «متصل» بالأساليب الخاصة باللغة التي تنتمي إليها. وأتينا

لا نستطيع معالجة العلامة على أنها كينونة مستقلة بذاتها، وإنما يجب أن ننظر إليها بوصفها جزءاً من نسق. وهذا لا يعنى أنه لى نعرف معنى البنى brown يجب على المرء فهم الأحمر red الأسود المصفر tan والرصاصى grey والأسود black... إلخ. وإنما بالأحرى يعنى أن مدلولات مصطلحات الألوان ليست سوى نتاج لنسق من التمييزات أو نتيجة له؛ حيث تقدم اللغة - نتيجة تقسيم طيف الألوان، وتمييزها بين المقولات التى تسميها ألواناً - نسقاً مختلفاً من المدلولات: أى تقدم وحدات تعتمد قيمتها على العلاقات القائمة فيما بينها. وكما يقرر بوسوسير معماً هذه المسألة: «علاوة على ذلك فنحن نكتشف فى كل الحالات عدم وجود أية أفكار ideas مقدماً، وأنه لا توجد سوى القيم values التى انبثقت عن النسق. وحين نقرر أن تلك القيم تنطبق على المفاهيم، يجب أن يكون مفهوماً أن تلك المفاهيم مفاهيم إختلافية محض، أى أنها لم تتحدد إيجابياً بمحتواها أو جوهرها الذاتى، وإنما تحددت سلباً بعلاقاتها القائمة بينها وبين الحدود الأخرى التى تحدها داخل النسق. وأن أكثر صفاتها المميزة دقة أنها (هى) مالا (هو) المفاهيم الأخرى»^(٥). فاللون البنى هو مالىس بأحمر أو بأسود أو برصاصى أو بأصفر... إلخ. وينطبق المبدأ نفسه على كل مدلول من مدلولات الألوان الأخرى.

على الرغم من تناقض هذه النتيجة فإنها تعد بذاتها إحدى النتائج الرئيسية التى ترتبت على الطبيعة العشوائية للعلامة. وسوف نعود إليها بعد قليل. ومع ذلك ربما كان أسهل الطرق لفهم التصور الخاص بالطبيعة العلاقية المحضة للوحدات اللغوية هو أن نتناولها من زاوية أخرى. لندرس مشكلة التطابق فى علم اللغة: فنتساءل متى يعد التعبيران (أو جزءاً أى تعبير) مجرد أمثلة لإحدى الوحدات اللغوية المستقلة؟ ولنفترض أن أحد الأشخاص قد قال لى: 'I bought a bed today'، وقد أجبت على قوله بـ 'what sort of bed?' ما المقصود حين نقرر أن إحدى العلامات اللغوية قد استخدمت مرتين فى هذه المحادثة القصيرة؟ وما الأساس الذى قررنا بناء عليه أن هناك مثالين أو إفاديتين للوحدة اللغوية ذاتها قد ظهرتنا فى هذا الحوار؟ (ولنلاحظ أننا قد سلمنا جدلاً بالفعل بالتمثيل الصوتى لجزء من هذه الضوضاء، لأن كل فرد منا اعتبره bed). فى الوقع فالضوضاء الفعلية التى تم إنتاجها لتمثيل الجزء 'bed' مختلفة قياسياً - أى

(٥) Course, p. 117; Cours, p. 162.

تختلف من وجهة النظر الفيزيائية السمعية – فالأصوات تتباين في العادة، ونحن نستطيع التعرف على صوت أحد الأصدقاء عبر التليفون بعد سماعنا لبعض كلماته؛ لأن الأدلة الفيزيائية الفعلية التي يصدرها هذا الصديق تختلف عن الأدلة التي يصدرها أصدقاؤنا الآخرون.

في حديثنا القصير السابق اختلفت الضوضاء الفعلية التي أصدرها محدثي عن الضوضاء التي أصدرتها، إلا أن ما نود تأكيده هو أن كلاً منا قد أنتج الدال نفسه، وأن كلاً منا قد استخدم العلامة نفسها. ومع ذلك فإن «الدال» لا يماثل الضوضاء التي أصدرها محدثي أو التي أصدرتها، لأنه يمثل إحدى الوحدات المجردة التي لا يمكن أن تتداخل مع أية متتالية من متتاليات الأصوات الفعلية. ولكن مما تتكون هذه الوحدة؟. يمكننا أن نتناول هذا السؤال بأن نتساءل إلى أي حد يمكن أن تتباين متتاليتان فعليتان من الضوضاء وتبقىان في الوقت ذاته بمثابة متغيرين يعبران عن «الدال» ذاته؟. وهو تساؤل مماثل على أي حال للتساؤل الذي سبق لنا وأن طرحناه بشكل ضمنى حول «المدلول»؛ إلى أي حد يمكن أن تتباين المتغيرات الفعلية للون البنّي مع بقائه لوناً بنياً؟. والإجابة التي يمكن تقديمها على سؤال «الدال» هي الإجابة ذاتها التي قدّمت من قبل على سؤال «المدلول»: يمكن أن تتباين الضوضاء الصادرة الخاصة بأى «دال»، وتبقى هي ذاتها (لعدم وجود صفة جوهرية فيها) الضوضاء التي تعبر عن «الدال» ذاته، طالما أنها لم تتداخل بعد مع الضوضاء الصادرة الخاصة بالدوال المقابلة له. فهناك سلسلة من الاختيارات الحرة للطريقة التي يمكن أن ينطق بها الدال *bed* طالما أن طريقة النطق المختارة لهذا الدال لا تتداخل مع طريقة النطق الخاصة بالدوال: *bad, bud, bid, dode, bread, bled, bold, fed, head, led, red, said, bad, bud, bid, dode, bread, bled, bold, fed, head, led, red, said, wed, beck, bell, bet.* بتعبير آخر، إن التمييزات أو الاختلافات هي الجانب المهم هنا، ولهذا السبب يكون للوحدات اللغوية هوية علاقية محضة. وهو مبدأ ليس من السهل إدراكه؛ إلا أن بوسوسير يقدم لنا القياس التمثيلي الملموس التالي: نحن مستعدون لتقائنا للتسليم بأن قطار الثامنة وخمس وعشرين دقيقة (جنيف/ لندن) هو القطار اليومي نفسه، حتى إن تغيرت المركبات أو القاطرات أو تغير موظفو مصلحة السكك الحديدية بين يوم وآخر. فما يعطى قطار جنيف/ لندن هويته هو موقعه في نسق القطارات الذي أشارت إليه قائمة المواعيد. لاحظ أن الهوية العلاقية للقطار هي بالفعل العامل الحاسم في تحديده؛ حيث يظل هذا القطار هو القطار نفسه حتى وإن

غادر المحطة متأخراً عن مواعده نصف ساعة، وهو كثيراً ما يغادر المحطة متأخراً بالفعل عن موعد قيامه المعروف بون أن يتسبب ذلك في عدم اعتباره أنه هو ذاته قطار الثامنة وخمس وعشرين دقيقة (جنيف/ لندن). والأمر المهم هو تميز هذا القطار عن قطار العاشرة وخمس وعشرين دقيقة (جنيف/ باريس)، وعن قطار الحادية عشر وأربعين دقيقة (جنيف/...) الذي يتوقف في جمع المحطات)... وهكذا.

والقياس التمثيلي الآخر الذي يستخدمه بوسوسير لإيضاح تصوره للهوية العلاقة المحضة للوحدات اللغوية هو المقارنة بين اللغة والشطرنج: فالوحدات الأساسية للشطرنج هي - وكما هو معروف - الملك والملكة والطاوية والحصان والفيل والعسكري. ولا أهمية للأشكال المادية الفعلية التي تتخذها تلك القطع أو المواد التي تُصنع منها. فقد يأخذ الملك أي شكل، وقد يكون في أي حجم طالما أن هناك طرق للتمييز بينه وبين بقية قطع الشطرنج. وكذلك فليست الطاويتين في حاجة للشكل المتماثل أو الحجم المتطابق طالما أنهما تتميزان عن بقية قطع الشطرنج. لذلك - كما يشير بوسوسير - لو فقدت إحدى قطع طقم الشطرنج فبإمكاننا أن نستبدلها بأي شيء آخر بشرط عدم تداخل هذا الشيء البديل مع الأشياء التي تمثل بقية قطع الشطرنج التي تتميز كل منها بإحدى القيم المختلفة^(٦). فليس للخواص الفيزيائية الفعلية لقطع الشطرنج أهمية طالما أن هناك اختلافات قائمة في القيم الخاصة بها. وهكذا بإمكان المرء أن يقرر عدم وجود هوية فيزيائية فعلية لوحدات الشطرنج: بمعنى إنه ليس هناك خواص فيزيائية للملك... إلخ. فالهوية برمتها هي إحدى وظائف الاختلافات داخل النسق. والآن لو طبقنا هذا القياس التمثيلي على اللغة فسوف يضعنا هذا التطبيق في موضع نستطيع منه فهم إدعاء بوسوسير المتناقض: «في نسق اللغة لا يوجد سوى الاختلافات فقط، اختلافات ليس لها أي حدود موجبة»^(٧).

قياسياً حين نفكر في الاختلافات فنحن نفترض مقدماً الشيئين المختلفين كل منهما عن الآخر، ولكن قضية بوسوسير فيما يتعلق بالدال والمدلول كليهما لم تكن بهذا المعنى، وإنما هي بالتحديد أنه مثلما لا نستطيع تقرير أي شيء يتعلق بشكل

(٦). 4 - 153, Cours; Course, p. 110.

(٧). 166, Cours; Course, p. 120.

«العسكري» باستثناء أنه سوف يكون مختلفاً عن «الفرس» و «الفيل»... إلخ. كذلك لا نستطيع تحديد «الدال» الذي نمثله بـ 'bed' بأية ضوضاء خاصة تم استخدامها في نطقه. هذا لا يكون لأن الضوضاء الفعلية تختلف من حالة لأخرى فقط، وإنما لأن اللغة الإنجليزية كان في الإمكان ترتيبها؛ بحيث تستخدم الضوضاء التي عبرت الآن عن الدال pet للتعبير في الأصل عن الدال bed. والعكس بالعكس. فلو كان قد حدث مثل هذه التغيرات لكان قد تم التعبير عن وحدات اللغة بشكل مختلف، ولظلت هذه الوحدات في الأساس بمثابة الوحدات ذاتها (فالاختلافات نفسها باقية على مستوى الدال ومستوى المدلول كذلك) ولظلت اللغة هي ذاتها بمثابة اللغة الإنجليزية. وفي الحقيقة يمكن أن تظل اللغة الإنجليزية اللغة نفسها حتى إن لم يتم التعبير قط عن وحدات الدال في هذه اللغة بالصوت، وإنما بالرموز البصرية فقط.

وبتقرير ذلك نكون قد قمنا بالتمييز بين وحدات النسق اللغوي من ناحية، وتجلياتها أو مظاهرها الفيزيائية الفعلية من ناحية أخرى. وقبل مناقشة هذا التمييز المهم بالتفصيل ربما كان من المفيد أن نستعرض، بشكل موجز، خط التفكير الاستنتاجي الذي انتهى بنا إليه. فقد بدأنا بملاحظة عدم وجود صلة طبيعية بين الدال والمدلول. وبعد ذلك شرعنا في تفسير الطبيعة العشوائية للعلامة اللغوية. وقد رأينا كيف أن الدال والمدلول كليهما تقسيمات أو تفرعات عشوائية لمتصل (طيف صوتي من ناحية، ومجال تصوري من الناحية الأخرى). وقد دفعنا ذلك إلى استنتاج ضرورة تحديد الدال والمدلول كليهما في حدود العلاقات القائمة بينهما والدوال والمدلولات الأخرى. وهكذا فقد انتهينا إلى نتيجة مؤداها: عند تحديد وحدات أية لغة علينا التمييز بين الوحدات العلاقية والتجريدية المحضة والمظاهر الفيزيائية لها. حيث لا تشكل الأصوات الفعلية التي نقوم بإنتاجها أثناء الحديث بذاتها وحدات النسق اللغوي، مثلما لم يعد اللون الفيزيائي الذي نحدده حين نطلق على أحد الكتب: 'brown' بذاته الوحدة اللغوية (المدلول أو المفهوم) 'brown' في هاتين الحالتين لم تكن الوحدة اللغوية تمثل جوهرًا ما، وإنما كانت شكلاً تحدد بالعلاقات التي أظهرتها هذه الوحدة بالمغايرة عن الوحدات الأخرى. وتلك هي القضية التي يؤكدنا بوسوسير على نحو صحيح ومطابق للحقيقة تماماً.

٣- ثنائية «اللغة» و «الكلام»:

والآن - وبالتمييز بين النسق اللغوي وتجلياته أو مظاهره الفعلية نكون قد وصلنا إلى التقابل الحاسم بين اللغة *la langue* والكلام *parole*، واللغة *la langue* هي النسق الخاص بإحدى اللغات، أى اللغة بوصفها نسقاً من الأشكال. فى حين أن الكلام *parole* هو الكلام الفعلى، أى أفعال الكلام التى سمحت اللغة الطبيعية بها. فاللغة *la langue* هو كل ما يتمثله الفرد حين يتعلم لغة بالذات، أى قائمة الأشكال أو «الذخيرة التى استقرت بفعل ممارسة الكلام بين المتحدثين المنتمين للمجتمع ذاته، إنها النسق النحوى الذى وجد فى عقل كل متحدث تلبيه لكل المقاصد والأغراض»^(٨). أو إنها «النتاج الاجتماعى الذى يسمح وجوده للفرد بممارسة قدراته اللغوية»^(٩). أما الكلام *parole* فهو الجانب التنفيذى من اللغة الذى يحتوى على - كما ذهب بوسوسير - التركيبات التى يستخدم المتحدث عن طريقها شفرة النسق اللغوى كى يعبر عن أفكاره الذاتية من ناحية، والآليات النفسية الفيزيائية التى تسمح له بتجسيد هذه التركيبات من ناحية أخرى^(١٠). ففى فعل الكلام *parole* يختار المتحدث عناصر النسق اللغوى ويؤلف بينها ويضيف عليها مظهراً صوتياً وسيكولوجياً محدداً يتمثل فى الأصوات والمعانى.

قد تظهر الملاحظات الخاصة بـ الكلام *parole* غامضة إلى حد ما؛ حيث إنها تنطوى على إحدى المشكلات التى سوف نعود إليها فى الفصل الثالث. لأنه لو سلمنا بتراكيب العناصر اللغوية بوصفها جزءاً من الكلام *parole*، عندئذ ستكون القواعد التركيبية *syntactic* فى وضع غامض، فعند اللغة *la langue* نسقاً من الأشكال والكلام *parole* تركيباً لتلك الأشكال وتجسيدها لها لا يماثل عدد اللغة استعداداً لغوياً طبيعياً، و عدد الكلام *parole* الممارسة الفعلية لهذا الاستعداد؛ لأن الاستعداد الطبيعى هو المعرفة الخاصة بكيفية تركيب العناصر وقواعد هذا التركيب. وهذا التمييز الأخير بين اللغة *la langue*؛ بوصفها نسقاً، والكلام *Parole* بوصفه تجسيدا لهذا النسق هو التمييز الأساسى عند بوسوسير وفى التراث البوسوسييرى على حد سواء. على أية حال ليس من الضرورى فى هذا المقام تحديد الخواص المحددة للكلام *parole* لأن الوظيفة

(٨) Course, pp. 13 - 4; Cours, p. 30.

(٩) Engler, p. 31.

(١٠) Course, p. 14; Cours, p. 31.

الأساسية للتمييز بين اللغة *la langue* والكلام *parole* - كما وضحها بوسوسير ببراعة - هي تحديد موضوع البحث اللغوي أو عزله: «يجب أن تكون اللغة *la langue* محور اهتمام عالم اللغة، فعند تحليل إحدى اللغات لا يحاول عالم اللغة وصف الأفعال الكلامية وحسب، وإنما يهتم بتحديد الوحدات، وقواعد التركيب التي تشكل النسق اللغوي؛ فاللغة *la langue* - أو النسق اللغوي - موضوع متماسك قائم بذاته وقابل للتحليل، إنها نسق من العلامات، والشئ الجوهرى الوحيد الذى يميزها هو تحديد المعانى والتصورات السمعية الصوتية»^(١١). وعند دراسة اللغة بوصفها نسقاً من العلامات يحاول المرء تحديد مظاهرها الجوهرية: أى تحديد العناصر الحاسمة للوظيفة الدلالية للغة، أو - بتعبير آخر - تحديد العناصر الوظيفية داخل النسق الذى تُخلق العلامات فيه عن طريق التمييز بينها.

وهكذا يقدم التمييز بين اللغة *la langue* والكلام *parole* أحد المبادئ الملائمة لعلم اللغة، وكما يكتب بوسوسير: «بفصل اللغة عن الكلام نحن نفصل بين ما يعد اجتماعياً وما يعد فردياً أو بين ما يعد جوهرياً وما يعد إضافياً أو عرضاً»^(١٢)؛ لأنه لو شرعنا ندرس كل شئ له صلة بظاهرة الكلام، فسوف نتورط فى عالم من الغموض، وسوف نجد أنه من الصعب علينا تحديد الصالح من الطالح فيه، فى حين لو ركزنا على اللغة *la langue* فسوف تتراصف عندئذ مختلف مظاهر اللغة والكلام فيها أو بالقرب منها، وبمجرد أن نأخذ فى الاعتبار مفهوم النسق اللغوي هذا سيصبح بالإمكان التحقيق فى الظواهر، ومعرفة ما إذا كانت لتلك الظواهر صلة وثيقة بالنسق ذاته (أى أنها تجسيد فعلى للوحدات اللغوية) أم أنها مجرد مظاهر طارئة للأداء الفعلى؟ وهكذا نتجح فى تصنيف الحقائق الكلامية فى مجموعات؛ حيث يمكن دراستها بإتقان.

على سبيل المثال، يفضى التمييز بين اللغة *la langue* والكلام *parole* إلى ابتكار علمين بارزين يدرسان الصوت ووظائفه اللغوية: علم الصوتيات *Phonetics*، وهو علم يدرس الصوت فى أفعال الكلام من وجهة نظر فيزيائية، وعلم الفونولوجى *Phonology*، وهو علم لا يهتم بالأحداث الصوتية الفيزيائية ذاتها قدر اهتمامه بالتمييزات أو الفوارق الخاصة بالوحدات المجردة للدال بوصفها تمييزات وظيفية داخل النسق اللغوي. (من

(١١) . Course, p. 15; Cours, p 32

(١٢) . Course, p. 14; Cours, p. 30

المهم أن نلاحظ هنا أنه على الرغم من إقرار بوسوسير القاطع بأن الأصوات الفيزيائية لا تعد بذاتها جزءاً من اللغة *la langue* ومن ثم فقد مهد السبيل للتمييز بين علم الصوتيات وعلم الفونولوجي كما وضحناها منذ قليل - إلا أنه يستخدم مصطلحي **Phonology** و **Phonetics** بمعنى يختلف عن تعريفنا تماماً لهما، وسوف أستمّر في استخدامها بالمعنى الحديث الشائع الذي أوضحناه هنا).

يعود بنا التمييز بين علم الصوتيات وعلم الفونولوجي إلى الوراء، أي يعود إلى القضايا الأساسية التي أثّرت حول الهوية اللغوية للشكل *bed*؛ حيث يمكن لعلم الصوتيات وصف الأصوات الفعلية الصادرة حين ينطق المرء هذا الشكل. هذا مع أن هوية الشكل *bed* بوصفها إحدى وحدات اللغة الإنجليزية لا تعتمد - كما شرحنا من قبل - على طبيعة الأصوات الفعلية الصادرة، وإنما تعتمد على التمييزات أو الفوارق التي تفصل *bed* عن *bet* و *bad* و *head*... إلخ. أما علم الفونولوجي فهو يدرس الفوارق الوظيفية القائمة بين هذا الشكل وهذه الأشكال، وما نحرص على التركيز عليه هنا هو مصطلح «وظيفي» هذا؛ حيث يوجد في منطوقات اللغة الإنجليزية فارق أو اختلاف قابل للإدراك والقياس بين «صوت - *L*» الذي يظهر قبل الصوائت *vowels* (كما في *lend* و *a live*) و «صوت - *L*» الذي يظهر قبل الصوامت *consonants* أو الذي يظهر في نهاية الكلمات (كما في *melt* و *peel*)، ومع أن هذا الفارق أو هذا الاختلاف يعد بذاته اختلافاً فوناتيكيًا *Phonetic* حقيقياً إلا أنه لا يمثل بذاته الاختلاف الذي يمكن أن يستخدم للتمييز بين أي علامتين في الإنجليزية. ومن ثم فهو لا يعد اختلافاً وظيفياً، حيث لا يشكل هذا الاختلاف بذاته جزءاً من النسق الفونولوجي لهذه اللغة، في حين استُخدم الاختلاف بين صائتي *feet* و *full* في الإنجليزية للتمييز بين العلامات (قارن بين *kill* و *keen*، وبين *kin* و *seat* و *sit*، وبين *heat* و *hit*... إلخ)، حيث يقوم هذا التقابل بين هذين الصائتين بأحد الأنوار المهمة في النسق الفونولوجي للإنجليزية، وبه تبتكر هذه اللغة عدداً هائلاً من العلامات المتمايزة.

ولهذا الفارق بين ما هو خاص بأفعال لغوية محددة بالذات، وما هو خاص بالنسق اللغوي ذاته أهميته على المستويات غير الصوتية، ولذلك فنحن نستطيع - على سبيل المثال - أن نميز بين الملفوظ *utterance* بوصفه يمثل إحدى وحدات الكلام *parole*، والجملة *sentence* بوصفها تمثل إحدى وحدات اللغة *la langue*، فقد يكون الملفوظان المختلفان بالفعل مجرد مظهرين لجملة واحدة، وهكذا نقحم من جديد التصور المركزي للهوية في علم اللغة، فقد تختلف الأصوات الفعلية للملفوظين المختلفين

ومعانيهما السياقية، ومع ذلك فما يجعل من هذين الملفوظين مجرد شاهدين خاصين بإحدى الوحدات اللغوية هو التمييزات التي تضيف على تلك الوحدة الهوية العلاقية الخاصة بها.

على سبيل المثال، لو قال *cuthbert* في أحد الأوقات: 'I am tired' فلا جدال في أن ضمير المتكلم *I* هذا لا يشير سوى إلى *cuthbert*، لذلك فإن فهم حقيقة هذا الإسناد أو هذه الإحالة يعد بذاته جزءاً مهماً من فهم معنى هذا الملفوظ. ومع ذلك لا تمثل هذه الإحالة جزءاً من معنى الجملة؛ لأن *George* قد يتلفظ بالجملة ذاتها، وسوف يشير ضمير المتكلم *I* حينئذ إليه هو. وهكذا لا يشير ضمير المتكلم *I* داخل النسق اللغوي إلى أى شخص محدد بالذات، وإنما يتحدد معنى هذا الضمير داخل النسق اللغوي في ضوء الفوارق القائمة بينه وبين الضمائر *they we it she he you*؛ حيث يمكن الحصول على معنى هذا الضمير بتقرير أنه يعنى «المتحدث» في مقابل أى شخص غيره.

والضمائر هي الأمثلة الواضحة للاختلافات القائمة بين المعانى التي تعد صفات للملفوظات المنطوقة وحدها، والمعانى التي تعد صفات لعناصر النسق اللغوي ذاته، ولتصوير هذا الفارق يستخدم بوسوسير مصطلحى الدلالة *signification* والقيمة *valeur*، فلوحدات اللغوية القيم الخاصة بها داخل النسق، وهي المعانى الناتجة عن التقابلات التي تحدد تلك الوحدات اللغوية داخل النسق، ولكن حين تستخدم تلك الوحدات في أحد الملفوظات فإنها تكتسب إحدى الدلالات، أو تكتسب أحد المظاهر السياقية للمعنى، على سبيل المثال لو قال أحد الفرنسيين: 'J'ai vu un mouton' وقال أحد الإنجليز 'I saw a sheep'، فمن المحتمل أن يكتسب هذان الملفوظان الدلالة ذاتها، حيث قدم الرجلان إحدى الإفادات، (بالتحديد شاهد كل متحدث منهما في أحد الأوقاف قطعاً من الأغنام). ومع ذلك فليس لكل من *mouton* و *sheep* (بوصفهما وحدتين تنتمين إلى نسقين لغويين مختلفين) المعنى ذاته أو القيمة ذاتها، لأن 'sheep' تحددت بالتقابل مع 'mutton' في حين لم تتقيد 'mouton' بمثل هذا التمييز، وإنما استخدمت للإفادة عن الحيوان واللحم معاً. على أية حال هناك مشكلات فلسفية محددة لم يتحدث بوسوسير عنها صراحة، وعلى وجه التخصيص قد يجنح الفلاسفة للقول أن ما يطلق عليه بوسوسير دلالة الملفوظ يستغرق المعنى والإحالة كليهما، ومع ذلك فقضية بوسوسير هي أنه لا يوجد سوى نوع واحد من المعنى هو المعنى العلاقى - أو القيمة - الذى يستند إلى النسق اللغوي، أما الدلالة فهي تتغلغل استخدام العناصر اللغوية في المواقف الفعلية للملفوظ.

لقد كان للتمييز بين اللغة *langue* والكلام *parole* نتائج مهمة للعلوم غير اللغوية الأخرى، لأنه يُعد في الأساس تمييزاً بين النظام والحدث، أو بين النسق الكامن الذي يسمح بأنماط مختلفة من السلوك، والأمثلة الفعلية المجسدة لهذا السلوك. وإذا كانت دراسة النسق تقود إلى بناء النماذج الممثلة للأشكال، وعلاقاتها فيما بينها وإمكاناتها بخصوص التركيب، فإن دراسة السلوك أو الأحداث يمكن أن تؤدي إلى بناء النماذج الإحصائية التي تمثل احتمالات تركيبات بعينها في الظروف المختلفة.

عند مناقشتنا لعلم العلامات في الفصل الرابع سوف نشاهد إلى أي حد امتد تصور اللغة *la langue* إلى الميادين المعرفية الأخرى. ومع ذلك تتطلب دراسة اللغة *la langue* داخل علم اللغة ذاته بياناً تفصيلياً للتمييزات التي تبتكر العلامات وقواعد التركيب، في حين تقودنا دراسة الكلام *parole* إلى معالجة استخدام اللغة، بما يشمل من التواترات النسبية التي استخدمت بها الأشكال الخاصة أو تركيبات هذه الأشكال في الكلام الفعلي. لقد قدم بوسوسير لعلم اللغة - بفصله اللغة *langue* عن الكلام *parole* - موضوعاً مناسباً للدراسة، ومنح دارس اللغة إحساساً أوضح بكثير لما يقوم به: لو ركز دارس اللغة على اللغة بوصفها نسقاً فقد عرف حينئذ ما كان يحاول إعادة تركيبه، وسوف يكون بمقدوره - من هذا المنظور - تحديد الأدلة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع وكيفية تنظيمها.

سوف ندرس بناء النسق اللغوي بمزيد من التفصيل في نهاية الفصل الحالي، إلا أن هناك نقطة مهمة حول مفهوم اللغة *la langue* يجب التأكيد عليها هنا، فقد نظم محرراً محاضرات بوسوسير الكتاب بحيث بدءاً بالتمييز بين اللغة *la langue* والكلام *parole*، وهكذا صور بوسوسير وكأته القائل بأن اللغة كتلة مشوشة من الحقائق المتغايرة العناصر، وأن الطريقة الوحيدة لفهمها هي التسليم بوجود شيء يطلق عليه النسق اللغوي مع إهمال أي شيء سواه. وهكذا فقد ظهر التمييز بين اللسان *la langue* والكلام *parole* على أنه تمييز عشوائي للكثيرين من الأشخاص، واعتبار ذلك المبدأ الأساسي أو الشرط الضروري الذي يجب أن يحظى بالقبول بثقة تامة إن رغب المرء في الاستمرار. ولكن التمييز بين اللغة *la langue* والكلام *parole* يُعد في الحقيقة - وكما تقترح ملاحظات بوسوسير ونتيجة لما شرحناه في مناقشتنا - النتيجة المنطقية والضرورية للطبيعة العشوائية للعلامة ولشكلة الهوية في علم اللغة، باختصار لو كانت العلامة عشوائية، فإنها تمثل عندئذ - كما شاهدنا - كينونة علاقية محضة، ولو أردنا تحديد العلامات وتعيين هويتها يجب الاهتمام بنسق العلاقات والتمييزات الذي

تبتكرها، لذلك يجب علينا أن نميز بين الكينونات المختلفة التى تظهر العلامات فيها، والأشكال الفعلية التى تؤلف العلامات، وعندما نقوم بذلك نكون قد عزلنا نسق الأشكال الذى يكمن وراء السلوك أو المظهر اللغوى الفعلى، أى اللغة *la langue*؛ حيث تقودنا محاولة دراسة العلامات بشكل راسخ إلى التسليم بذلك النسق بوصفه الموضوع الشائع للبحث اللغوى، ولم يكن عزل اللغة *la langue* كما تقترح المحاضرات المحررة - مجرد نقطة انطلاق عشوائية - وإنما كان يمثل فى الواقع أحد النتائج المترتبة على الطبيعة العشوائية للعلامات ذاتها.

٤ - المنظوران التزامنى والتعاقبى:

والنتيجة المهمة الأخرى التى ترتبت على الطبيعة العشوائية للعلامة ،والتي عدها نقاد بوسوسير بمثابة أحد الأعباء الزائدة أو المثيرة للجدل هى التمييز بين الدراسة التزامنية *synchronic* للغة (أى دراسة النسق اللغوى فى وضع مستقل عن الزمن) والدراسة التعاقبية *diachronic* للغة (أى دراسة تطورها التاريخى داخل الزمن)، فقد زعم النقاد أنه بالتمييز الصارم بين هذين المنظورين ، وبالتسليم بأسبقية الدراسة التزامنية للغة تجاهل بوسوسير (أو تجنب على الأقل) حقيقة كون أية لغة لغة تاريخية واصطلاحية فى الوقت نفسه، وأوحقيقة كون اللغة كينونة تاريخية فى تطور مستمر. ومع ذلك وعلى النقيض من هذا الزعم كان تمييز بوسوسير بين هذين المنظورين تمييزاً دقيقاً، لأن بوسوسير أقر - بقدر أكثر عمقاً من نقاده - التاريخية *historicity* الجذرية للغة، حين أصر على أهمية التمييز بين حقائق فى متناول النسق اللغوى، وحقائق فى متناول التطور اللغوى، حتى فى الأوضاع أو الحالات التى يتشابك فيها هذان النوعان من الحقائق، وعلى أى حال توجد مفارقة صريحة هنا تستحق التوضيح.

ما العلاقة المنطقية بين الطبيعة العشوائية للعلامة والطبيعة التاريخية العميقة للغة؟ وبإمكاننا التعبير عن العلاقة المنطقية بهذه الطريقة: لو كان هناك صلة جوهرية أو طبيعية بين الدال والمدلول، عندئذ يمكن للعلامة أن تكتسب جوهرأ أساسياً لا يتأثر بالزمن، أو على الأقل بإمكانه أن يقاوم التغير، وبإمكان هذا الجوهر الأساسى غير المتغير أن يناقض تلك المظاهر العرضية التى تتبدل من عصر لآخر. ومع ذلك لا يوجد فى الحقيقة مظهر يمكن أن يُعد بذاته بمثابة صفة جوهرية للعلامة، ومن ثم يدفعها للاستقرار خارج الزمن، فبإمكان أى مظهر للصوت أو للمعنى كذلك أن يتبدل، وتاريخ اللغات مملوء بالتغيرات التطورية الجذرية لكل من الأصوات والمعانى، فقد تتغير معانى

الكلمات وتحتفظ بعناصرها الفونولوجية الأصلية، وقد تحتفظ الكلمات بالمعنى فيها ولا تحتفظ بأي عنصر من عناصرها الفونولوجية الأصلية، باختصار لا يوجد في الدال أو في المدلول جوهر أساسي لا يمسه الزمن، ولأن العلامة عشوائية فهي تُعد إجمالاً موضوعاً للتاريخ، وأي تركيب أو أي توليف بين دال بعينه ومدلول محدد بالذات لا يمثل بذاته سوى النتيجة الطارئة للعملية التاريخية.

بالفعل، فحقيقة كون العلامة عشوائية أو كونها طارئة كلية قد جعلت منها موضوعاً للتاريخ، ولكن تلك الحقيقة تعني في الوقت نفسه أن العلامة تحتاج تحليلاً لا تاريخياً *ahistorical*. وليس في هذا تناقض كما قد يبدو من الوهلة الأولى، فلعدم وجود جوهر ضروري يمكن أن يقوم في العلامة، كان من الواجب تحديدها بوصفها كينونة علاقية، أي في ضوء علاقاتها بالعلامات الأخرى. وبطبيعة الحال فالعلاقات المناسبة للعلامة هي تلك العلاقات التي تحرزها في زمن مستقل، وكما يقول بوسوسير: «اللغة نسق من القيم المحضة الذي لم يحدده شيء أو لم يفرضه شيء سوى الترتيب الآني لحدوده»^(١٢). ولأن اللغة كينونة تاريخية كلية، وعرضة للتغير الدائم، يجب على المرء التركيز على العلاقات التي توجد في حالة تزامنية مستقلة إذا أراد بالفعل تحديد عناصرها.

وبتوكيد أسبقية الوصف التزامني يلفت بوسوسير النظر إلى عدم ملائمة الحقائق التاريخية أو التعااقبية في تحليل اللغة *la langue*، وسوف توضح الأمثلة بسبب عدم ملائمة المعلومات التاريخية لتحليل اللغة *la langue*، فعلى سبيل المثال يستخدم ضمير المخاطب «أنت» *you* في الإنجليزية الحديثة للإشارة إلى شخص واحد وإلى عدة أشخاص في الوقت نفسه، وبإمكانه أن يقع مبتدأ أو مفعولاً به في أية جملة، وبالرغم من ذلك ففي إحدى المراحل المبكرة كانت اللغة تحدد الضمير *you* بالتقابل مع الضمير *ye* (حيث يستخدم ضمير *ye* في موقع المبتدأ، ويستخدم ضمير *you* في موقع المفعول به) من ناحية، وبالتقابل مع الضميرين *thou* و *thee* (حيث يستخدم هذان الضميران بوصفهما شكلين لصيغة المفرد، ويستخدم الضمير *you* بوصفه شكلاً لصيغة الجمع) من ناحية أخرى، ثم استخدم ضمير *you* في إحدى المراحل المتأخرة من اللغة في مخاطبة شخص واحد بوصفه أسلوباً للاحترام (مثل الضمير الفرنسي الحديث *vous* تماماً) والآن لم يعد الضمير *you* يتحدد في الإنجليزية الحديثة بالتقابل مع الضمير *ye*

(١٢) Course, p. 80; Cours, p. 116.

أو الضميرين *thee* و *thou*، وبإمكان المرء أن يعرف اللغة الإنجليزية الحديثة ويتحدثها بطلاقة تامة لكون أن يعرف أن الضمير *you* كان يمثل ذات يوم صيغة للمفعول به أو صيغة للجمع، حتى وإن عرف المرء هذا الأمر بالفعل فلا سبيل أمامه لاستخدام هذه المعرفة بوصفها جزءاً من معرفته للغة الإنجليزية، بل إن وصف الضمير *you* في الإنجليزية الحديثة لا يتغير حتى وإن اختلف التطور التاريخي لهذا الضمير برمته، فلقد تحدد الضمير *you* في الإنجليزية الحديثة في ضوء الدور الذي يقوم به في الحالة التزامنية من اللغة.

وبالمثل، فقد اشتق الاسم الفرنسي *pas* (ويعنى بالإنجليزية 'step') وحالة النفي *pas* (وتعنى بالإنجليزية 'not') تاريخياً من علامة واحدة، ومع ذلك فهذه المعلومة غير ذات صلة بوصف اللغة الفرنسية الحديثة، حيث تستخدم هاتان الكلمتان بطريقتين مختلفتين توجب معاملتهما بوصفهما علامتين متميزتين تماماً. فمن منظور الفرنسية الحديثة ليس هناك فرق بين ما إذا كانت هاتان العلامتان ذات يوم علامة واحدة أو لم تكن. أو ما إذا كانتا علامتين متميزتين ثم أصبحتا بفعل التغيرات الصوتية التي طرأت على داليهما علامة واحدة أو لم تكن، ولذلك فإن أية محاولة لإدماج مثل هذه الحقائق التاريخية في أية معالجة لأي من الأنساق اللغوية المعاصرة يعد تشويهاً وتزييفاً له.

تأكيد لوسوسير على الاختلاف بين المنظرين التزامني والتعاقبي، وعلى أسبقية الوصف التزامني لا يعنى بأي حال أنه كان يضل نفسه بالتفكير في اللغة بوصفها سلسلة متتابعة من الحالات التزامنية المتجانسة : إنجليزية عام ١٩٢٠، إنجليزية عام ١٩٤٠، إنجليزية عام ١٩٦٠ وهكذا، ومع ذلك لم يكن تصوره للحالة التزامنية للغة سوى خيال *fiction* منهجي؛ لأنه حين نتحدث عن النسق اللغوي للغة الفرنسية في فترة بعينها، فنحن نقوم في الحقيقة بتجريد هذا النسق من الواقع الذي يتكون من عدد ضخم من المتحدثين الوطنيين الذين قد تتباين أنساقهم اللغوية لأسباب كثيرة، وبالرغم من ذلك فالنسق اللغوي للغة الفرنسية واقع محدد، فيه يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً، ولأننا نرغب في تمثيل هذا الواقع، والحديث عن النسق اللغوي الشائع بين المتحدثين الوطنيين بتلك اللغة فنحن نقدم إفادات بشأن النسق اللغوي في إحدى الحالات التزامنية الخاصة.

بالإضافة إلى ذلك، حتى وإن كان تصور أية حالة تزامنية للغة مجرد خيال أدبي منهجي، فمن المهم ألا ننسى أن أية إفادات بشأن التطور التاريخي للغة تعد في الوقت

نفسه إفادات خيالية أدبية بالقدر ذاته. لنفترض أنني أرغب الآن في تقديم أحد الادعاءات التاريخية التي تقول إن الصوت /a/ أصبح في فرنسية القرن العشرين الصوت / a / (وأنا أتبع هنا التقليد السائد في وضع الأشكال الفونولوجية بين خطين مائلين)، فماذا يعنى مثل هذا الإدعاء؟ قد تقول إن إحلال الصوت /a/ محل الصوت /a/ يوحى بتحويل أحد الموضوعات في الزمن، ومع ذلك فإن هذا القول يُعد في الواقع أحد الخيالات الأدبية التاريخية التي تلخص الكثير من الحقائق التزامنية، ذلك أنه في إحدى الفترات المبكرة من هذا القرن كان يوجد أعداد كبيرة من المتحدثين تميز بين هذين الصوتين كما يظهر في *pâte* و *patte* أو في *tâche* و *tache*، في حين لا يميز بين هذين الصوتين الآن سوى عدد ضئيل من المتحدثين الفرنسيين، ولذلك لم يعد هناك سوى صوت وحيد لـ /a/ في اللغة، وقد يكون هذا المثال بطبيعة الحال تبسيطاً مبالغاً فيه لأن بعض المتحدثين سوف يسمعون هذا التمييز ولكنهم لن يستخدموه بأنفسهم، في حين قد يستخدمه بعضهم الآخر في بعض المناسبات الرسمية نسبياً. وكما يبين هذا المثال فإن الإفادة التاريخية تربط بين أحد العناصر المستقلة (المستمدة من إحدى الحالات المبكرة لأحد الأنساق اللغوية) وعنصر آخر مستمد من إحدى الحالات المتأخرة للنسق ذاته، ولكن حين تُفترض الطبيعة العلاقية للوحدات اللغوية - حقيقة كونها قد تحددت كلية بفعل العلاقات التي ترتبت على وضعها - الخاص في النسق - فإن الأمر يصبح مثيراً للشك، وبخيلاً على المبدأ الأساسي في علم اللغة التزامنى، إذن كيف يمكن لنا تبرير ذلك؟ وكيف يمكننا التسليم بالهوية التعاقبية للوحدات اللغوية؟.

يحاول بوسوسير في هذا المجال أن يثبت أن الإفادات التاريخية قد اشتقت من الإفادات التزامنية، هذا على الرغم من أوضاعهما المتباينة تماماً، ويتساءل: ما الذي يسمح لنا بتقرير حقيقة أن الكلمة اللاتينية *mare* قد أصبحت الكلمة الفرنسية *mer* (ومعناها بالإنجليزية 'sea')؟ قد يجيب عالم اللغة التاريخي بأننا نعرف أن *mare* اللاتينية أصبحت *mer* الفرنسية لأن الصوت الأخير /e/ فيها (أو في أية كلمة أخرى) قد سقط فجأة، وأن / a / قد أصبح /e/، ولكن بوسوسير يثبت أنه حين يُقترح أن التغيرات الصوتية المنتظمة هي التي تخلق الصلة بين الشكلين فإنك تقلب الأشياء عكس الاتجاه، لأن ما يجعل بمقدورنا تعيين هذا التغير الصوتي هو تصورنا البيديهي

أن شكلاً ما أصبح شكلاً آخر، فنحن نستخدم التطابق بين *mare* و *mer* كي نقرر أن /a/ أصبح /e/، وأن الصوت الأخير /e// في هذه الكلمة قد سقط فجأة^(١٤).

وفي الواقع يمكن تصور الارتباط القائم بين *mare* و *mer* كما يلي : تُولف *mare* و *mer* والأشكال المختلفة الواقعة بينهما سلسلة واحدة متصلة من الهويات التزامنية، ونتيجة لأحد التغيرات التي حدثت في أحد العصور ظهر شكلان مختلفان أحدهما قديم والآخر جديد، وعلى الرغم من التطابق الفونولوجي أو الوظيفي لهذين الشكلين فقد أصبحا يمثلان من الناحية الصوتية شكلين مختلفين، ولقد كان المتحدثون الفرنسيون يستخدمونهما (نظراً لاختلاف معنيهما واعتبار أحدهما أقدم من الآخر) على نحو متبادل، وبطبيعة الحال فقد تمسك بعضهم بالشكل القديم في حين فضل بعضهم الآخر الشكل الجديد، ولكن المهم أن التحول من شكل فوناتيكي إلى شكل آخر لم يكن نتاجاً لاختلاف المعنيين الفعليين للشكلين، لأن الهوية التزامنية من وجهة نظر النسق اللغوي يمكن أن تعتمد على هذين الشكلين المختلفين معاً، وبهذا المعنى تعتمد الهوية التعااقبية على إحدى السلاسل المتصلة للهويات التزامنية.

وكما يقول بوسوسير مشيراً إلى مثال آخر: «تعني الهوية التاريخية لأي كلمتين مختلفتين مثل *calidum* و *chaud* (ومعنى أي منهما في الإنجليزية "hot" أن كلمة منهما انتقلت من الشكل الأول إلى الشكل الأخير من خلال سلسلة متتابعة من الهويات التزامنية»^(١٥). وحين نتحدث عن تحول إحدى الكلمات ونسلم بهويتها التاريخية فنحن نلخص في الواقع سلسلة متتابعة من الهويات التزامنية، ويكمل بوسوسير: «هذا هو سبب قولي إن معرفة سبب احتفاظ كلمة "gentlemen" بهويتها حين أعيدت عدة مرات أثناء المحاضرة تماثل في أهميتها معرفة سبب تطابق *calidum* مع *chaud*. فالمشكلة الثانية لا تكون في الواقع سوى امتداد للمشكلة الأولى وتكملة لها»^(١٦).

وهكذا لم يعد بمقدور المرء أن يبرهن بطريقة ما على أن علم اللغة التعااقبي أكثر ارتباطاً بواقع اللغة، بينما يعد التحليل التزامني مجرد خيال أدبي. فالأنساب التاريخية لا تشق من الهويات التزامنية فقط وإنما هي في ذاتها تمثل حقائق تنتمي إلى رتبة مختلفة، وبالتعبير التزامني تعد الهويات التاريخية هويات مُحرفة، لأن العلامات المبكرة

(١٤) Course, p. 182; Cours, p. 249.

(١٥) Course, p. 182; Cours, p. 249.

(١٦) Course, p. 182; Cours, p. 250.

والمتأخرة التي تربط بينها لا تقتنى أية خواص مشتركة، فليس لأية علامة من خواص في الأصل سوى الخواص العلاقية التي تحددها داخل نسقها التزامنى الخاص، ومن وجهة نظر أنساق العلامات - وهى وجهة النظر الجديدة بالاعتبار عند دراسة العلامات - تعد العلامتان المبكرة والمتأخرة علامتين متباينتين كلية.

من هنا يأتى أهمية الفصل بين المنظرين التزامنى والتعاقبى حتى وإن تماثلت الحقائق التي يعالجها وتلازمت بشكل حميم لا تنقسم عراه. وتلك هى إحدى القضايا التي يجب على المرء التركيز عليها، لأن علماء اللغة الذين اعترضوا على تمييز بوسوسير الجنزى بين المدخلين التزامنى والتعاقبى، والذين أبدوا الرغبة فى تصور منظور شامل كثيراً ما يشيرون إلى تشابك الحقائق التزامنية والتعاقبية بغية تدعيم موقفهم. فقد كان بوسوسير على وعى تام بتماثل الحقائق التزامنية والتعاقبية وتلازمها أو انجذابها، وقد كان الفصل بين تلك العناصر حين تتمازج يمثل فى نظره الطريقة الوحيدة التي يمكن عن طريقها إضفاء الترابط المنطقى على التحليل اللغوى، فلكل الأشكال اللغوية مظاهرها التزامنية والتعاقبية التي يجب الفصل بينها، لأنهما يمثلان رتبتين مختلفتين من الحقائق، ولدى كل منها شروطه الخاصة فى الوجود.

وتأليف مركب شامل - كما يناقش بوسوسير - أمر مستحيل وذلك بسبب الطبيعة العشوائية للعلامات اللغوية، فقد يتبنى المرء المنظرين التزامنى والتعاقبى فى بحث ضروب الأنساق الأخرى: «بقدر ما تتجذر القيمة فى الأشياء نفسها، وفى علاقاتها الطبيعية بقدر ما يستطيع المرء تعقب تلك القيمة خلال الزمن، واضعاً نصب عينيه أنها تعتمد فى كل لحظة على نسق من أنساق القيم الذى توجد معه» (١٧).

وهكذا سوف تعتمد قيمة أية قطعة من الأرض فى إحدى الفترات على عوامل رئيسية عديدة فى النسق الاقتصادى، إلا أن القيمة فى هذه الحالة قد ضربت بجنورها إلى حد ما فى طبيعة الأرض ذاتها، وإن تؤثر المتغيرات الأخرى مباشرة فى إحلال إحدى القيم العشوائية محل أخرى، إلا أنه فى حالة اللغة، وحيث لا يوجد أى أساس طبيعى لقيمة العلامة أو أى محددات متأصلة فيها، فسوف يكون للتغير التاريخى شخصيته المختلفة، وكما يقول بوسوسير: «لقد انفصلت عناصر اللغة عن تطورها التاريخى الخاص بطريقة غير معروفة كلية فى المجالات التي اقتنت الأشكال فيها أقل

Course, p. 80; Cours, p. 116. (١٧)

درجات ارتباطها مع المعنى» (١٨)، ونتيجة لعدم وجود دال أكثر ملائمة لمداول بعينه عن دال آخر يحدث التغير في الصوت مستقلاً عن نسق القيم، وكما يقول: «تعد الحقيقة التعااقبية حدثاً بذاته لديه أساسه المنطقي الخاص، ولا علاقة لتلك الحقيقة التعااقبية بالنتائج التزامنية التي قد تنتج بالضرورة عنها» (١٩).

ومناقشة بوسوسير لتلك القضية معقدة إلى أبعد حدود التعقيد، فقد ادعى اختلاف الحقائق التاريخية عن الحقائق التزامنية، ومن ثم ادعى حدوث التغير التاريخي خارج النسق اللغوي، أي في الأداء أو في الكلام *parole* وليس في اللغة *la langue*، وزعم أن ما يتحول في العادة ليس سوى العناصر المستقلة أو المفردة، هذا مع أن هذه العناصر تؤثر في النسق كله بقدر ما يتكيف النسق معها، أو بقدر ما يستفيد من النتائج المترتبة عليها، وهكذا الأمر مع أن النسق اللغوي لم يكن المنتج لها في الأساس.

والشيء الوحيد الذي يعارضه بوسوسير هنا هو فكرة «الغائية» في علم اللغة، فكرة أن هناك غاية ما تعمل التغيرات اللغوية من أجلها، بحيث تحدث التغيرات بغاية إنجازها، فالتغيرات لا تظهر - في رأيه - لكي تنتج حالة جديدة للنسق. فما يحدث هو أن «عناصر بعينها قد تغيرت دون اعتبار لتمامسكها داخل النسق ككل» (٢٠)، وقد كان لهذه التغيرات المعزولة نتائج عامة للنسق الذي سوف تتبدل شبكة علاقاته. على أي حال «فالأمر ليس وكأن أحد الأنساق قد أنتج نسقاً آخر، وإنما هو أن أحد عناصر النسق الأول قد تغير، وكان تغير هذا العنصر المتغير كفيلاً بأن يجلب إلى الوجود نسقاً آخر» (٢١)، حيث تعد التغيرات جزءاً من إحدى العمليات التطورية المستقلة التي يتكيف النسق معها.

(١٨) Engler, p.169.

(١٩) Course, p. 84; Cours, p. 120.

(٢٠) الاستثناء المهم الذي يناقشه بوسوسير بالتفصيل ومع ذلك لم أتناوله هنا هو الظاهرة المعروفة باسم القياس التمثيلي، والتي يتم فيها خلق الأشكال الجديدة قياساً على الأشكال الموجودة. وتعد تلك الظاهرة عاملاً مهماً في التغير اللغوي، ومع ذلك يؤكد بوسوسير أنها ظاهرة تزامنية أساساً. وللمزيد حول هذا الموضوع انظر: الفصل الثالث ص ١٠٢.

(٢١) Course. p. 85; Cours, p. 121.

توجب الحقيقة التاريخية استبدال أحد الأشكال بشكل آخر. وليس للإستبدال أو للإحلال أى معنى فى ذاته، لأنه يعد من وجهة نظر النسق اللغوى استبدالاً أو إحلالاً «لاوظيفياً»، فى حين أن الحقيقة التزامنية ما هى إلا العلاقة القائمة بين الشكلين الموجودين تلقائياً أو التقابل القائم بينهما، فالعلاقة الدالة هى تلك العلاقة التى تنطوى على معنى داخل اللغة. وكلما كان للتغير اللغوى مضاعفات فيما يتعلق بالنسق، وجد المرء الموقف وقد اختلط فيه هذان النوعان من الحقائق وأصبح عرضه للخط بينهما، هذا مع أن هذين النوعين من الحقائق نوعان مختلفان إلى حد بعيد ويجب الفصل بينهما. على أى حال فلكى ندرك الاختلاف القائم بينهما وأهميته سوف نتناول بعض الأسماء الإنجليزية ذات الأشكال غير المنتظمة لصيغة الجمع، وهى: *feet* و *geese* و *teeth*. وسوف نتساعل عن المظاهر التزامنية والتعاقبية لتطور تلك الأشكال؟

فى الإنجليزية الأنجلوساكسونية المبكرة (أى قبيل الفتح النورماندى عام ١٠٦٦م) كانت أشكال صيغتى المفرد والجمع لتلك الأسماء كما يلى:

المرحلة الأولى

صيغة المفرد صيغة الجمع

<i>foot</i> :	<i>fot</i>	<i>foti</i>	(وينطقان <i>foat</i> و <i>foati</i>)
<i>goose</i> :	<i>gos</i>	<i>gosi</i>	
<i>tooth</i> :	<i>tof</i>	<i>tofi</i>	(حيث <i>f = th</i>)

وبعد ذلك تأثرت أشكال صيغة الجمع بأحد التغيرات الفوناتيكية، وهو التغير الذى يعرف باسم 'تحول i' : حين يأتى الصائت /i/ عقب أحد المقاطع المنبرة *stessed* فإنه يؤثر فى صائت هذا المقطع المنبر، وتصبح الصوائت الخلفية صوائت أمامية، ولذلك يصبح الصائت /o/ الصائت /e/. وقد أدى ذلك إلى :

المرحلة الثانية

صيغة المفرد صيغة الجمع

feti	fot	: foot
gesi	gos	: goose
tefi	tof	: tooth

وبعد ذلك ونتيجة لأحد التغيرات الفوناتيكية التالية يسقط الصائت الأخير /i/ مؤبياً إلى المرحلة الثالثة:

المرحلة الثالثة

صيغة المفرد صيغة الجمع

fet	fot	: foot
ges	gos	: goose
tef	tof	: tooth

وعندئذ أصبحت هذه الأشكال - ونتيجة التغير الكبير في صوائت الإنجليزية التي أصبح بها الصائت /o/ الصائت /u/، والصائت /e/ الصائت /i/ - هي الأشكال الحديثة (٢٢).

في المرحلة الأولى تميزت صيغة الجمع بظهور صائت نهائى /i/، وهو ما يعد بذاته حقيقة تزامنية، ذلك لأن الذى يميز التقابل القائم بين صيغتي المفرد والجمع هو التقابل القائم بين ظهور الصائت /i/ وغيابه. ومن ثم فالتغير الفوناتيكي - الذى لم يكن لديه أى تأثير على صيغ الجموع أو بالأحرى على قواعد اللغة على الإطلاق - قد

(٢٢) Course, pp. 83-4; Cours, p. 120.

أحدث تغييراً في تلك الأشكال التي احتوت على الصائت النهائي /i/، إلا أنه لم يمارس أى تأثير على صيغ الجموع (فهو لم يمارس أى تأثير على التقابل التزامنى بين صيغتي المفرد والجمع) التي يظهر فيها كلما ظهر الصائت /i/ عقب أحد المقاطع المنبرة، ولكن - وكما حدث بالفعل - فقد تأثر عدد محدود من أشكال صيغة الجمع، مما أدى إلى وجود حقيقة تزامنية جديدة في المرحلة الثانية، حيث أصبحت بعض أشكال صيغة الجمع - نتيجة للحدث الذي لم يؤثر في صيغ الجموع من هذا القبيل - أشكالاً تتميز بأحد التقابلات الثنائية أو المزدوجة (التقابل بين ظهور الصائت النهائي /i/ وغيابه كما أشرنا من قبل، والتقابل بين صائت صيغة الجمع /e/ وصائت صيغة المفرد /o/) وعند هذا الحد ومع سقوط الصائت النهائي /i/ (وهو على أى حال أحد الصوائت التي لا تختص بصيغ جموع من هذا القبيل) نشأ موقف تزامنى جديد. وهكذا فقد تغيرت هيئة أشكال صيغة الجمع بفعل أحد الأحداث التاريخية، غير أن هناك اختلافاً بين أشكال صيغتي المفرد والجمع (الصائت /o/ بوصفه مقابلاً للصائت /e/) فقد كان بمقدور النسق اللغوى أن يستخدم هذا الاختلاف بوصفه أحد التقابلات المحملة بالمعنى، يكتب نوسوسير:

«تساعدنا هذه الملاحظة على أن نفهم بشكل تام الطبيعة الاتفاقية أو التصادفية لأية حالة لغوية... فالحالة التي نتجت عن التغيرات لم تكن مصممة كي تشير إلى المعانى التي توقفت عليها، وأية حالة اتفاقية أو تصادفية هي حالة مفترضة، مثال: fot) ولكن المتحدثين هم الذين يجعلون منها تمييزاً بين صيغتي المفرد والجمع. لم تكن fot و fet أكثر ملائمة لهذا العرض من fot و fet. ففي الحالتين كليهما يهب العقل الحياة لإحدى الجواهر المفترضة»^(٢٣). ومن وجهة نظر النسق اللغوى تعد الحقائق التزامنية هي الحقائق الدالة، أما الحقائق التعااقبية فهي تنتج الأشكال الجديدة التي تصبح عندئذ جزءاً من أحد الأنساق الجديدة - ولكن - كما يقرر نوسوسير: «من المنظور التعااقبى يهتم المرء بظواهر لم ترتبط بالأنساق على الرغم من خضوعها لشروطها»^(٢٤).

وهكذا يلح نوسوسير على ضرورة التمييز بين المنظورين التزامنى والتعاقبى فى جميع الحالات، إلا أن مناقشته تعالج التغيرات الصوتية فقط، وبالطبع فلتلك الأمثلة

Course, p. 85; Cours, pp. 121-2. (٢٣)

Course, p. 85; Cours, pp. 122. (٢٤)

التي يناقشها نتائج مورفولوجية ونحوية داخل النسق، وبالفعل قد يترتب على إعادة التكييفات الصوتية نتائج دلالية، ومع ذلك لم يتناول بوسوسير أبداً مشكلة التغير الدلالي ذاته أو التعديلات التعاقبية للمدلولات، فقد سلم بشكل عابر بأنه بمجرد أن يترك المرء مستوى الصوت يصبح من الصعب عليه الاحتفاظ بالتمييز المطلق بين المتزامن والمتعاقب^(٢٥)، ولكن تحتم النظرية الدلالية على المرء القيام بهذا التمييز، وبإمكان المرء أن يقدم إحدى الحالات المقنعة لمد هذا التمييز بين هذين المنظورين إلى علم الدلالة Semantics.

تتماثل هذه المناقشة الدلالية من الناحية الشكلية إلى حد بعيد مع المناقشة التي اقتضتها التغيرات الصوتية، ولنفترض أن المرء يدرس تغير معنى kunst في المخطوطات الألمانية بين عامي ١٢٠٠ و ١٣٠٠، ما الذي يمكن أن يكون تزامنياً، وما الذي يمكن أن يعد تعاقبياً هنا؟ لتحديد تغير المعنى يحتاج المرء لمعنيين، ولا يمكن تحديد هذين المعنيين سوى عن طريق الحقائق التزامنية المسلم بها، أي عن طريق العلاقات القائمة بين المدلولات في إحدى الحالات المفترضة من اللغة التي تحدد الدائرة الدلالية لـ 'kunst'. كان يوجد في إحدى المراحل المبكرة معرفة أو كفاءة ملكية رفيعة باعتبارها مقابلاً للمهارات الفنية الشعبية الغالبة، وكانت توجد مآثر جزئية أو نادرة باعتبارها مقابلاً للحكمة الشاملة، وفي مرحلة تالية اختلف التقابلان الرئيسان اللذان يحددانها: المنيوي مقابل الروحي، والفني مقابل اللا فني. وهكذا أصبح لدينا تنظيمان مختلفان لأحد المجالات الدلالية، حيث تقوم أية إفادة تاريخية على المعلومات التزامنية، لكن إذا كان على تلك الإفادة تفسير ما حدث لـ 'kunst' فإن عليها الإشارة إلى العوامل أو الأسباب غير اللغوية (التغيرات الاجتماعية، العمليات السيكلولوجية... إلخ.) التي حدث وكان لتأثيراتها انعكاسات في النسق الدلالي، فيما يتعلق بتحليل اللغة الإنسانية فالحقائق الوثيقة هي التقابلات التزامنية، أما المنظور التاريخي فهو يتناول الصلات المنفردة التي لا يمكن تحديد هويتها سوى في ضوء نتائج التحليل التزامني، والاعتماد على ما يطلق عليه ستيفن أولمان S. Ullmann «التنوع اللانهائي، وتعدد الأسباب التي تحكم التغير الدلالي» هذا لكي تأخذ في الاعتبار الانتقال من حالة محددة إلى حالة أخرى، وعلى الرغم من ذلك فإن أية معرفة للمعاني السابقة وللأسباب الخاصة بالتغير لا ترتبط بمعالجة العلاقات الدلالية لأية حالة تزامنية (باستثناء أن تكون المعاني السابقة

لا زالت موجودة داخل النسق، وفي تلك الحالة فهي «تدرس دراسة تزامنية ولا تدرس دراسة تعاقبية».

في حالتنا هذه - كما في الحالات التي درسها نوسوسير - فإن للحقائق التاريخية رتبة متميزة تختلف عن رتبة الحقائق التزامنية، فالحقائق التاريخية تواكب العناصر المستقلة عادة ولا تواكب النسق الذي بإمكانه وحده تحديد هذه العناصر بوصفها وحدات لغوية، وفي العادة يتجاهل التاريخ - أو التطور التاريخي للعناصر المستقلة - الأشكال التي يستخدمها النسق. ولأن دراسة الاستخدامات المنهجية لتلك الأشكال تمثل إحدى المهام الرئيسية لعلم اللغة، فإن التفسير التاريخي أو السببي للعناصر المستقلة ليس مطلوباً في علم اللغة، وفي العادة أيضاً ينجذب التفسير التاريخي لعناصر اللغة بوصفها عناصر مستقلة لا غير، ولا ينجذب نحو اللغة ذاتها بوصفها نسقاً. فالتفسير المحوري في علم اللغة تفسير بنائي: فيه يهتم المرء بتفسير أشكال التوليف وقواعده، وذلك بتصوير النسق الكامن من العلاقات في حالة تزامنية محددة وهي الحالة التي تخلق عناصر هذا النسق التزامني وتحددها.

٥ - تحليل «اللغة La langue»:

في الواقع تشير النتيجتان الرئيسيتان اللتان ترتبتا على الطبيعة العشوائية للعلامة إلى حقيقة واحدة، وتلك الحقيقة تمثل محور نظرية اللغة عند نوسوسير: اللغة شكل وليست جوهرًا، فاللغة نسق من أنساق القيم المترابطة تبادلياً، وتحليل اللغة علينا تصوير نسق القيم الذي يؤلف إحدى حالاتها. ولذلك فعلى المقابل من العناصر الصوتية والعناصر الدالة من أفعال الكلام أو من الكلام parole تؤلف اللغة la langue نسقاً من أنساق التقابلات أو الاختلافات، وتنحصر المهمة الرئيسية للمحلل اللغوي في اكتشاف طبيعة تلك التقابلات أو الاختلافات.

والمشكلة الأساسية التي تصادف المحلل اللغوي - وفقاً لتأكيد نوسوسير - هي مشكلة الهوية اللغوية، وذلك لعدم وجود شيء مقدماً في علم اللغة، حيث لا يوجد في هذا العلم أي عناصر موجبة أو ذاتية التعريف يمكن للمرء البدء منها. ومن ثم فلكي نعين هوية أي مظهرين لأية وحدة لغوية ليس أمام المرء سوى إقامة إحدى الكينونات الشكلية أو العلاقية، حيث يقوم بالتمييز بين الاختلافات الوظيفية والاختلافات غير الوظيفية (أو غير اللغوية حسب تعبير نوسوسير) فيها. وبمجرد الانتهاء من تعيين هوية العلاقات التي تحدد حدود «الدوال» وتقابلاتها من ناحية، وحدود «المدلولات» من الناحية الأخرى

سوف يصبح لدى المرء أشياء يمكن وصفها باعتبارها كينونات موجبة أو علامات لغوية، إلا أنه يجب أن نتذكر دائماً أن تلك الكيانات لم تنشأ سوى عن شبكة الاختلافات أو التقابلات التي تؤلف النسق اللغوي في إحدى الفترات المفترضة واعتمدت عليها.

ومع ذلك قد يفهم حتى الآن أننا حين نتحدث عن العلامات اللغوية ووحداتها أننا نتحدث عن الكلمات فحسب، أو أن اللغة لا تتكون سوى من معجم مفردات انتظمت وفقاً للاختلافات أو التقابلات الفونولوجية والدلالية وحسب، ولكن الأمر غير ذلك بالتأكيد، لأن اللغة تتكون أيضاً وبطبيعة الحال من العديد من العلاقات النحوية وتمييزاتها، ومع ذلك يؤكد بوسوسير (في إحدى الفقرات الجديرة بالاعتبار) عدم وجود أي اختلاف بين الوحدة اللغوية والحقيقة النحوية، وأن طبيعتهما المشتركة هذه تعد نتاجاً لطبيعة العلامات بوصفها موضوعات اختلافية، ولذلك فإن ما يؤلف العلامة اللغوية (بكامل أنواعها) ليس سوى الاختلافات القائمة بين العلامات.

تتمثل إحدى النتائج المتناقضة المترتبة على هذا المبدأ في تسليمه بأن ما ينسب لأية حقيقة نحوية يلائم في الوقت نفسه تعريف أية وحدة لغوية؛ حيث يعبر عن الحقيقة النحوية دائماً في ضوء التقابلات القائمة بين الحدود، وهكذا وكما في اللغة الألمانية يمثل التقابل بين Nacht (وتعني ليلة) و Nāchte (وتعني ليالي) إحدى الحقائق النحوية.

«من الواضح أن كل حد من هذين الحدين الألمانيين الممثلين لإحدى الحقائق النحوية (صيغة المفرد الخالية من الصائت المتغير، والخالية من الصائت /e/، بوصفها مقابلاً لصيغة الجمع ذات الصائت المتغير، وذات الصائت الأخير /e/) لم ينتج بذاته سوى عن التفاعل القائم بين التقابلات داخل النسق، فهذان الحدان الألمانيان لا يمثلان بذاتهما شيئاً، وإنما يكمن مغزى كل شيء في التقابل القائم بينهما داخل النسق، بتعبير آخر يمكن للمرء التعبير عن العلاقة القائمة بين Nacht و Nāchte بالصيغة الجبرية a/b ، حيث لا يعد كل من a و b في تلك الصيغة الجبرية مجرد حدين وحسب، بل يعد كل حد منهما بمثابة إحدى النتائج المترتبة على إحدى قوائم التقابلات، وهكذا يعد النسق اللغوي - كما هو دائماً - أحد العلوم الجبرية التي تحتوى وحدها على الحدود المعقدة، وقد يكون لبعض التقابلات التي يقيمها النسق بين الحدود دلالة أكثر من بعضها الآخر، إلا أن «الوحدة اللغوية» و «الحقيقة النحوية» ليسا سوى اسمين مختلفين للمظاهر المحددة للظاهرة العامة نفسها: لعبة التقابلات اللغوية، وهكذا فمن الطبيعي أن نتناول تقابلاً مثل Nacht و Nāchte وبإمكاننا أن نتساءل عن الوحدات التي تضمها هذا التقابل. هل يشكل هذا التقابل كلمتين فحسب، أم أنه يمثل سلسلة

كاملة من الكلمات المماثلة؟ هل يمثل هذا التقابل صيغة a/ā فقط (في الألمانية تشير النقطتان الموضوعتان فوق الصائت إلى التغير الحادث في الصوت للدلالة على صيغة الجمع) أم أنه يمثل صيغ الإفراد والجمع كلها... إلخ؟

«لو كانت العلامات اللغوية مكونة من شيء آخر غير الاختلافات عندئذ قد لا تتماثل «الوحدة اللغوية» و «الحقيقة النحوية». ولكن ولكون النسق اللغوي هو ذاته فلن يجد المرء مهما كان الموضع الذي يبدأ منه سوى هذا التوازن المعقد للحدود المقيدة أو المتكيفة تبادلياً. وبتعبير آخر اللغة شكل وليست جوهرًا، وليس بمقدور المرء استيعاب تلك الحقيقة كاملة لأن كل الأخطاء التي تملأ مصطلحاتنا التقنية، وكل الأساليب غير الدقيقة التي نستعين بها في تعيين مختلف مظاهر اللغة هي في الواقع نتيجة لافتراضنا الإرادي أن الظواهر اللغوية يجب أن يكون لها جوهر» (٢٦).

«ولنتأمل - على سبيل المثال - وضع الكلمة الإنجليزية took، ويتساءل أين علامة الزمن الماضي فيها؟ من الواضح أنه لا يوجد أي شيء موجب في الكلمة ذاتها، وإنما يوجد أحد العناصر العلاقية، حيث ينطوي التقابل بين تلك الكلمة وكلمة take على علامة التمييز بين الزمن المضارع والزمن الماضي، مثلما ينطوي التقابل القائم بين كلمتي foot و feet على علامة تمييز العدد، فلولا وجود كلمة feet لكانت كلمة foot (افتراضاً) كلمة غير محددة العدد. وهكذا توضح الحقائق النحوية الطبيعة العلاقية الخالصة للعلامة وتثبت تصور نوسوسير الجذري لتماثل الحقائق التزامنية كلها» (٢٧).

يهتم عالم اللغة في دراسته للغة بالعلاقات: أي يهتم بالهويات وبالاختلافات. وهو يهتم - كما يشير نوسوسير - بالكشف عن نمطين أساسيين من هذه العلاقات، النمط الأول وهو نمط العلاقات التي انتهينا من مناقشتها الآن: وهي التقابلات التي تثبت الحدود البارزة والمتبادلة (مثل b بوصفه مقابلاً لـ p، و foot بوصفها مقابلاً لـ feet). أما النمط الثاني فهو نمط العلاقات التي تتركب الوحدات في ضوئها معاً لتشكيل متتاليات، حيث لا تعتمد قيمة الحد في المتتالية اللغوية على التقابل القائم بينه وبين بقية الحدود التي تم اختيارها لفائدتها الآنية في تلك المتتالية فحسب، وإنما تعتمد قيمته أيضاً على العلاقة القائمة بينه وبين الحدود الأخرى التي تسبقه وتلقبه في المتتالية نفسها، ولقد أطلق نوسوسير على نمط العلاقات الأولى اسم العلاقات الترابطية

(٢٦) Course, pp. 121-2; Cours, pp. 168-9.

(٢٧) Course, p. 134; Cours, p. 187.

associative (وهو النمط الذي يعرف حالياً باسم العلاقات الاستبدالية **paradigmatic**) وأطلق على نمط العلاقات الثانية اسم العلاقات التراصفية **syntagmatic**: وهي العلاقات التي تحدد الإمكانيات التراصفية في المتتاليات اللغوية. بتعبير آخر تشير العلاقات التراصفية إلى نمط العلاقات القائمة بين العناصر التي يتوافق التراصف بينها في المتتاليات، وتشير العلاقات الاستبدالية إلى التضادات القائمة بين العناصر التي يحل بعضها محل بعضها الآخر في المتتاليات نفسها.

والمهم هنا هو وجود هذه العلاقات على مختلف مستويات التحليل اللغوي. فعلى المستوى الفونولوجي نتحدد هوية الفونيم /p/ في ضوء التقابل القائم بينه وبين الفونيمات الأخرى التي تحل محله في مختلف السياقات، كما نجد في سياق (-et)، (مثال : set, net, met, let, bet)، وفي ضوء العلاقات التراصفية التي يقيمها الفونيم ذاته مع الفونيمات الأخرى (حيث يمكن لهذا الفونيم أن يسبق أى صائت أو أن يعقبه، في حين لا يسبقه سوى الصائت /s/ فقط، ولا يعقبه سوى الصائتين الخفيفين /r/ و /l/ فقط).

ويمكن العثور أيضاً على نمط العلاقات التراصفية والاستبدالية كليهما على المستوى المورفولوجي أو على مستوى بناء الكلمة، ففي الإنجليزية يتحدد الاسم جزئياً بالتراصفات التي يدخل فيها مع الزوائد السابق عليه أو اللاحق. ولذلك يتخذ المورفيم friend أشكالاً تراصفية مثل: friendly و friendliness و unfriendly و befriended و unfriended و friendship و unfriendliness ولايتخذ أشكالاً مثل : friendier و friendation * و subfriend * و overfriend * و defriendize *... إلخ.

وهكذا تُظهر الإمكانيات التراصفية للمورفيم morpheme العلاقات التراصفية، في حين تُظهر الإمكانيات التضادية له مع المورفيمات التي تحل محله في البيئات المفترضة العلاقات الاستبدالية.

وهكذا نجد تضاداً استبدالياً بين المورفيمات -ly و -less و -ship ، على اعتبار أنها تظهر جميعها بعد المورفيم friend ، وعلى اعتبار أن إحلال مورفيم منها محل مورفيم آخر في إحدى البيئات يؤدي بالضرورة إلى تغير في المعنى، وبالطريقة نفسها فالمورفيم friend علاقات استبدالية مع مورفيمات مثل member و dictator و partner و professor ... إلخ. حيث تتضاد جميعها فيما بينها في بيئة مثل

بيئة ship - . وإذا انتقلنا إلى مستوى النظم أو بناء الجملة syntax يمكننا الاستمرار في تحديد نمط العلاقات نفسيهما، ولذلك فالعلاقات التراصفية التي تحدد أحد المكونات وليكن (he frightened) هي ذاتها العلاقات التراصفية التي تسمح لمكونات أو مواد بعينها أن تعقب هذا المكون بالذات، وبالتالي يمكن أن يعقب هذا المكون مكونات مثل : george أو the man standing on the corner ولا يعقبه مكونات مثل : the * ston أو purple * أو sincerity * . وفي الوقت ذاته فإن معرفة العلاقات التراصفية للمكون he frightened هي ذاتها المعرفة التي تمكننا من تحديد فئة المفردات أو المواد الاستبدالية التي يمكن أن تحل محله، ذلك لأن المفردات أو المكونات التراصفية ذاتها في حالة تضاد استبدالي فعلي فيما بينها.. ولأن اختيار إحدى المفردات أو أحد المكونات التراصفية يعد في الوقت نفسه بمثابة إنتاج لأحد المعاني التي ترتبت على إقصاء أحد المفردات أو المكونات التراصفية الأخرى.

وهكذا يدعى بوسوسر إمكانية اختزال النسق اللغوي برمته إلى مصطلحات نظرية العلاقات التراصفية والاستبدالية وتفسيره في ضوءها، ويدعى كذلك أن الحقائق التزامنية حقائق متماثلة أساساً، وربما يكون هذا الادعاء هو التوكيد الأوضح لما يعرف باسم النظرة البنيوية للغة، وليس مجرد النظر للغة بوصفها نسقاً مكوناً من عناصر قد حددت هويتها كلية في ضوء العلاقات القائمة بينها داخل النسق، فعلي الرغم من كون اللغة كذلك فإن النظرة البنيوية تؤكد أن للنسق اللغوي مستويات مختلفة من البناء، وأنه بإمكان المرء أن يحدد على كل مستوى منها العناصر التي تتضاد فيما بينها، والعناصر التي تتوافق مع عناصر أخرى لتشكيل وحدات المستوى الأعلى، وأنه ليس هناك أي اختلاف في مبادئ البناء على كل مستوى منها.

على أي حال يمكننا تلخيص وجهة النظر البنيوية وتوضيحها بقولنا إن اللغة شكل وليست جوهرًا، أي أنه ليس لعناصرها من خواص سوى الخواص التضادية والتراصفية، وأن تحديد العناصر اللغوية أو وحدات اللغة في كل مستويات البناء يتم في ضوء أهلية تلك العناصر أو الوحدات للتفرقة بين وحدات المستوى المتقدم على كل مستوى منها، ومن ثم يتم تحديد المظاهر التمييزية الفونولوجية في ضوء العلاقات التي تميز الفونيم /b/ عن الفونيم /p/ أو التي تميز الفونيم /d/ عن الفونيم /t/ بوصفه فونيمًا مجهورًا voiced مقابلًا لفونيم مهموس voiceless، وهكذا يعد المجهور بوصفه المقابل للمهموس بمثابة أحد المظاهر التمييزية الأدنى. والمهم أن التمييز بين هذه الفونيمات يعود إلى قدرة التقابلات القائمة بينها على التمييز بين المورفيمات، فنحن

نعلم أن /b/ و /p/ وحدتان فونولوجيتان، لأنهما تتقبلان لتمييز المورفيم bet عن المورفيم pet، ونعلم أن bet و pet وحدتان مورفولوجيتان بالضرورة، لأن التضاد القائم بينهما يميز - على سبيل المثال - بين betting، petting أو يميز بين bets و pets، ونعلم أيضاً أن المفردات التي نطلق عليها بالعامية «كلمات» تؤدي أنواراً مختلفة في وحدات المستوى الأعلى للبناء وهو مستوى العبارات والجمل.

ومن جديد يثبت تأكيد نوسوسير على الاعتماد المتبادل القائم بين مختلف مستويات اللغة عدم وجود شيء مقدماً في علم اللغة، وعلى ذلك لا يمكن للمرء أن يحدد عناصر أحد المستويات (أو وحداته) مقدماً ثم يشرع بعد ذلك في استنباط الطريقة التي تتركب العناصر أو تتوافق بها بغاية تشكيل عناصر المستوى التالي (أو وحداته)، وذلك لأن العناصر (أو الوحدات) التي قد يحاول المرء البدء منها قد تحددت هي أيضاً منذ البداية بالعلاقات التراصفية والاستبدالية كليهما. وعلى هذا الأساس فالطريقة الوحيدة التي تستخدم في تحديد إحدى الوحدات المورفيمية في اللغة الإنجليزية على سبيل المثال، وليكن تحديد الزائدة re-، لا تنحصر في التساؤل عما إذا كان هذا العنصر المورفيمي يتضاد مع عناصر مورفيمية أخرى أم لا؟ وإنما ينحصر فيما إذا كان هذا العنصر المورفيمي يدخل (حين يتركب مع عناصر مورفيمية أخرى بغاية تشكيل إحدى وحدات المستوى الأعلى) في تضادات مع العناصر المورفيمية الأخرى التي تميز تركيب وحدات المستوى الأعلى وتحدها أم لا؟. فنحن نعرف أن المورفيم re- يتضاد استبدالياً مع مورفيمات مثل un- و out- و over- لأن redo يتضاد مع undo و outdo و overdo، ونعرف أن do هو أحد العناصر المورفيمية المستقلة لأن redo يتضاد مع rebuild و reuse و reconnect... إلخ، ولذلك يجب القول إن التضادات القائمة بين الكلمات هي التضادات الوحيدة التي تمكنا من تحديد مكونات المستوى الأدنى، أي المورفيمات. ويجب على المرء أن يستنبط تلقائياً العلاقات الاستبدالية والتراصفية كليهما، ففي كل مستويات اللغة يعمل هذا المبدأ البنائي الأساسي: تتحدد المفردات أو المواد اللغوية بتضاداتها مع بعضها بعضاً، ويقدرتها على التراصف فيما بينها بغاية تشكيل مفردات أو مواد المستوى الأعلى.

٦ - اللغة بوصفها حقيقة اجتماعية:

عندما شرحنا المظاهر التقنية في نظرية اللغة عند نوسوسير لم نهتم بالقدر المناسب بأحد المبادئ الأساسية التي أولاه نوسوسير عنايته الفائقة: «عند تحليل اللغة

نحن نقوم بتحليل حقائق اجتماعية، ونهتم باستخدام الاجتماعي لموضوعات مادية». وكما ذكرنا من قبل قد تتحقق اللغة في مواد متباينة نون أن يعدل ذلك طبيعتها الأساسية بوصفها نسقاً من العلاقات، لأن المهم هنا هو التمييزات والعلاقات التي تمنحها المجتمعات لتوليد المعاني، ولذلك فالسؤال الذي يجب أن يطرحه الباحث اللغوي باستمرار: ما الاختلافات التي تنطوي على معنى بين أعضاء أحد المجتمعات؟ وقد يكون من الصعب تحديد الشكل الدقيق للموضوعات أو الأشياء التي تستخدم بين أعضاء أحد المجتمعات بوصفها علامات، ولكن متى كان لـ «الاختلاف» معنى وجدت علامة (أو تجريد) يجب تحليلها. فمن المعروف - على سبيل المثال - أن جملة **John loves Mary** تختلف في معناها لدى متحدثي الإنجليزية عن جملة **Mary loves John** لأن ترتيب الكلمات داخل الجمل يمثل بين أعضاء الثقافة الإنجليزية إحدى العلامات، أي يمثل إحدى الحقائق الاجتماعية، في حين أن الاختلافات الفيزيائية الناتجة عن طرائق نطق الأشخاص لأية جملة من هاتين الجملتين لا تشكل بذاتها أي معنى (أو أية علامة) لديهم. فمثل هذه الاختلافات الفيزيائية تعد بمثابة حقائق مادية فحسب، ولا تعد حقائق اجتماعية.

والآن يمكننا أن ندرك تماماً أن عالم اللغة لا يهتم أساساً بدراسة هذا الكم الضخم من المتتاليات الصوتية التي يستخدمها أعضاء أحد المجتمعات في الاتصال، وإنما يهتم بدراسة الأعراف أو الأحكام الاجتماعية التي تسمح باستخدامها على هذا النحو أو ذاك، يحاول عالم اللغة إذن تحديد الوحدات التراصفية أو القواعد العامة للنسق الذي يسمح بتحقيق الاتصال اللغوي بين أعضاء أحد المجتمعات. ولقد كان وضع الأعراف الاجتماعية والحقائق الاجتماعية في قلب البحث اللغوي وتوكيد مشكلة العلامة هو إحدى الفضائل في نظرية اللغة عند نوسوسير. ما العلامات المكونة للنسق اللغوي؟ وعلى أي شيء يعتمد تحديد هويتها بوصفها علامات؟ وقد كان طرح نوسوسير لمثل هذه الأسئلة البسيطة يؤكد باستمرار عدم وجود شيء يمكن التسليم به مقدماً في علم اللغة، ويؤكد على أهمية تبني المنظور المنهجي الصحيح، وأهمية النظر للغة بوصفها نسقاً من القيم الاجتماعية وليس بوصفها مجموعة من العناصر المادية. وعلى أي حال يمكن لنا الآن وفي ختام مناقشة نظرية اللغة عند نوسوسير اقتباس فقرتين لهما صلة وثيقة بهذا الموضوع، كان قد سبق لنوسوسير وأن كتبهما بقلمه :

«القانون المطلق الذي يحكم اللغة هو - ولنتجراً ونقول - ليس بمقدور شيء أن يستقر أبداً في حد بعينه، ويمثل هذا القانون أحد النتائج المباشرة المترتبة على عدم

ارتباط العلامات اللغوية بما تشير إليه. فلا يمكن لـ /a/ أن تشير بذاتها إلى شئ دون مساعدة /b/ والعكس صحيح تماماً. ويتعبّر آخر لا يمكن أن يكون لأي منهما قيمة إلا بوصفه نتيجة للاختلافات القائمة بينهما، أي ليس لأي منهما قيمة أو لأي مكون من مكوناتهما قيمة إلا من خلال الشبكة ذاتها من الاختلافات السالبة أبدأ».

«لأن اللغة لا تتكون من مادة، وإنما تتكون من أحد الأفعال أو أحد مركبات القوى الفسيولوجية والسيكولوجية والذهنية، ولأن كل تمييزاتنا ومصطلحاتنا وأساليب حديثنا عنها قد صيغت بفعل إحدى الفرضيات الإلزامية بأن اللغة جوهر مادياً، يجب الاعتراف بأن المهمة الأساسية للنظرية اللغوية هي تفكيك الوضع السيئ لتمييزاتنا الأساسية أو حله، وليس لأي شخص الحق في إقامة إحدى النظريات وهو يتجنب البحث عن مشكلة التعريف، ومع ذلك فالظاهر أن هذا الإجراء المريح قد أرضى حتى الآن كل دارسي اللغة» (٢٨).

ولتعزيز عدم الرضا، ولإثارة التفكير في الأساسيات ولتأكيد الطبيعة العلاقية المحضة للظواهر اللغوية، تلك هي الانتصارات الحقيقية التي أحرزتها نظرية اللغة عند بوسوسير. ويمكننا الآن تناول المغزى الأعرض لتلك النظرية وعلاقتها بالتفكير اللغوي السابق عليها واللاحق، وبالأبحاث التي تمت في العلوم الإنسانية الأخرى على حد سواء.

الفصل الثالث

مكانة

نظريات

دوسوسير

هناك ثلاثة سياقات مختلفة يمكن للمرء فيها تقييم أهمية فكر نوسوسير، وعلى الرغم من أن تصوير أهمية هذا الفكر في تلك السياقات قد يقتضى تكرار بعض المفاهيم أو الرؤى إلا أنه من الأفضل للمرء أن يدرس على التوالي علاقة نوسوسير بأسلافه في علم اللغة، وعلاقات نظريات اللغة عنده بتيارات الفكر الرئيسية خارج هذا العلم، وأخيراً التأثير الذى مارسه فى علم اللغة الحديث، والمكانة التى شغلها أفكاره عند خلفائه.

ولهذه النظرة الشاملة العريضة أهميتها دون شك، لأن أهمية نوسوسير لا تكمن مباشرة فيما أسهم به فى علم اللغة بذاته، وإنما تكمن فى الواقع فى أنه جعل لهذا العلم (الذى قد يبدو من نواح أخرى بمثابة فرع من المعرفة المتخصصة المبهمة) حضوراً عقلياً رئيسياً، وجعل منه نموذجاً لكل فروع المعارف الأخرى للعلوم الإنسانية. بتعبير آخر ينحصر المطلب الضمنى من هذا الفصل فى تمحيص الأسلوب الذى استجاب نوسوسير به لوضع علم اللغة فى أيامه، والكشف عن الرؤى الأساسية التى قدمها فيما يتعلق بدراسة السلوك الإنسانى والموضوعات الاجتماعية الأخرى.

١ - علم اللغة السابق على نوسوسير:

يبدأ «محاضرات فى علم اللغة العام» برواية مكثفة لملاحظات نوسوسير الخاصة بتاريخ علم اللغة، متجاهلاً دراسة اللغة قبيل عام ١٨٠٠، يميز نوسوسير بين مرحلتين من البحث اللغوى: المرحلة الأولى هى مرحلة الفيلولوجيا المقارنة Comparative Philology أو القواعد المقارنة التى يؤرخ لها ابتداء من بحث فرانز بوب F. Bopp الذى نشر عام ١٨١٦ (والذى قارن فيه النسق الصرفى للسanskrit مع الأنساق الصرفية لعدد من اللغات)، والمرحلة الثانية تبدأ بالتحديد فى عام ١٨٧٠، وهى المرحلة التى أصبحت فيها الفيلولوجيا المقارنة فيلولوجيا تاريخية Historical Philology بالمعنى الضيق للكلمة التى بدأ فيها بعض علماء اللغة فى طرح الأسئلة ذات الصلة الوثيقة بطبيعة اللغة والمنهج اللغوى على حد سواء.

فى الواقع لم يكن عند نوسوسير إلا القليل ليقوله حول علم اللغة قبيل عام ١٨٠٠، وربما يرجع ذلك إلى عدم اهتمامه بالمشكلات العامة فى التاريخ الفكرى لهذا العلم قدر اهتمامه بمنهج التحليل اللغوى وتعريف الحقائق اللغوية. ولكن إذا كنا نضع

نصب أعيننا المغزى الأشمل لنظرية اللغة عند بوسوسير ذاتها، فلا بد أن نأخذ بعين الاعتبار الأسباب التي دعت «هو» ذاته للتمرد على علم اللغة في القرن التاسع عشر، بما يقتضيه ذلك من وصف جدلي لبعض المبادئ الضمنية أو لبعض الدلالات التي تضمنتها دراسة اللغة قبيل القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أن معالجتنا ستكون حتماً معالجة تمهيدية وانتقائية وتجريدية إلا أنها تعد بالضرورة خطوة أساسية في أية محاولة لفهم ما أعاد بوسوسير اكتشافه في الفكر اللغوي السابق عليه أو ما احتفظ به منه.

من المفترض في الشخص الذي يختار أن يكرس نفسه لدراسة اللغة أنه تعهد شيئاً جديراً بالاهتمام، ومع ذلك من المحتمل أن لا يكون له وجهة نظر واضحة حول الهدف من دراسة اللغة، في هذه الحالة من الطبيعي أن تشكل الادعاءات التي قامت عليها أبحاث معاصرين وجهة نظره أو قاعدة ضبط أبحاثه اللغوية. وعلى هذا الأساس سوف تختلف قاعدة ضبط علم اللغة في العصر الذي يفترض أن هذا العلم سوف يتغلغل في الصفات المميزة للأمة أو السلالة عن قاعدة ضبط العلم ذاته في العصر الذي يفترض أن هذا العلم سوف يلقي الضوء على طبيعة التفكير الإنساني أو طبيعة العقل ذاته.

لقد قامت دراسة اللغة في القرنين السابع عشر والثامن عشر على هذا الافتراض الأخير، بل وشجعت، فقد كانت دراسة اللغة وسيلة لفهم التفكير الإنساني ذاته. ولقد اتخذت دراسة اللغة في هذا السبيل شكلين مختلفين وفقاً لنمط السؤال المطروح حول التفكير، المدخل الأول هو مدخل القرن السابع عشر وكان يمثل أفضل تمثيل لقواعد بور رويال Port Royal Grammar ، وهو المدخل الذي اتخذ من اللغة نموذجاً للتفكير وعدها إحدى الصور المجسدة له، وقد حاول العلماء من خلال دراسة اللغة اكتشاف منطق عالمي أو كوني، أي اكتشاف قوانين العقل، ولقد انحصر المشروع الرئيسي لهؤلاء العلماء في تقديم تفسير عقلائي لأقسام الكلام، وفي تقديم التصنيفات أو المقولات النحوية. وهكذا روى لنا - على سبيل المثال - أن «الفعل verb» هو في الأساس أحد تمثيلات حالة الإثبات، ومن ثم فالفعل العالمي الحقيقي هو فعل to be، وأن اللغات أضافت إلى أفعالها الوظيفية اللفظية الحقيقية لحالة الإثبات، أو لحالة التوكيد من ناحية، والوظيفة اللفظية لتعيين أي «نعت» من ناحية أخرى. ولذلك حُلّت Peter lives في «القواعد المنطقية» بوصفها Peter is living، على اعتبار أن الفعل الحقيقي is يعزو living لـ Peter.

كانت تلك النوعية من القواعد «قواعد لازمانية» أو قواعد تزامنية تماماً، وقد لاحظ بوسوسير ذلك بنفسه وتساعل مستفسراً بطريقة تحقيرية: كيف درس هؤلاء اللغة

قبل الانتهاء من تأسيس علم اللغة؟ إنه على الرغم من عدم وجود أى عيب فى وجهة نظر نهاية القرن السابع عشر (فقد كان لديهم موضوع تحدد بشكل جيد، وكانوا يعرفون ما يقومون به، ولم يخلطوا أبداً بين الدراسات التزامنية والتعاقبية) إلا أن ممارستهم كانت معيبة من نواح أخرى كثيرة^(١). وقد كان غياب البعد الزمنى بالتحديد هو الذى أزعج خلفاءهم فى القرن الثامن عشر الذين ذهبوا إلى أنه إذا كانت لدى المرء رغبة حقيقية فى فهم التفكير فليس كافياً أن يستنتج القواعد المنطقية فقط، وإنما يجب عليه أن يناقش كيفية تشكيل الأفكار وتطورها، فقد كان هذا الاقتراح بمثابة أحد الاقتراحات الحاسمة عند أتباع جون لوك J. Locke على وجه الخصوص، كى نفهم العقل الإنسانى يجب أن يعرف المرء كيف تطورت الأفكار عن الأحاسيس، وهى مشكلة تناولها بالتحديد عالم اللغة الفرنسى كوندياك E. B. de Condillac وجعل منها عنواناً لبحثه: «مقال حول أصل المعرفة الإنسانية». فى هذا البحث يبدأ كوندياك فى إثبات أن الأفكار تشتق من الإحساس، وأن آلية الاشتقاق هى أى ارتباط بين الأفكار قد نتج عن استخدام العلامات، وليس لتفاصيل مناقشة كوندياك لهذه المشكلة أهمية هنا وإنما المهم هو الوجهة التى قادته هذه المناقشة إليها. فهو فى محاولته إظهار أن الفكر أصلاً طبيعياً وأن كينونة الانعكاس والتصورات المجردة هى شئ يمكن تفسيره تجاوز الادعاء القائل بأن اللغة تمثل إحدى الصور المجسدة للفكر (وهو موقف القرن السابع عشر)، ليثبت أن الأفكار المجردة تمثل إحدى النتائج المترتبة على العملية التى تبتكر بها العلامات وقد كان على كوندياك أن يثبت ما إذا كانت هناك عملية طبيعية يمكن بواسطتها أن تنشأ اللغة (القائمة على العلامات العرفية أو الاصطلاحية) عن إحدى الخبرات البدائية أو غير الانعكاسية، ومن ثم فقد كان عليه أن يحصر نفسه فى أصل اللغة.

ومن خلال كوندياك وأتباعه أصبحت قضية أصل اللغة إحدى القضايا الرئيسية فى تفكير علماء القرن الثامن عشر، ومع ذلك لم تبحث هذه القضية بوصفها قضية تاريخية وإنما بحثت بوصفها إحدى القضايا الفلسفية، فقد انشغل العلماء بأصل اللغة بغاية إلقاء الضوء على طبيعتها ومن ثم إلقاء الضوء على طبيعة الفكر، أى بتفسير أصل الشئ يكون المرء قد فسر طبيعته، وهكذا انتهى تفكير القرن الثامن عشر فى اللغة إلى التركيز بشكل خاص على ما يمكننا أن نطلق عليه علم التأصيل الفلسفى أو

(١) Course, p. 82; Cours, p. 118

الإيتيمولوجيا الفلسفية **Philosophic Etymology**، أى محاولة تفسير العلامات والأفكار المجردة بتصور أن لها أصولاً فى الإيماءة والفعل والإحساس، ولذلك اقترح كوندياك - على سبيل المثال - أن حروف الجر لم تكن فى الأصل سوى أسماء للإيماءات التى تعين الاتجاهات، وربما تعود مثل تلك الفرضيات إلى الإسهاب الثابت الذى ظهر فى اقتراح لوك: «يمكن أن تبين دراسة أصول الكلمات المفهومات التى أوصت بها الطبيعة ذاتها للبشر»، وهو الاقتراح الذى اتخذ منه تورجت **Turget** موضوعاً لإحدى الدراسات الإيتيمولوجية التى قدمها للموسوعة الفرنسية فى ذلك الحين.

لقد أدت الرغبة فى دراسة آلية العقل داخل اللغة إلى البحث عن المصادر أو الجنور البدائية: أى العناصر الأساسية التى تكمن - بمعنى ما - فى صميم كل العلامات التى تطورت منذ ذلك الحين عنها. فأى مصدر أو أى جذر هو بمثابة اسم أولى أو بدائى أى بمثابة تمثيل أساسى، أما التطورات التالية فيمكن التسليم بها بوصفها امتدادات مجازية أو زيادات (إن لم تكن تحريفات) للعلامات الأساسية. وربما كانت الاستنتاجات الموجودة فى كتاب توك **H. Tooke** المعنون **The Diversions of Purely** من أكثر الأمثلة المضحكة لنمط التفكير الذى كان شائعاً فى إنجلترا وفرنسا فى القرن الثامن عشر. وإليك معالجة توك للجذر **bar**: «جذر **bar** فى كل استخداماته هو الحصن، الذى يتحصن به الشئ أو يقوى به نفسه أو يدافع به عنها، و **barn** هى أحد المخازن المغطاة التى تستخدم لحفظ الحبوب من الطقس والنهب، و **baron** هى أى رجل مسلح أو مدافع عن نفسه أو يتميز بالقوة، **barge** هى أحد القوارب القوية، و **bargain** هو أحد العقود القوية المؤكدة، و **bark** هى إناء متين و **the bark of a tree** هو حمايتها...».

وقد يكون هذا المثال مثلاً متطرفاً إلا أنه يوضح العديد من المسائل المهمة: أولاً: لقد تمت دراسة اللغة فى القرن الثامن عشر فى ضوء نظريات التمثيل. حيث أصبحت الكلمات بمثابة العلامات التى تصور المقولات الأساسية للخبرة بقدر ما يكون لتلك العلامات التى صُنفت انسجماً مع تلك المقولات من أهمية. فوحدة التمثيل أو المعنى هى المستفيد من ورود هذه الكلمات معاً.

ثانياً: لإلقاء الضوء على التفكير حاول الباحثون اقتراح العلامات: فلم تكن كلمة **baron** على سبيل المثال تركيباً عشوائياً بين أحد المتتاليات الفونولوجية وأحد المعانى، وإنما تم اقتراح هذه الكلمة بفعل اشتقاقها المفترض من أحد المصادر أو الجنور

البدائية، الذي يعد بذاته الأساس الطبيعي لكل العلامات التي لها صلة وثيقة به. وبمعنى عام فقد زعم المشروع الإتمولوجي أن كلمات لغتنا ليست علامات عشوائية، لأن لها أساساً عقلياً، وأنها تتماثل مع إحدى العلامات البدائية.

ثالثاً: لقد تم الاستشهاد بالزمن وهو أمر كان شائعاً في القرن الثامن عشر، إلا أنه لم يكن بتفاصيل اهتمامات أى مشروع تاريخي وإنما كان خيلاً أدبياً تفسيرياً *an explanatory Fiction*. وقد فتحت تلك الخطوة الطريق أمام الدراسة التاريخية الصحيحة للتطور اللغوي، التي كانت في الوقت نفسه بمثابة ضربة قوية في صميم المشروع الفلسفي (نتيجة قضائها على الإتمولوجيات الفلسفية)، ومع ذلك فقد جعل دارسو اللغة في القرن الثامن عشر من أنفسهم باستشهادهم بالتاريخ - وإن كان خيلاً أدبياً - موضعاً للانتقاد.

أخيراً: فقد تم تصور العلاقة بين اللغة والعقل بشكل مفتت حين تم تناولهما (اللغة والعقل) على نحو مستقل، ومع أن العلامات تمثل إلى حد ما طبيعة العقل والعمليات الذهنية إلا أن الربط بين اللغة والعقل لم يتم من خلال الأبنية المنطقية للقواعد الفلسفية (كما كان الوضع سائداً في القرن السابع عشر) وإنما تم الربط بينهما من خلال المفاهيم أو الأفكار الطبيعية التي تم تمثيلها بجنور أو مصادر مستقلة. ولقد رفض علم اللغة في القرن التاسع عشر هذه الاهتمامات أو الإجراءات الأربعة، كما يثبت هانز أرسليف H. Aarsleff:

«هناك اتفاق عام على أن التحول الحاسم في دراسة اللغة لم يظهر إلى حيز الوجود إلا عندما تم التخلي عن منهج القرن الثامن عشر الفلسفي السابق في صالح منهج القرن التاسع عشر التاريخي اللاحق. بدأ المنهج الأول بالمقولات الافتراضية الذهنية، والتمس مثلها في اللغة وفي القواعد العالمية، وأقام الإتمولوجيات على «ظنون» أصل اللغة. أما المنهج الأخير فقد التمس الحقائق والإثبات والتفسير، وفصل دراسة اللغة عن دراسة العقل»^(٢).

(٢) Aarsleff, Hans (1967); The Study of English in England : 1780 - 1860; Princeton, p. 127.

ويحتوي هذا الكتاب على إحدى المناقشات الممتازة لتاريخ علم اللغة من منظور أعرض بكثير عما يشير إليه العنوان.

ويرفض الارتباط بين اللغة والعقل فقد القرن التاسع عشر الاهتمام بـ «الكلمة» بوصفها علامة أو بوصفها تمثيلاً، وأصبحت «الكلمة» بمثابة إحدى الأشكال التي يمكن مقارنتها مع الأشكال الأخرى لإقامة العلاقات بين اللغات، أو أصبحت «الكلمة» من ناحية أخرى شكلاً يجب اقتفاء أثر تطوره التاريخي، وهكذا تم التخلي عن التاريخ الخيالي أو الأدبي الذي ميز الإيتمولوجيات الفلسفية لصالح أحد التواريخ الوضعية بالمعنى الدقيق للكلمة، وتوقفت محاولة استخدام التاريخ في اقتراح العلامات، وباختصار لم يعد موضوع الدراسة في علم لغة القرن التاسع عشر «العلامة» بوصفها تمثيلاً يجب اكتشاف أسسه العقلانية، وإنما أصبح «الشكل» الذي يجب تفسير تشابهه مع الأشكال الأخرى وإثبات حلقات الوصل التاريخية بينهما.

إنه على الرغم من رؤية علماء اللغة لتطور اهتمامات القرن التاسع عشر ونظرتهم إليها على أنها تمثل انتصاراً عظيماً فقد افتقد مثل هذا التحول في الاهتمامات شيئاً مهماً، ومن ثم فعندما وصل نوسوسير إلى نقطة الخلاف مع أسلافه المعاصرين عاد إلى اهتمامات القرن الثامن عشر، وإن كان على مستوى مختلف من الدراية والثقافة وفي اتجاه مختلف. لقد عاد نوسوسير إلى مشكلة العلامة، وفكر في اللغة من جديد بوصفها نظاماً للتمثيل، فقد أدرك نوسوسير أنه إذا لم يعالج المرء الأشكال اللغوية بوصفها علامات، فلن يكون بمقدوره تحديدها. إلا أنه وبوضعه مشكلة العلامة في سياق بحثه المنهجي العلمي قد تجنب النزعة الذرية atomism التي ميزت أسلافه في القرن الثامن عشر: «لا تتشكل العلامة سوى بعلاقاتها بالعلامات الأخرى»، وهكذا تخلى نوسوسير عن مشروع دراسة العلامات المستقلة بوصفها تمثيلات، وأعاد علاوة على ذلك - على الأقل ضمناً - تأسيس العلاقة بين دراسة اللغة ودراسة العقل وإن كانت - مرة أخرى - على مستوى آخر وفي سياق منهجي مختلف. فما تستطيع أن تكشفه لنا دراسة اللغة عن العقل لم يكن يكمن - في رأي نوسوسير - في قائمة التصورات أو الأفكار الطبيعية، وإنما كان يكمن في العمليات البنائية والتمييزية التي أعدت الأشياء بواسطة للتعبير عن المعنى. وحين يؤكد نوسوسير على أن المعنى معنى تمييزي أو تخالفي، وعلى أنه لا يقوم على الخواص التكوينية للحدود ذاتها وإنما يقوم على الاختلافات القائمة بينها، فإن تأكيد هذا لا يتعلق باللغة فحسب، وإنما يتعلق بالعملية الإنسانية العامة التي يبتكر بها العقل الإنساني المعنى بالتمييز.

بإمكان المرء أن يقول - بإيجاز شديد - أن علم اللغة في القرن الثامن عشر كان مثلاً فجاً للواقعية في غير محلها؛ فقد عُقدت الصلة بين اللغة والفكر بطريقة مباشرة جداً وعينية جداً، وذلك من خلال علامات منفردة كان يُفترض استقلالها

الذاتى. ولكى نعود إلى هذه المشكلة بمنظور مختلف، ولكى ندرك أن الآليات العامة للغة بوصفها نسقاً سيميائياً semiotic هي التى توضح خصائص العقل، يجب علينا قطع الصلة بين اللغة والعقل لبعض الوقت، والاهتمام بدراسة اللغة بوصفها نسقاً من الأشكال ليس له أية علاقة خاصة بالعقل. وقد كان هذا هو الدور الذى قام به علم اللغة فى القرن التاسع عشر الذى يمكننا أن نتحول إليه الآن.

* * *

يشير نوسوسير فى معرض مناقشته لتطور «القواعد المقارنة» أو الفيلولوجيا المقارنة فى القرن التاسع عشر إلى أنه ربما لم يكن لتلك القواعد وجود (بهذه السرعة على أقل تقدير) إن لم تكن أوروبا قد اكتشفت اللغة السنسكريتية sanskrit. فقد لفت الحكم الإنجليزى فى الهند واهتمام المبشرين الإنجليز باللغات الهندية انتباه علماء اللغة الأوروبيين إلى الصلات المثيرة القائمة بين اللغة السنسكريتية واللغات الأوروبية المبكرة كاليونانية واللاتينية، فقد بدت الصلات بين هذه اللغات (سواء فى الجذور اللفظية، أو فى الأشكال النحوية) لعلماء اللغة فى نهاية القرن الثامن عشر أكبر بكثير من أن تكون مجرد صلات عرضية، وقد أدى ذلك بهم للتسليم بوجود مصدر مشترك لهذه اللغات الثلاث.

لم يكن تشجيع السنسكريتية لعقد المقارنة بين اللغات يعود - فى رأى نوسوسير - إلى الصلات المنعقدة بينها واللغات الهندية الأوربية الأخرى فحسب، وإنما لأنها ساعدت على توضيح العلاقات القائمة بين تلك اللغات ذاتها. ولنتأمل تصريفات الأسماء التالية:

Latin	:	genus	generis	genere	genera	generum
Greek	:	génos	géneos	génei	génei	géneon
Sanskrit:		‘gana	‘ganasa	‘ganasi	‘ganassu	‘ganasam

لو عقدت المقارنة بن اللغتين اللاتينية واليونانية وحدهما، فلن تكون هناك - كما يتضح - الصلة المباشرة القوية بينهما، ولكن عندما أضيفت السنسكريتية ساعدت تلك الإضافة على اقتراح جوهر العلاقة القائمة بينهما، متى كان الصامت /s/ بين

صائتين فى السنسكريتية، كان الصامت /r/ بين صائتين فى اللاتينية، ولم يكن أى صامت منهما بين صائتين فى اليونانية. وبطبيعة الحال لا يزال هناك اختلافات أخرى يمكن تمييزها بين الصوائت، على أن المقارنة بين هذه الأشكال النحوية (النهايات التصريفية للأسماء) يقترح بالتأكيد الصلات القوية بينهما.

أمام هذه المعطيات الجديدة فرضت «المقارنة» على علم اللغة، ولكنها لم تكن مقارنة الأشكال المستقلة التى أثارت على هذا النحو اهتمام علماء لغة القرن الثامن عشر؛ فلم يكن الهدف من المقارنة اكتشاف أحد المعانى البدائية أو التمثيل الذى يقدمه جذر مثل bar فى كل مظهره، وإنما العثور على أنماط القرابة بين اللغات. على هذا النحو انصب الاهتمام على الأنساق التصريفية، وبالتحديد على تلك العناصر التى انتزعها الإيتمولوجيون الفلاسفيون للتوصل إلى المصابر أو الجنور، أو التى عالجوها فى مواضع أخرى، ولذلك أقر فرديريش فون شليجل F. Von Schlegel فى كتابه الذى نشر فى عام ١٨٠٨ بعنوان: «حول لغة الهنود وحكمتهم On the Language and Wisdom of the Indians» وجود الأصول المشتركة، وأثبت فيه أن المسألة الحاسمة التى سوف توضح كل شئ فى هذا الموضوع هى البناء الداخلى للغات أو سوف تقدم القواعد المقارنة التى ستقدم لنا معلومات جديدة تماماً حول سلسلة نسب genealogy اللغة بالمنوال نفسه الذى ألقى به التشريح المقارن الضوء على التاريخ الطبيعى.

لقد كان من المحتم - كما سبق أن اقترحت - قطع الصلة بين دراسة اللغة ودراسة العقل بغاية التوصل إلى تحقيق فهم أفضل للغة بوصفها نسقاً، ولذلك فقد كان التحول فى الاهتمام (من الاهتمام بالأصول إلى الاهتمام بالأنماط الصرفية التى كانت من أكثر البنود صعوبة على الإيتمولوجيات الفلسفية) بمثابة تغير مهم فى النظرة العامة للغة؛ حيث لم تعد اللغة ببساطة «تمثيلاً»، أى لم تعد سلسلة من الأشكال الموضوعية وفقاً للعقلية التى تمثلها بحيث يمكن أن ينتقل المرء عن طريقها لفهم الفكر وعمليات العقل ذاته، وإنما أصبحت نسقاً من الأشكال المحكومة بقانونها الخاص، أو المتميز بنمطه الشكلى المستقل. لقد كانت فكرة مقارنة اللغات إحدى الخطوات الرئيسية فى اتجاه تصور اللغة بوصفها أحد الأنساق الشكلية أو المستقلة ومقارنة اللغات فى ضوء الأنماط الشكلية للعناصر النحوية التى ارتبطت الكلمات من خلالها معاً وتمايزت، وليس فى ضوء الجنور التى تستخدمها للتعبير عن التصورات الأساسية للخبرة أو مقولاتها المختلفة.

وبالفعل أصبحت اللغة تترك الآن - وكما اقترح «شليجل» فى الجملة التى سبق اقتباسها - بوصفها موضوعاً للعلم، موضوعاً يمكن تشريحه أو تحليله مثل أى نبات أو

حيوان. ولم يعد هناك أى مجال لدراستها بوصفها شكلاً للفكر ذاته أو بوصفها أحد تمثيلات علاقة العقل مع العالم: «ابتداءً من القرن التاسع عشر بدأت اللغة فى الالتفاف حول نفسها، لتحقيق كثافتها الخاصة، ولتشكل تاريخها وموضوعيتها وقوانينها الخاصة. فقد أصبحت اللغة ذاتها موضوعاً للمعرفة بين موضوعات المعارف الأخرى، وعلى مستوى يماثل مستوى دراسة الكائنات الحية، الثروة، القيمة، تاريخ الأحداث والبشر أنفسهم، ولم يعد فهم طبيعة اللغة أو تفاصيلها له صلة وثيقة بالمعرفة ذاتها، وإنما أصبح له صلة وثيقة بتطبيق مناهج الفهم عموماً على مجال خاص من الحقيقة» (٢).

فالمنهج المتبع كان منهج المقارنة، والهدف المنشود كان إثبات الصلات التى تدل على وحدة الأصل، والمبدأ المنهجي الأساسى المتبع كان البحث عن التشابهات بين الأنساق الصرفية بوصفها محكاً للعلاقة اللغوية أو معياراً لها. ومع ذلك فقد كان للدراسة المقارنة نتائج قاطعة. فقد أدت تلك الدراسة إلى صياغة ما عرف باسم «قوانين الصوت Sound Laws»: وهى القواعد العامة أو جداول التطابق التى أقرت التشابه بين مجموعة محددة من الأصوات فى لغة بعينها ومجموعة أخرى من الأصوات فى لغة أخرى. وقد كان قانون جريم *Grimm's Law* الذى يسمى باسم ياكوب جريم *Jacob Grimm* أحد النحاة المقارنين الأوائل (بوب *Bopp* وشليجل *F. Von Schlegel* وراسموس راسك *R. Rask*) من أكثر هذه القوانين شهرة، وهو يمثل فى الحقيقة سلسلة مكونة من تسعة متطابقات: حين نجد فى اللغات الجرمانية */t/* نجد فى اللاتينية واليونانية والسكسكريتية */d/*، وحين نجد فى اللغات الجرمانية */f/*، نجد فى هذه اللغات الثلاث */p/* (تتضح تلك المتطابقات فى الكلمات التى تشير فى تلك اللغات إلى 'foot' فالكلمة الجرمانية المبكرة *fotus* هى المقابل للكلمة اليونانية *podos*، والكلمة اللاتينية *pedes*، والكلمة السكسكريتية *padas*)، وحين نجد فى اللغات الجرمانية */d/*، نجد فى اللاتينية */f/*، وفى اليونانية */ph/*، وفى السكسكريتية */bh/* وهكذا فيما يتعلق بالسته متطابقات الباقيات من هذا القانون.

ويقرر نوسوسير أن عدم نجاح هؤلاء النحاة المقارنين فى تأسيس علم لغة حقيقى يعود إلى عدم محاولتهم تحديد طبيعة الموضوع الذى كانوا يدرسونه، وإلى عدم تساؤلهم عن مغزى العلاقات التى قاموا باكتشافها (٤). فقد كان منهجهم منهجاً

(٢) Foucault, M. (1970): The Order of Things, London, p. 296.

(٤) Course, p. 3; Cours, p. 16.

مقارناً شاملاً ولم يكن منهجاً تاريخياً، وقد تحدثوا وكأن هناك نمطاً عالمياً مجرداً ومتوالية من الشقوق على كل لغة أن تملأها بعناصرها. ولذلك خلطوا بين المنظورين التزامنى والتعاقبى. لقد كانت التوازيات التى تم اكتشافها بين اللغات تشير فى الواقع إلى إحدى الصلات التاريخية، هذا مع أن المهمة التعاقبية بالتحديد هى إعادة التركيب التفصيلى للخطوات التى أصبحت بها عناصر اللغة الهندية الأوربية الأصلية عناصر فى اللغات السنسكريتية أو اليونانية أو اللاتينية... إلخ. والمهمة التزامنية - على الجانب الآخر - بالتحديد هى إظهار الكيفية التى انتظمت العناصر التاريخية العرضية (فى مرحلة معينة من تطور اللغة) فى أحد الأنساق الخاصة بهذه اللغة. ويمكن مشاهدة الخلط بين هاتين المهمتين عند «جريم» الذى لم يكن على أى حال أحد علماء اللغة التاريخيين المعترف بهم. فقد فشل جريم - كما يذهب بوسوسير - فى التمييز بين التغيرات التعاقبية وبين الوظائف التزامنية التى يمنحها النسق اللغوى للعناصر الجديدة. وكما رأينا فى الفصل السابق^(٥) فقد كان تغير الصائت (كما يظهر فى foot: goose : geese أو tooth : teeth) ناتجاً عن أحد التغيرات الفوناتيكية الخاصة التى لم يكن لها أية صلة بالقواعد، ومع ذلك فقد كان «جريم» يرى أن تغير الصائت الموجود فى foot إلى الصائت الموجود فى feet له معنى فى ذاته، حيث تم هذا التحول من أجل تمثيل صيغة الجمع^(٦). لقد بدا الأمر كما لو كان هناك إحدى الوظائف التى يجب شغلها، وأن اللغة أنشأت أحد الأقسام أو الأجزاء الجديدة ونمته كى يقوم بشغلها. لقد عد بوسوسير هذا النوع من الاقناع السطحى أشبه ما يكون بالتفكير الصوفى الأكثر مكرراً ودهاءاً.

وبطبيعة الحال لقد كان لمثل هذا النوع من التفكير مبرراته: نموذج الكائن الحى المهيّب الذى كان يتطلع إليه علماء اللغة، أو تلك الكينونة المكتفية بذاتها التى نمت وفقاً لقوانين عامة وتطورت بناء عليها. فقد ربط شليجل - فى الفقرة التى سبق اقتباسها - بين القواعد المقارنة والتشريح المقارن - وهو «مجاز» لم يكن شائعاً فى الكتابات اللغوية فى ذلك الحين، فلقد وجه التشريح المقارن (الذى ترأس التحول الذى أصبح التاريخ الطبيعى عن طريقه علم الحياة) البحث نحو البناء العضوى الداخلى للكائنات الحية، ومن ثم أمكن ربط النباتات أو الحيوانات معاً فى ضوء السبل المختلفة

(٥) انظر الفصل السابق ص ٦٧.

(٦) Engler, p. 15

التي تسلكها في إشباع الوظائف الأساسية (مثل التنفس والتناسل والهضم والحركة أو الانتقال من مكان لآخر) وبالتالي فقد أدت هذه العلاقات إلى ظهور تصنيفات تاريخية، وهي المشروعات التطورية التي أستخدم تصور التاريخ فيها لتبويب الاختلافات القائمة في النسق العضوي للأنواع الحية كما كشفت عنها المقارنة وتفسيرها.

في بداية القرن التاسع عشر كان الأساس المشترك بين علم اللغة والبيولوجيا كالاتي: إن كليهما انشغل بالانفصال عن فكرة النوام التاريخي الخيالي *fictional* التي أنعشت البحث طوال القرن الثامن عشر؛ فقد كانت الطريقة الوحيدة السائدة لتقديم تاريخ معترف به هي التخاصم مع التاريخ ذاته في المحل الأول، ثم معالجة اللغات المنفردة أو الأنواع الحية بوصفها كينونات مستقلة يمكن وصفها ومقارنتها فيما بينها بوصفها وحدات كلية. ومن ثم - وبافتراض تلك الكائنات الحية المنفردة - يصبح في الإمكان إعادة اكتشاف التاريخ وإن يكن على مستوى جديد. وبمجرد الانتهاء من تحليل الكيان الحي كما لو كان كائناً حياً قادراً على إيجاد الأساليب الخاصة بإشباع الوظائف الأساسية، يتم إخضاعه للتحليل في ضوء الشروط التي مكنته من امتلاك تاريخ. وهذا يعني أن تاريخ الكائن الحي أو تاريخ الأنواع الحية قد أصبح بمثابة سرد لقصة الأسلوب الذي تم إشباع الوظائف الأساسية به. أو سرد لقصة التغيرات التي صادفها الكائن الحي أثناء تأقلمه مع البيئة للحفاظ على وجوده، فقد أصبحت الوظائف الأولية بمثابة الأساس في أية سلسلة تاريخية. وهكذا فقد أتاح بحث التشرريح المقارن «لا التاريخي» إمكانية ظهور نظرية داروين Ch. Darwin في التطور.

وفي حالة اللغة فقد تخاصم المنهج المقارن بالطريقة نفسها مع الايتمولوجيا الفلسفية بغاية دراسة اللغات بوصفها أنساقاً طبيعية يمكن المقارنة بينها، حيث توضح المقارنة مختلف السبل التي تؤدي اللغات بها وظائفها المتشابهة (مثال: الأنساق الصرفية المختلفة للأسماء) وقد اقتضت تلك التناظرات الوظيفية تفسيراً تاريخياً من أجل شرح أية شجرة تطورية أو توضيحها، ومع ذلك فالظاهر أن علم اللغة قد استعان بالنظرية التطورية اللاماركية Lamarkian بوصفها نموذجاً للتفسير ولم يستعن في هذا الشأن بالنظرية الداروينية Darwinian، مما أدى إلى فهم اللغات كما لو كانت قد نشأت عن قصد تلبية لوجهة غرضية، وكما لو كانت قد تكيفت عن عمد للتغيرات. ومن ثم شاع الخلط بين الحقائق التزامنية (الاستخدام الذي وضعه النسق النحوي للأشكال المتغيرة) والحقائق التاريخية (التغيرات الصوتية ذاتها).

إلا أن إقرار المقارنة بهذا المنوال - تحت تأثير البيولوجيا السيئ - لم يكن جائزاً في البيولوجيا ذاتها. لأن داروين نفسه أثبت بشكل صريح المبدأ الذي عده بوسوسير المبدأ الجوهرى فى الفهم السائد لعلم اللغة. فقد أقر داروين أن أية قصدية فى التصور البيولوجى لا تكمن فى التغيرات البيولوجية ذاتها، بقدر ما تكمن فى عملية الانتخاب الطبيعى (وهى عملية تزامنية بمعنى ما) فالأنواع الحية الجديدة تتطور بفعل التغيرات الإحيائية العشوائية أو العرضية التى لا تتميز بذاتها بأى اتجاه محدد أو أى غرض، ومع ذلك تصبح حالة بعض المواليد الجديدة أفضل من حالة بعضها الآخر فى النسق الايكولوجى فى لحظة معينة، فتبقى المواليد المخففة وتقوم المواليد الفائزة داخل النسق، وهكذا يحدث أحد التغيرات فى النوع الحى. ولكن التغيرات الإحيائية - مثلها فى ذلك مثل التغيرات الصوتية - لا تقع بغاية in order إيجاد أنواع حية أفضل تكيفاً مع البيئة، لأن التغير فى النوع الحى ما هو إلا الاستخدام الذى وضعه النسق للتغيرات الإحيائية، أى أنه نتيجة التغير الإحيائى، وليس هدف الحدث الأسمى أو غايته مثله فى ذلك مثل الوقائع التزامنية تماماً.

٢ - النحاة الشبان (النحاة الجدد):

لم يبدأ علماء اللغة فى وضع أساس الدراسة المناسبة للغة - كما كتب بوسوسير - إلا فى عام ١٨٧٠، فقد حدث فى ذلك العام تطوران لغويان مهمان أدى بوسوسير نفسه فيهما دوراً بارزاً. التطور الأول حدث حين أظهر عدد من علماء اللغة (الذين عرفوا باسم النحاة الشبان أو "النحاة الجدد" Neo Grammarians) وكان من ضمنهم أساتذة بوسوسير بجامعة ليبزج) أن القوانين الصوتية (التى كانت تعالج حتى ذلك الحين بوصفها تشابهات ظهرت فى حالات نون أخرى) تعمل بدون استثناء. وكما كتب هرمان أوستوف H. Osthoff وكارل بروجمان K. Brugmann: «بقدر ما يظهر كل تغير صوتى كما لو كان تغيراً آلياً، فإنه يحدث وفقاً لقوانين لا تسمح بأية استثناءات. وهذا يعنى تماثل إتجاه التحول الصوتى بالنسبة لجميع أعضاء أى مجتمع لغوى إلا فى حالة انشطار لغة هذا المجتمع إلى لهجات. فكل الكلمات التى يظهر الصوت المتغير فيها العلاقة ذاتها تتأثر بالتغير نون استثناءات». لقد اقتضى هذا الإيضاح اكتشاف الانتظام الدقيق للتغيرات الصوتية بحيث لو تم استنباط إحداها بطريقة دقيقة ظهرت البيئات الفوناتيكية التى يتغير فيها (على سبيل المثال يتماثل الحرف السنسكريتى t مع الحرف الجرمانى th حين يعقب أحد المقاطع التوكيدية، ويتماثل مع الحرف الجرمانى المبكر d إن لم يعقب أى مقطع توكيدى).

قد يبدو ذلك على أنه أحد الانتصارات التقنية الضئيلة، ومع ذلك فقد كان المبدأ الراسخ - التغير دون استثناء - يمثل في الواقع أحد المبادئ الحاسمة ولأسباب لم يفهمها أحد سوى نوسوسير. فقد كانت الطبيعة المطلقة للتغير الصوتي أحد النتائج المترتبة على الطبيعة العشوائية للعلامة. فلأن العلامة عشوائية لم يكن هناك من سبب يؤدي لعدم انطباق التغير الذي خضع الصوت له على جميع أمثلة أو نماذج هذا الصوت. لأنه لو كانت الأصوات محفزة *movtivated* (بمعنى معبرة بالفطرة مثل *baw* *bow*) لكانت هناك مقارنة، تعتمد على درجة الحافزية والاستثناءات، ولكن عدم وجود الاستثناءات يعود إلى عدم انطباق التغير (بافتراض الطبيعة العشوائية للصوت ومظاهره الفوناتيكية الفعلية) مباشرة على العلامات ذاتها، وإنما انطباقه على الأصوات أو بالأحرى على أحد الأصوات المحددة في أحد البيئات الخاصة، وكما يقول نوسوسير: «إنه أشبه شيء بمثابة شد أحد أوتار البيانو أو ارتخائه. ولذلك فحين نقوم بعزف أحد الألحان سنجد كما ما من النغمات المزيفة، ولكن ذلك ليس مدعاة للقول إن النغمة الموسيقية الأولى في الفصل الموسيقية الثالثة، والنغمة الموسيقية الثانية في الفصل الموسيقية الرابعة، أو النغمة الموسيقية الأولى في الفصل الموسيقية السادسة... وهكذا قد تغيرت جميعها. لأن تلك التغيرات جميعها ليست سوى نتاج لأحد التغيرات المحددة التي حدثت في نسق التحقيق. وهكذا فنسق الأصوات هو الآلة التي نوزع عليها كلمات لغاتنا، ولو حدث وتغير أحد هذه العناصر فسوف يترتب عليه نتائج متشعبة. إلا أن الواقعة في ذاتها لا تتعلق بالكلمات التي لا تعد بذاتها سوى ألحاناً في ذخيرتنا اللغوية» (٧).

أما التطور الثاني المهم الذي حدث بعد عام ١٨٧٠ - كما ذهب نوسوسير - فهو يتعلق بإقحام نتائج الدراسة المقارنة في السياق التاريخي. فقد اهتم علماء اللغة بالتركيب العقلي التفصيلي للسياق التاريخي، على اعتبار أنه السياق الوحيد الذي بمقدوره تفسير نتائج المقارنة (٨). ولقد قدم نوسوسير إسهاماً رئيسياً لعلم اللغة التاريخي بتقريره الذي نشره عام ١٨٧٨ حول «النظام الأساسي للصوائت في اللغات الهندية الأوربية»، وهو يعد على أي حال أحد البحوث التي أظهرت خصوبة تفكيره في اللغة بوصفها نسقاً من الحدود العلاقية المحضة حتى وإن كان قد أهتم بإعادة التركيب التاريخي.

Course, p. 34; Cours, p. 134. (٧)

Engler, p. 7. (٨)

فى هذا البحث اهتم نوسوسير بمشكلة تبديل الصائت فى اللغات الهندية الأوربية، وكان السؤال يتعلق بهوية نسق الصوائت فى اللغة الهندية الأوربية الأصلية. وهو النسق الذى كان عليه أن يأخذ فى الاعتبار أنماط تبديل الصوائت التى عثر عليها فى اللغات التى يعرف أنها اشتقت من اللغة الهندية الأوربية الأصلية. ولقد كان من أكثر مظاهر نسق الصوائت هذا صعوبة الصائت /a/. فقد أثبت كثير من العلماء أشكالاً عديدة للصائت /a/ بهدف تفسير النتائج المتشعبة التى ترتبت عليه فى اللغات الأخرى. ومع ذلك فقد وجد نوسوسير أن حلولهم لم تكن مرضية لأنه اعتقد فى وجود فونيم آخر (بالإضافة إلى شكل الصائت /a/) يمكن تحديده بحدود شكلية، وأن هذا الفونيم لم يرتبط بالصائت /e/ أو بالصائت /o/ (وهما شكلان للصائت /a/)، وإنما يحتل موقعاً يمكنه منه تشكيل أحد المقاطع اللفظية مثل أى صائت آخر، بل يمكنه أيضاً الانضمام إلى أى صائت كائى صامت آخر. ولكن نوسوسير لم يقم بتعريف جوهر هذا الفونيم، فقد اكتفى بأن أطلق عليه «المعامل الصوتى sonont coefficient»، وعالجه بوصفه إحدى الوحدات الشكلية العلاقية المحضة فى نسق الصوائت. ومع ذلك لم تظهر أهمية بحث نوسوسير إلا بعد مرور ما يقرب من خمسة عشر عاماً من نشره، وبالتحديد حين أكتشفت اللغة الحيثية المسمارية Hittite وحلّت شفرتها. وتيقن العلماء من احتوائها على أحد الفونيمات (كتب هكذا h) وقد كان سلوك هذا الفونيم فى تلك اللغة كما تنبأ نوسوسير تماماً. وهكذا اكتشف نوسوسير - وعن طريق أحد التحليلات الشكلية المحضة - ما يعرف الآن باسم حلقىات Laryngeals اللغات الهندية الأوربية (٩).

لقد أثبت نوسوسير بالتأكيد أنه أحد النحاة الشبان أو النحاة الجدد البارعين، وعبر عن إعجابه بإنجازاتهم فى العديد من القضايا وأثنى عليهم لعدم تجاهلهم ظاهرة التناظر الوظيفى المزيف، لأنها كانت تعد فى رأيه إحدى الظواهر المهمة فى التطور اللغوى، أو بمثابة المقابل المعادل للتغير الصوتى. ولنتأمل الكلمة اللاتينية honor: فقد كان الشكل الأصلى لها هو honosem phonos (حالتا الرفع والنصب)، وبفعل أحد التغيرات الصوتية التى أوضحناها من قبل (فى معرض مقارنتنا بين السنسكرتية

(٩) يمكن العثور على التقرير Mémoire وبعض الأبحاث الفنية الأخرى فى:

Recueil des publications scientifiques de F. de Saussure, Geneva, 1922.

واليونانية واللاتينية)^(١٠) أصبح الفونيم /s/ (الواقع بين صائتين) الفونيم /r/، ليقدم honos و honorem ومع ذلك ولعدم وجود تصريفات أخرى للكلمة مثل orator و oratorem، وهى تصريفات كانت مألوفة تماماً تطور شكل جديد قياساً عليها وهو: honor.

كان النحاة الشبان فى الواقع هم أول من اعترف بأهمية هذا الإجراء فى إعادة تركيب اللغات. ومع ذلك فقد أخطأوا - كما يشير نوسوسير - فى فهم حقيقته الفعلية، ولذا فقد خلطوا بين المظاهر التزامنية والتعاقبية^(١١). فقد كان إنتاج أحد الأشكال الجديدة يمثل - من وجهة نظر نوسوسير - أحد المظاهر التزامنية التى يمكن مقارنتها مع الاستثمار الإبداعي للإمكانات التراصفية التى تظهر على سبيل المثال حين تخلق اللغة من Market الشكل Marketeer قياساً على - ولنقل - Profiteer. فعند نوسوسير - ولنكرر - لم يكن هناك اختلاف فى النوع بين التركيبات المورفولوجية والنظمية، ولذلك يمكن مقارنة هذا النوع من التشكيل الجديد مع إنتاج إحدى الجمل الجديدة، وهو لم يكن على أى حال مجرد مثال على التغير الدال فى اللغة وحسب. وما حدث فى الحالة التى درسها أن الشكلىين القديم والجديد honor و honos استمرارا فى التواجد جنباً إلى جنب بوصفهما متغيرين اختياريين. وعندما اختفى الشكل القديم بالفعل لم يعد هذا الاختفاء يمثل أى تغير دال، وإنما عد بمثابة إقصاء لأحد تحققات المتغير. لقد أعطى النحاة الشبان الوزن الأكبر للمنظور التاريخي، ومن ثم فقد أخفقوا فى إدراك الطبيعة المنهجية والنحوية (التزامنية أساساً) للظواهر التى كانوا يدرسونها. على أى حال فقد ارتكب النحاة الشبان معاصروا نوسوسير خطأ جوهرياً لإخفاقهم فى أن يطرحوا على أنفسهم الأسئلة الأساسية الضرورية: الأسئلة المتعلقة بطبيعة اللغة ذاتها، الأسئلة التزامنية والتعاقبية على حد سواء. ولقد كان إخفاق هؤلاء النحاة الشبان فى طرح تلك الأسئلة المهمة يعود فى الحقيقة إلى تخليهم عن فكرة التمثيل بوصفه أساساً لدراستهم، وعدم تفكيرهم فى العلامات، وكما رأينا فقد كان التفكير فى العلامات وطبيعتها - عند نوسوسير - هو الأمر الوحيد الذى يكفل للمرء القيام بالتمييز بين المظاهر الوظيفية فى اللغة والمظاهر غير الوظيفية فيها، والحصول على أحد التصورات العلاقية الملائمة للوحدات اللغوية.

(١٠) انظر ص ٩٢ من الفصل الحالي.

(١١) Course, p. 163; Cours, p. 224.

لم يكن لدى النحاة الشبان أدنى اهتمام بالعلامات، حيث انصب جل اهتمامهم على الأشكال، ولو تساعل المرء عن الشروط التي يمكن أن تصبح الأشكال اللغوية في ضوئها موضوعاً للمعرفة، أي تصبح مادة لأحد العلوم بالمعنى الدقيق فإنه يكون قد وصل إلى قلب موقف النحاة الشبان. فلم يكن تمسك علماء اللغة المقارنين الأوائل من أمثال بوب F. Bopp بالمعنى ومن ثم بالتمثيل يعكس نظرتهم إليهما بوصفهما الموضوع الذي يشغل اهتمام علم اللغة (كما كان الوضع بين الايتمولوجيين الفلاسفيين في القرن الثامن عشر) وإنما كان يعكس في الحقيقة شرط المقارنة لديهم: فقد كان من السائد أن ينظر المرء في الكلمات التي تستخدمها اللغات المختلفة في التعبير عن أحد التصورات المحددة، ثم يستخدم متصلاً من المعنى بوصفه أحد مبررات تجميع الأشكال معاً وتبريراً للمقارنة، ولكن بمجرد أن تساعل علماء اللغة عن مغزى تلك المقارنات اتجهوا إلى بناء علمهم على فكرة المتصل التاريخي. إذا لم تكن تشابهات الشكل تشابهات اتفاقية أو تصادفية فإنها تشير إلى أصل مشترك، ومن ثم تمثلت المهمة الأساسية لديهم في توضيح الأشكال الأصلية، وتتعب تطورها التاريخي الذي يصلها بالأشكال المتأخرة في إحدى السلاسل المتعاقبة المتصلة. وهكذا فقد كان من نتائج إضافة المجازات البيولوجية أن أقصيت أسئلة التمثيل، فلم يكن النبات يشير إلى شيء ما، ولم يكن حاملاً لأي معنى، وإنما هو شكل ينمو وفقاً لقوانين يجب اكتشافها.

في الواقع لقد هجر النحاة الشبان المجازات البيولوجية التي ارتبطت بمنتصف القرن التاسع عشر، إلا أنهم وفي معرض رفضهم لتلك المجازات لغموضها احتفظوا بنتيجتين كانتا قد ترتبتا على تلك المجازات، الأولى: هي إهمال أسئلة التمثيل، والثانية: هي افتراض قيام دراساتهم على المتصل التاريخي، وضرورة تحليل التطور التاريخي. لقد شك بوسوسير في تصورات المتصل التاريخي، ورأى أن دراسة التطور التاريخي للأشكال يمكن أن يؤدي إلى شيء من سوء الفهم، وإلى إهمال أسئلة الوظيفة اللغوية. فقد كان المنظور التعاقبي - في رأيه - يمنع المرء من طرح الأسئلة الوثيقة بالوصف التزامني، ومن ثم عدّ طرح عالم اللغة الأمريكي وليام ويتني W. D. Whitney (الذي كان يعمل داخل تراث النحاة الشبان) لأسئلة العلامة بمثابة أحد التطورات الجوهرية في الدرس اللغوي. لقد ناقش «ويتني» في كتابيه: «اللغة ودراسة اللغة: Language and the study of language» و«حياة اللغة ونموها: Life and growth of language» اللغة بوصفها نظاماً نشأ وفقاً للعرف الاجتماعي، وبوصفها تجسيدا للاستخدامات السائدة في أحد المجتمعات المحددة وبوصفها ثروة من الكلمات والأشكال التي تعد كل كلمة فيها أو كل شكل منها بمثابة علامة عشوائية وعرفية في أن

واحد. لقد «وضع ويتنى بتأكيد على الطبيعة النظامية والعرفية للغة - كما يقول نوسوسير - علم اللغة على محوره الحقيقي»^(١٢). إلا أنه لم يتحقق من النتائج المترتبة على المنظور الجديد ومحتوياته، فقد ظل يؤكد على ضرورة أن يكون علم اللغة علماً تاريخياً: تنحصر مهمته في البحث عن الأسباب التي تجعلنا نتحدث بالطريقة التي نتحدث بها وتفسيرها. ومن ثم فقد بخس قدر علم اللغة التزامنى. مشيراً إلى أن أى فهم مجرد لظواهر أية لغة (كلماتها، أشكالها، قواعد استخدامها) لهو أمر من صميم عمل النحاة وصناع المعاجم. وهكذا أظهر ويتنى عدم وعيه بمشكلات التعريف والهوية، ومشكلات الطبيعة العلاقية للوحدات اللغوية، ولم يظهر أى اهتمام بتلك المبادئ التي أقلقت مضجع نوسوسير.

ومع ذلك فقد كان ويتنى هو الذى دفع نوسوسير للمزيد من التفكير ومهد له السبيل للعودة لمشكلة العلامة، ولأن يفهم أن العلامة وحدها هي التي تجعل من «التمثيل» - وليس من «التاريخ» - أساساً للعلم، فهي التي تمكن المرء من البدء في التمييز بين ما له صلة وما ليس كذلك، أو بين الوظيفي واللاوظيفي. وهكذا عاد نوسوسير إلى فكرة التمثيل وفهمها واستخدامها بأسلوب مختلف تماماً. وهكذا أيضاً لم يعد علم اللغة يقوم على متصل التمثيل (أو أحد المعاني الشائعة لأية سلسلة كلية من الأشكال) كما كان الأمر سائداً بين الايتمولوجيين الفلسفيين، وإنما أصبحت فكرة «اللا متصل» هي أساس فكرة التمثيل. فلم يعد للمعاني وجود إلا بوصفها نتيجة لاختلافاتها فيما بينها، وأصبحت تلك الاختلافات هي الأساس الذي يمكن المرء من تأسيس الروابط بين الأشكال. ولم يعد هناك فرصة لفهم الأشكال ببقائها في متصل تمثيلي أو تاريخي، وإنما أصبحت هذه الأشكال تفهم بوظائفها المختلفة: أى بقدرتها على التمييز وبقدرتها على توليد المعاني المتميزة.

لقد كان لمثل هذا الفهم الذي لا نجد له مثيلاً عند ويتنى أو عند أسلاف نوسوسير دلالة ثورية، حيث يعتمد المعنى على اختلاف المعاني: فلم يعد بمقدور المرء تحديد هوية الأشكال ومبرراتها الوظيفية المحددة إلا عن طريق اختلاف المعاني. ولم تعد الأشكال شيئاً ممنوحاً، وإنما أصبحت هناك ضرورة ما لتأسيسها عن طريق تحليل نسق العلاقات والاختلافات. وهكذا أفسح هذا التصور الجديد - كما سنرى في

(١٢) Course, p. 76; Cours, p. 100.

الفصل القادم – الطريق لدراسة السلوك الإنساني والمسميات الإنسانية، حيث ساعد بوسوسير بإعادته الاهتمام بالتمثيل ويتركيزه على فكرة «اللامتصل» في وضع أسس التفكير الحديث.

٣ – فرويد، دوركايم، والمنهج:

لكي نفهم بشكل واضح حداثة فكر بوسوسير يجب أن نتخلى عن علم اللغة لبعض الوقت، وأن نقرن مؤسس علم اللغة الحديث بمعاصريه المبدعين: سيجموند فرويد S. Freud مؤسس علم النفس الحديث، وإميل نور كايم E. Durkheim مؤسس علم الاجتماع الحديث. فقد أحدث كل من هؤلاء المفكرين الثلاثة ثورة في العلم الذي ينتمي إليه نتيجة لإبداع كل منهم أحد السياقات الاستمولوجية الجديدة لأبحاثه: بمعنى أنهم فهموا موضوعات دراساتهم بأسلوب مختلف عما كان سائداً وقدموا له نموذجاً جديداً من التفسير.

تتخصر المشكلة الأولية في أى علم اجتماعى في طبيعة الحقائق التي يعالجها ووضعها الصحيح، وقد كانت هذه المشكلة إحدى المشكلات الخطيرة التي سادت في أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص. وهو أمر يعود إلى النزعتين المتوارثتين من الإرث الفلسفى للعصر، وهما المثالية الألمانية German Idealism والوضعية التجريبية Empiricist Posivitism اللتين التقيتا في نقطة واحدة، انحصرت في ميلهما كليهما إلى عدم النظر إلى المجتمع بوصفه ظاهرة أولية وإنما بوصفه نتيجة أو ظاهرة ثانوية أو مشتقة، ولذلك ميز الوضعيون في التراث الهيومى (نسبة إلى هيوم) بين الحقيقة الفيزيائية الموضوعية للأشياء والأحداث، وبين أى إدراك ذاتى مستقل لها، ولأن المجتمع لا يكتسب شرعية الحقيقة الفيزيائية الموضوعية فقد عولج المجتمع في هذا التراث بوصفه نتاجاً لأحاسيس الأفراد وأفعالهم. وكما كتب بنتام J. Bentham «ما المجتمع إلا تجسيد وهمى، إنه حصيلة الأعضاء الذين يؤلفونه». وقد كان افتراض المجتمع بوصفه نتاجاً للأفراد الذين يعمل كل منهما وفقاً لمصلحته الشخصية يمثل في الواقع الأساس البديهي للمذهب النفعى Utilitarianism، ولذلك كتب نور كايم ناقداً أسلافه: «لم يجد هؤلاء في المجتمع شيئاً حقيقياً سوى الفرد... فقد كان الفرد عندهم بمثابة الحقيقة الملموسة الوحيدة التي يمكن للمُلاحظ التوصل إليها». أما هيجل Hegel فلم تكن القوانين والطرائق والأعراف والدولة سوى تعبيرات للعقل، ومن ثم فهي تدرس – فى رأيه – بوصفها شواهد أو نتائج وليس بوصفها ظواهر أولية.

وكما هو واضح فقد أدرك نوسوسير وبوركاييم وفرويد إلى أى حد تقلب « وجهة النظر » هذه الأشياء. فلم يكن المجتمع بالنسبة لهؤلاء العلماء نتاجاً للنشاطات الفردية، أو مجرد مظاهر طارئة للعقل، وإنما كان بمثابة الحقيقة الأولية. ولو أراد المرء دراسة السلوك الإنسانى يجب أن يسلم بوجود الحقيقة الاجتماعية. لأن الإنسان لا يعيش ببساطة بين موضوعات وأفعال فحسب، وإنما يعيش فى الواقع بين موضوعات وأفعال مفعمة بالمعانى. ومن ثم لا يستطيع المرء معالجة هذه المعانى كما لو كانت حصيلة من الإدراكات الذاتية، فتلك المعانى تمثل الأثاث المجرد للعالم، ولا يمكن غض البصر طرفة عين عن الدلالة الاجتماعية للأفعال، أو عن معانٍ التعبيرات وأحاسيس الحب، والغضب، والذنب... إلخ؛ لأنها تعد حقائق اجتماعية. كما أثبت نور كايم ذلك وأيده معصراه الاثنان. فقد أقام علمه على الواقع الموضوعى للحقائق الاجتماعية.

باختصار لم تكن هناك إمكانية لوجود علم الاجتماع، أو علم اللغة، أو علم نفس التحليل النفسى إلا بأن يضع المرء نصب عينيه المعانى التى نسبت للموضوعات والأفعال وميزت بينها فى المجتمع بوصفها حقائق أولية، أى بوصفها حقائق يمكن تفسيرها، ولأن المعانى نتاج اجتماعى فإنه يجب تفسيرها بحدود اجتماعية. فالأمر يبدو كما لو أن نوسوسير وفرويد وبوركاييم قد طرحوا الأسئلة التالية: ما الذى يجعل من الخبرة الفردية ممكنة؟ وما الذى يدفع البشر للتأثر بالموضوعات والأفعال المليئة بالمعنى؟ وما الذى يمكنهم من الاتصال والفعل بطريقة ذات معنى؟. وقد كانت الإجابة: إنها النظم الاجتماعية التى قدمت الشروط الأولية للخبرة الإنسانية. فعلى الرغم من أن تلك النظم الاجتماعية قد نشأت عن النشاطات الإنسانية إلا أنه لكى نفهم الخبرة الفردية يجب علينا دراسة المعايير الاجتماعية التى جعلت مثل تلك الخبرة الفردية ممكنة.

ليس من الصعب فهم سبب كون الأمر هكذا، فحين يتقابل شخصان، فهما قد يتصرفان بأسلوب مهذب أو غير مهذب. وتهذيب السلوك أو عدم تهذيبه يعد فى الواقع إحدى الحقائق الاجتماعية والثقافية، ومع ذلك فإن أى وصف موضوعى للأفعال الفيزيائية التى أداها هذان الشخصان لا يعد فى حد ذاته وصفاً لإحدى الظواهر الاجتماعية، وذلك لأن هذا الوصف يهمل معالجة الأعراف الاجتماعية التى جعلت الأفعال المؤداة على ما هى عليه، فلا يكون سلوك هذين الشخصين سلوكاً ذا معنى إلا حين نأخذ فى الاعتبار مجموعة الأعراف الاجتماعية التى جعلت من سلوك بالذات سلوكاً يتصف بالتهذيب ومن سلوك آخر بالذات سلوكاً يتصف بعدم التهذيب، ولما كانت

الأعراف الاجتماعية تخلق السلوك إنن فمن الواجب وصفه بحدودها. وبطريقة مماثلة نقول إن إصدار أى ضوضاء لا يعد بحد ذاته ظاهرة اجتماعية، لأن الذى يعد كذلك هو نطق إحدى الجمل، فالظاهرة الاجتماعية ممكنة فقط بفعل أحد أنساق الأعراف المتبادلة بين الأشخاص، أى بفعل أحد اللغات.

وهكذا عكس نوسوسير وفرويد وبوركاييم المنظور الذى جعل المجتمع نتاجاً للسلوك الفردى، وأصروا جميعاً على أن السلوك الإنسانى ممكن بفعل الأنساق الاجتماعية الجمعية التى تمثلها الأفراد سواء عن وعى أو عن غير وعى، يقول ليونل تريلنج L. Trilling: «إنه فرويد هو الذى وضع لنا إلى أى حد قد انغمرنا كلية فى الثقافة التى نملكها، وإلى أى حد تغمر الثقافة الأجزاء الأقصى من عقل الفرد، لتقدم إمكانية لسلسلة كاملة من الأحاسيس والأفعال حتى إحساس الفرد بذاتيته، وإذا كان هناك إمكانية لتأويل الأفعال والأعراض الفردية عن طريق التحليل النفسى فإن ذلك كذلك لكونها نتاجاً للعمليات العقلية المشتركة، أى نتاجاً للدفاعات غير الشعورية التى دعته المحظورات الاجتماعية وأدت إلى وجود أنماط محددة من الكبت والإحلال». وبالمثل إذا كانت هناك إمكانية لتحقيق الاتصال اللغوى فإن ذلك يعود إلى تمثنا لأحد أنساق المعايير الجمعية التى تنظم العالم وتمنح المعنى للأفعال اللفظية الفردية، أو بالأحرى - وكما ناقش نور كايم - ليست البيئة الفيزيائية هى الحقيقة الحاسمة عند الفرد وإنما هى الوسط الاجتماعى، أى أحد أنساق القواعد والمعايير أو التمثيلات الجمعية التى تجيز السلوك الاجتماعى أو لا تجيزه».

ولهذا الغرض يقتضى المنظور الجديد نمطاً خاصاً من التفسير، لا يمكن تفسير أى فعل سوى بربطه بالنسق الكامن من المعايير الذى يجيز هذا الفعل، أى يفسر الفعل بوصفه شاهداً فى أحد أنساق التمثيلات أو بوصفه أحد مظاهره، سواء عدنا ذلك تفسيراً سببياً يمكن أن يتباين من حالة لأخرى أم لا، ولقد زعم نوركايم فى دراسته السوسيولوجية المشهورة للانتحار أنه يقدم أحد التفسيرات السببية له، مع أنه كان يقوم بتعيين أسباب معدلات الانتحار العالية فى أحد المجتمعات. ولم يكن يفسر أسباب إقدام أفراد معينين بالذات على الانتحار فى إحدى الفترات الزمنية المفترضة. فإقدام الأفراد على الانتحار لم يكن سوى الشواهد الخاصة بضعف الروابط الاجتماعية الناتجة عن أحد الترتيبات الخاصة للمعايير الاجتماعية. أما التحليلات السيكولوجية عند فرويد فلقد تم تقديمها دائماً على أنها تفسيرات سببية، هذا مع أنه لم يكن لها أية قوة تنبؤية (بمعنى أنه لم يزعم فرويد أن إحدى متتاليات الأحداث

المفترضة سوف ينتج عنها بالضرورة أفعال أو أعراض بعينها) وعلى أى حال يمكن اعتبار هذه التفسيرات على أكثر تقدير مجرد محاولة للربط بين الأفعال والتنظيم العقلي الكامن. أما علم اللغة - على الجانب الآخر - فلم يتظاهر بتقديم التحليل السببي، أى لم يحاول تفسير أسباب نطق أحد الأفراد لإحدى المتتاليات الصوتية الخاصة فى إحدى اللحظات المفترضة، وإنما حاول إظهار الأسباب التى جعلت للمتتالية هذا الشكل وهذا المعنى بربطها بنسق اللغة.

فى كل الحالات - وعلى الرغم من وجود موانع للتحليل السببي - قد يقول المرء إن ما تم تقديمه فى كل حالة منها لم يكن تفسيراً سببياً وإنما هو تفسير بنائى: محاولة المرء إظهار سبب اكتساب فعل بعينه دلالة معينة وذلك بربطه بنسق الوظائف والأعراف والمقولات الكامن الذى يجعل هذا الفعل ممكناً.

والأمر الذى له مغزاه فى هذا المقام هو الابتعاد عن التفسير التاريخى، فلم يعد تفسير الظواهر الاجتماعية يتطلب اكتشاف الظواهر السابقة عليها زمنياً والربط بينها (أى بين الظواهر السابقة واللاحقة) فى إحدى السلاسل السببية، وإنما يتطلب تحديد وضع الظواهر الاجتماعية ووظائفها داخل أحد الأنساق؛ فقد حدث انتقال من المنظور التعاقبى إلى المنظور التزامنى. فبدلاً من فهم علاقة السبب والمسبب تاريخياً (حيث يعتقد أن التطور الزمنى هو الذى يجعل من الشئ ما قد أصبح عليه) تم نزع الصفة الزمنية عن الأشياء وتمت معالجتها مباشرة (ليس بوصفها نتائج تاريخية) وإنما بوصفها حالات اجتماعية قائمة بذاتها.

على الرغم من أهمية الانتقال من المنظور التاريخى إلى المنظور التزامنى إلا أن عملية الانتقال ذاتها اتسمت بالتعقيد، وقد سبق وأن رأينا كيف أثبت بوسوسير عملياً أن التغير التاريخى الفعلى الذى ينتج عنه أشكال مثل foot و feet لم يكن بذاته أحد العوامل التفسيرية المهمة فى التحليل التزامنى للغة الإنجليزية؛ فمع أن ظهور مثل هذا التقابل (حالة صيغة الجمع التى تميزت بالاختيار بين الصائتين) داخل النسق كان ناتجاً بالفعل عن إحدى العمليات التاريخية، إلا أن استخدام النسق له (أى للتقابل) هو الذى أكسبه إحدى القيم التفسيرية، وعلى أى حال يمكن العثور على المثال الحاسم للانتقال من المنظور التعاقبى إلى المنظور التزامنى فى بحث فرويد عن عقدة أوديب Oedipus Complex، ففى هذا البحث كان فرويد مشدوداً للتفسير التاريخى السببي وواعياً فى الوقت نفسه أن هذا التفسير (التاريخى السببي) لم يكن التفسير الذى يتطلع إليه نموذج التحليل التزامنى الجديد.

فى كتاب «الطوطم والتابو Totem and Taboo» وفى معرض حديثه عن تحريم الزنا بالمحارم والتحريمات الاجتماعية الأخرى يقدم فرويد أحد الأحداث التاريخية التى وقعت فى أحد العصور البدائية: أب غيور ومستبد (كان يشتهى النساء، وكان يحرص على إبعاد أبنائه عنهن بمجرد بلوغهم) تعرض للقتل على يد أبنائه الذين اجتمعوا عليه ثم استبد الندم بهم. ولقد كان هذا الفعل الإجرامى الذى لا ينسى يمثل بداية نشأة التنظيم الاجتماعى والقيود الأخلاقية والدين، حيث خلق الإحساس بالذنب لاقتراف الأبناء لمثل هذا الفعل الإجرامى والندم عليه «التحريمات»، ويعترف فرويد أن ارتكاب هذا الفعل الإجرامى كان السبب التاريخى لوجود المعايير الاجتماعية والعقد النفسية التى ما زالت موجودة حتى الآن، مفترضاً نوام أحد العقول الجمعية التى أطلق عليها «اللاوعى unconscious»، ومع ذلك فالسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: كيف يمكن لأحد الأفعال الفردية أن يستمر فى ممارسة مثل هذه التأثيرات العميقة على الإنسانية؟ يقول فرويد: يكمن جانب من تفسير هذا الاستمرار فى أن أحاسيس الذنب قد تنشأ داخل تدابيرنا العقلية عن الرغبات المكتوبة مثلما تنشأ عن الأفعال الفعلية. ولذلك يساعد الإحساس بالذنب على الاحتفاظ بالنتائج ذاتها (التى تترتب على الأفعال الفعلية) حية، ويضيف فرويد فى الواقع من المحتمل أن يكون الفعل الأصلى لم يحدث بالفعل قط، وأن الندم على مقتل الأب كان نتاجاً لخيال الأبناء، وهذا يمثل إحدى الفرضيات المقنعة. هذا مع أن التساؤل عما إذا كان الفعل الأصلى قد حدث بالفعل أم لم يحدث لا يؤثر - كما يقول فرويد - على جوهر المسألة على شرط أن لا يكون لدى البدائيين أى كبت، وذلك لأن التفكير عند البدائيين ينتقل إلى الفعل مباشرة، وهذا هو سبب اعتقادى (نون اقفال باب الاجتهاد) أن من الأسلم فى الحالة الماثلة أمامنا أن نفترض أن هذا الفعل الإجرامى قد حدث فى البداية.

هنا يظهر فرويد فى هيئة أحد مفكرى القرن التاسع عشر الذين استخدموا الخيالات الأدبية للنشوء فى مناقشة طبيعة الأشياء، والمهم هنا هو اعترافه بأن استخدام الفعل الأصلى (بوصفه أحد الأسباب التاريخية الحقيقية) يفرض على المرء ضرورة التسليم بوجود أحد الأنساق العقلية الكامنة. فقد جعل هذا الاعتراف من الفعل الأصلى ذاته فعلاً لا أهمية له. لأن الإحساس بالذنب الناتج عن الرغبات غير الشعورية فى الموقف العائلى هو الذى يشكل بذاته التفسير الملائم للتحريمات. وهنا نجد فرويد للمرة الأولى ينكر أهمية السبب التاريخى الذى سبق وأن سلم به، ويخرج على نفسه ويستنتج الحدث التاريخى من النسق العقلى، لدى كل فرد مثل هذه الرغبات غير الشعورية ومع ذلك فهى ليست نتاجاً للفعل الأصلى التاريخى الذى ربما لم يكن قد

حدث قط؛ لأن الأبناء البدائيين لم يتعرضوا للكبت، إلا أنهم تصرفوا هكذا. فالحدث التاريخي حدث مؤكد وقد يكون أحد الأسباب التفسيرية، إلا أننا لا نستدل عليه الآن إلا من خلال النسق العقلي غير الشعوري. ويمثل هذا المثال أحد الأمثلة المشهورة للشد والجذب بين التفسير التاريخي والتفسير في حدود النسق، وهو يعد أحد الأمثلة التعليمية بقدر ما يعد أيضاً درساً من دروس الحداثة، وذلك لانتصار «النسق» على «التعبير عن الرغبات» عند فرويد.

كان نوسوسير وديوركاييم وفرويد هم المسئولين في الواقع عن اتخاذ مثل هذه الخطوة الحاسمة في تطور علوم الإنسان. وبالفعل فحين ينتزع المرء «الأصول» من التاريخ الزمني ويقوم بإدراجها في صميم «الذات» فإنه يكون قد خلق بذلك حيزاً جديداً للتفسير، وهو الحيز الذي عرف باسم «اللاوعي». صحيح أن الأمر لم يصل بهم إلى درجة إحلال «اللاوعي» محل «التسلسل التاريخي»، إلا أن اللاوعي أصبح مستقراً للتسلسلات التاريخية السابقة، وهي التسلسلات التي كانت تقوم بالوظيفة التفسيرية. فقد قام التفسير البنائي بربط الأفعال بنسق من المعايير: قد يكون أحكام لغة بعينها، وقد يكون التمثيلات الجمعية لأحد المجتمعات، وقد يكون الميكانيزمات الخاصة بالتدابير العقلية ذاتها. وقد كان «اللاوعي» هو السبيل المستخدم في تفسير كيفية استحواذ هذه الأنساق (المستترة) على مثل هذا الحضور الفعال؛ فإذا سلمنا بأن وضعاً ما لأحد الأنساق اللغوية يمثل تحليلاً للغة بعينها، فإن الأمر كذلك ليس لأن النسق الموصوف شيء ممنوح مباشرة للوعي الواصف، وإنما لأننا سلمنا بأن لهذا النسق حضوراً دائماً، وأنه مشغول أبداً بالسلوك الذي يبنيه ويخلقه.

وهكذا ظهر مفهوم «اللاوعي» في أعمال فرويد، ومع ذلك فقد كان بمقدور هذا المفهوم أن يتطور بالتأكيد دون مساعدة فرويد لأنه يمثل أحد المفهومات الجوهرية التي كانت تسعى إليها كل العلوم الحديثة. وفي الواقع يمكن إثبات أن أكثر أشكال مفهوم اللاوعي وضوحاً ورسوخاً قد ظهرت في علم اللغة، ففي هذا «العلم» بالتحديد كان هذا «المفهوم» هو أحد المفهومات الرئيسية التي تمكن المرء من تفسير الوقائع اللغوية الثابتة؛ فمع أنني أعرف إحدى اللغات (بمعنى أن بمقدوري إنتاج التعبيرات الجديدة فيها وفهمها، وبإمكانى تحديد ما إذا كانت إحدى المتتاليات الصوتية تمثل إحدى جمل هذه اللغة أم لا... إلخ). إلا أنني لا أعرف ما أعرف بالفعل من هذه اللغة، بمعنى أنني أعرف بالفعل إحدى اللغات إلا أنني في حاجة دائمة لأحد علماء اللغة كي يفسر لي على نحو دقيق ما الذي أعرفه من هذه اللغة. وهكذا يربط مفهوم اللاوعي بين الواقعتين

(معرفة لأحدى اللغات، ومعرفة ما أعرفه منها أو معرفة عالم اللغة بها) ويجعل منهما واقعيتين مفهومتين، ويفسح المجال للاكتشاف. وهكذا أيضاً يفسر علم اللغة – مثله في ذلك مثل علم النفس وعلم الاجتماع – أفعالي اللغوية باستجلاء المعرفة المستترة التي لا أستطيع أنا نفسي أن أعيدها إلى الوعي بالتفصيل.

يمكن وصف هذه الخطوة الأساسية بأسلوب آخر (وهو أسلوب ستتضح أهميته في الفصل الأخير من هذا الكتاب) ونقرر أن هذه الخطوة (الانتقال من المنظور التعاقبي إلى المنظور التزامني) تتألف من وضع «الفاعل» أو الـ «أنا» في قلب المجال التحليلي للمرء، وتفكيكه، وفي هذا السياق تعني كلمة «فاعل» فاعل الخبرة. أي الـ «أنا» أو الـ «ذات» التي تفكر وتترك وتتحدث... إلخ. فقد استطاع علم اللغة المقارن والتاريخي تنفيذ خطته التحليلية بون أية إشارة صريحة للفاعل، فقد كان بمقدوره ملاحظة الاختلافات القائمة بين الأشكال اللغوية الصحيحة وتعقب تطور هذه الأشكال بون الحاجة للجوء إلى مفهوم «الفاعل» الذي يتحدث، أو الذي يعرف لغة بعينها أو يستخدمها، ومع ذلك فقد وضع بوسوسير مفهوم «الفاعل» مباشرة في قلب مشروعه التحليلي، وأصبح مفهوماً مركزياً في تحليل اللغة.

كيف يمكن لنا تحديد الوحدات اللغوية؟

«والإجابة لا تحدد الوحدات اللغوية مطلقاً إلا بالإشارة إلى «الفاعل»، فنحن لا نجد أن الفونيمين /b/ و /p/ يمثلان فونيمين متميزين إلا لأن bet و pet تشكلان علامتين متميزتين بالنسبة للفاعل، حيث لا يفرق التقابل بين الفونيمين /b/ ، /p/ ، أو بين العلامتين bet ، pet إلا بالنسبة للفاعل المتحدث.

ما الذي يجعل من التعبيرين تعبيرين متطابقين؟

في الواقع إنه على الرغم من تلك الاختلافات الفيزيائية التي يمكن قياسها، فإن أي تطابق بين أي ملفوظين لا يعد كذلك إلا من منظور الفاعل المتحدث. ولذلك فلكي نقرر إلى أي حد يمثل أي شيء ما حقيقة ما – على أقل تقدير من منظور التحليل التزامني للسان la langue – فمن الضروري أن نتساءل إلى أي حد يوجد هذا الشيء في عقول الفاعلين المتحدثين^(١٣).

(١٣) Course, p. 90; Cours, p. 128.

لقد تعهد «الفاعل» أحد الأنوار المهمة في كل الحالات التي تناولنا فيها ما أطلق دوسوسير عليه مصطلح القيم، أو بالأحرى في كل الحالات التي عالجت فيها المغزى الاجتماعي للموضوعات والأفعال. وهكذا يقدم الفاعل (معتمداً على حدسه وأحكامه) كل الحقائق التي يحرص علم اللغة على تفسيرها، ولذلك فبمجرد أن أصبح «الفاعل» في الموضع الصحيح، وبمجرد أن استقر في قلب المجال التحليلي للعلوم الإنسانية، سرعان ما أصبح المشروع التفسيري لهذه العلوم مشروعاً لتفكيك «الفاعل» ولتفسير المعاني في لغة أنساق العرف، وهي الأنساق التي تخرج عن مجال الفهم الواعي للفاعل، لأن المتحدث بأية لغة لا يعنى الأنساق الفونولوجية والنحوية التي سوف يتم تفسير أحكامه الخاصة بتلك اللغة في ضوءها، أو أنه لا يعنى بالضرورة التدابير العقلية التي يقوم بها عقله «هو» والنسق المحكم من الأعراف الاجتماعية الذي يحكم سلوكه اللغوي.

وهكذا تم تفكيك «الفاعل» إلى مقوماته الأساسية، وهي المقومات التي أصبحت في نهاية المطاف تتمثل في أنساق العرف المتبادلة بين الأشخاص، وتم نسب الوظائف التي يقوم «الفاعل» بها إلى مجموعة الأنساق المتنوعة التي تعمل من خلاله. وكما كتب ميشيل فوكو M. Foucault: «لقد أبطلت أبحاث التحليل النفسي وعلم اللغة والأنثروبولوجيا مركزية الفاعل فيما يتعلق بأحكام رغبته، وأشكال لغته وأحكام أفعاله، أو أبطلت هذه الأبحاث الاشتراك في خطابه الباطني والتخيلي»، فالتمييز بين الفاعل والعالم هو أحد التمييزات المتغيرة، لأنه يعتمد على ترتيبات المعرفة في إحدى الفترات المفترضة، فقد انصرفت العلوم التي أسسها كل من دوسوسير وبوركاييم وفرويد عن الفاعل حتى فقد موضعه بوصفه مركزاً للمعنى أو مصدراً له، وما أن تفكك الفاعل، وتحلل إلى أنساق مركبة ذاتية التحول بدأت الأنا أو الذات أو بدأ الفاعل في الظهور شيئاً فشيئاً بوصفه مركباً، أي بوصفه إحدى نتائج أنساق الأعراف، حين يتحدث الإنسان فهو «يستجيب للغة ببراعة»، فاللغة تتحدث من خلاله، كما تفعل الرغبة أو المجتمع تماماً، حتى فكرة الذاتية الشخصية فهي تنشأ من خلال خطاب ثقافة ما، فالـ «أنا» ليست شيئاً موهوباً، وإنما هي شئ يبلغ إلى حيز الوجود - في إحدى المراحل الانعكاسية التي تبدأ في الطفولة - ويقدر ما يراها الآخرون ويخاطبون بها.

سوف نعود لمشكلة الفاعل باختصار في الفصل الأخير حين نتناول بعض المعاني الضمنية لعلم العلامات، والطرق التي تأثر بها المتخصصون العاملون في العلوم الأخرى بدوسوسير وبرنامجه المنهجي العلمي. وبطبيعة الحال فنحن لم نهتم بمشكلات التأثير والتأثير، عدم وجود دليل على معرفة كل من نور كاييم ودوسوسير وفرويد لأبحاث

بعضهم بعضاً، وعلى الرغم من كثرة اقتراح تأثير نوركايم على نوسوسير، فإن الأهم من أية استعارات سطحية محتملة بين هؤلاء المفكرين الثلاثة هو الصلات الوثيقة بين المشروعات الأساسية لديهم، وعلى الأخص الترتيبات الاستمولوجية للعلوم التي أقاموها.

لقد أوجت الصفحات السابقة بأن نوسوسير على الأخص كان أحد المفكرين المهمين والموحين بالأفكار مثلما كان في الوقت نفسه مفكراً استراتيجياً بارعاً اهتم بمبادئ المنهج والتعريف، ومع ذلك، ولأنه كان بمثابة الأب الموجد لعلم اللغة الحديث كما اشتهر في الأساس، فمن الواجب النظر في بعض الموضوعات التي تبناها كي نرى الانتصارات التي ساعدت أبحاثه في تحقيقها، والمواضع التي كانت نظرياته اللغوية غير ملائمة لها.

٤ - تأثير نوسوسير:

لقد تميز تأثير نوسوسير في علم اللغة الحديث بميزتين أساسيتين، الميزة الأولى تتمثل في التوجيه العام الذي قدمه لعلم اللغة (أو فهمه الدقيق لمهام علم اللغة) الذي اتصف بالفاعلية العميقة، وبعدم إثارة الجدل بالفعل إلا نادراً، فقد تم التسليم بهذا التوجيه على أنه جوهر الموضوع ذاته. لقد انحصرت مهمة عالم اللغة عند نوسوسير في تحليل إحدى اللغات بوصفها نسقاً من الوحدات والعلاقات، وقد كان وضع علم اللغة يعني - في رأيه - محاولة تعريف وحدات إحدى اللغات والعلاقات القائمة بين تلك الوحدات وأحكام التوليف بينها، وهو توجيه لا نعثر عليه عند أسلافه على الرغم من انطلاق بعضهم عرضاً في هذا الاتجاه. ومع ذلك فقد أصبح هذا التوجيه منذ نوسوسير تقريباً بمثابة التعريف السائد للبحث اللغوي، ولم يحتل علم اللغة الوصفي والنظري ذلك الموضع المركزي الذي حدده نوسوسير فقط، وإنما اضطر العاملون في علم اللغة التاريخي وعلم اللغة الاجتماعي إلى استخدام نعوت مثل نعت «تاريخي» لإثبات كيف انطلقت أبحاثهم من النشاط المركزي لهذا العلم. وعلى أي حال فإن أية معارضة لوجه نظر نوسوسير فيما يتعلق بمهمة علم اللغة لن تنحصر في مهاجمة رؤية نوسوسير نفسه لتلك المهمة بقدر ما ستعلق بتحديد فكرة علم اللغة ذاته.

على هذا الأساس يعد نوسوسير مؤسس علم اللغة الحديث، لأن أكثر إسهاماته أهمية وأصالة هو التأثير الذي مارسه نوسوسير في تحديد طبيعة علم اللغة ذاته، وهو

التأثير الذي لم يذكره أحد. وفي الواقع فإن أية معالجة لعلم اللغة البنائي كما افترضه نوسوسير تتضمن جميع المدارس الرئيسية في علم اللغة الحديث. وهكذا يغطي بحثاً مثل بحث جوليو ليبسكي J. Lepschy المعنون: « مسح لعلم اللغة البنائي A Survey of Structural Linguistics » علم اللغة ابتداءً من مدرسة براغ (Prague School) (چاكسون R. Jakobson وترويتسكوي N. Trubetzkoy وآخرين) ومدرسة كوبنهاجن (Copenhagen) (هيلمسليف L. Hjelmslev وبقية الجلوسماتيكين) ^(١٤) والوظيفيين (بنفنيست E. Benveniste ومارتينييه A. Martinet وعدد من علماء اللغة البريطانيين المعاصرين) والمدرسة البنائية الأمريكية (بلومفيلد L. Bloomfield وأتباعه) حتى المدرسة التحولية التوليدية (نوعام تشومسكي N. Chomsky وبقية النحاة التحويليين)، وكما سنرى فهذه المجموعة الأخيرة وحدها هي التي بدأت من التوجيه الأساسي لتصور علم اللغة كما ورثه نوسوسير إلى تلاميذه.

أما الميزة الثانية التي تميز بها تأثير نوسوسير في علم اللغة الحديث فقد ارتبطت بمجموعة من المفاهيم الذي ساعد بمفرده على رفع منزلتها على الرغم من عدم أصالتها لديه، أقصد التفرقة بين لغة *langue* وكلام *parole*، والفصل بين المنظورين «التزامني» و«التعاقبي» وتصور اللغة بوصفها نسقاً من العلاقات التراصفية *syntagmatic* والاستبدالية *paradigmatic* بمستوياتها التصاعدية المختلفة. حيث يمكن وصف الإسهامات التي قدمها علم اللغة الحديث على أقل تقدير بأنها أبحاث دارت في

(١٤) الجلوسماتيكس *Glossematics* هو نمط من التحليل اللغوي « شبه الجبري » ارتبط باسم عالم اللغة الدانماركي لويس هيلمسليف L. Hjelmslev فمثل كثير من علماء اللغة النوسوسيريين رفض هيلمسليف النظر للغة بوصفها مزيجاً من الوقائع الفيلولوجية (علم اللغة التاريخي)، وأكد علي أنها نسق مكتف بذاته. ومن ثم يعد علم اللغة علماً ذاتياً مستقلاً عن غيره من العلوم الأخرى، لديه أنواته المنهجية والاصطلاحية الخاصة، ومن هنا رأي هيلمسليف أن مهمة عالم اللغة تنحصر في تحليل تعبيرات النصوص في ضوء العلاقات الاستبدالية والتركيبية القائمة بين العناصر المكونة للنصوص سواء في إطار الشكل (أي العلاقات النحوية الداخلية والماهيات) أو في إطار التعبير (أي الوسيط الكلامي أو الكتابي)، أو في إطار المحتوى (أي الدلالة والمعنى). وقد كان الهدف من هذا الإجراء التحليلي شبه الجبري للغة تقديم الوحدة اللغوية الأساسية الثابتة وهي «الجلوسيم *Glosseme*» وتعني «وظيفة». (المترجم). يمكن الرجوع إلي :

Dictionary of Language & Linguistics; R. Hartmann & F. C. Stock; Applied Science Publisher Ltd., London 1972.

الغالب حول التفاصيل الدقيقة لتلك المفاهيم والمعاني الخاصة بها، ولذلك فإن دراسة هذه المفاهيم تمكنتنا من فهم إلى أي حد نجح بوسوسير في طرح الأسئلة الأصلية التي أحييت علم اللغة الحديث وهو ما سنتحول إليه الآن.

أ - التمييز بين اللغة و الكلام:

في عام ١٩٣٣ كتب أحد علماء اللغة البريطانيين وهو السير آلان جاردنر Sir A. Gardiner: «يعود الفضل إلى فردينان بوسوسير في لفت الانتباه إلى التمييز الحاسم بين «لغة *langue*» و «كلام *parole*»، فقد استطاع هذا التمييز بون شك تحقيق أقصى النتائج، وكان من الصعب جداً - في رأيي - أن يصيبه الإخفاق، وسوف يصبح هذا التمييز عاجلاً أو آجلاً بمثابة الأساس الذي لا يمكن الاستغناء عنه في أية معالجة علمية للقواعد، وذلك لأن معظم الخلافات اللغوية بين العلماء يمكن تصنيفها في ضوء الجدل الدائر حول التفاصيل الدقيقة لهذا التمييز: ما يتعلق بالـ «لغة *langue*» وما يتعلق بالـ «كلام *parole*».

ولقد استعان بوسوسير عند تقديم هذا التمييز بعدد من المعايير: بفصل «اللغة» عن «الكلام» يفصل المرء الجوهرى عن العرضى، والاجتماعى عن الفردى الصرف، والمادى عن السيكلوجى. وبالرغم من ذلك لم يكن بمقدور تلك المعايير تقسيم اللغة ذاتها بالمنوال نفسه، ومن ثم فقد تركت تلك المعايير حيزاً كبيراً لإثارة الجدل، ففي ضوء المعيار الأول (الذى يتعلق بفصل الجوهرى عن العرضى) أصبحت اللغة *langue* بمثابة أحد الأنساق الشكلية أو المجردة تماماً، وتعلق بالكلام *parole* كل شئ ارتبط بالأصوات، بحيث تظل الإنجليزية هي ذاتها اللغة الإنجليزية حتى وإن تم التعبير عن وحداتها بأسلوب آخر، إلا أنه في ضوء المعيار الثانى (الفصل بين الاجتماعى والفردى الصرف) كان علينا تنقيح هذه النظرة، لأن كون الفونيم /b/ فونيميا شفويا مجهورا، وكون الفونيم /p/ فونيميا شفويا مهموسا يمثل بذاته إحدى الحقائق الوثيقة بالنسق اللغوى بحيث لا يستطيع المرء اختيار أسلوب آخر لتحقيق هذين الفونيمين إذا كان حريصاً بالفعل على تحدث اللغة الإنجليزية، وفي ضوء المعيار الثالث (الفصل بين المادى والسيكلوجى) كان على المرء أن يسلم بوجود مظاهر سمعية *acoustic* للغة *la*

langue، حيث تشكل الاختلافات بين اللكنات accents أو بين طرق التلفظ بذاتها إحدى الحقائق السيكولوجية الثابتة لمحدثي اللغة.

لقد كان لتمييز دوسوسير بين «لغة» و «كلام» نتائج مثمرة نظراً لاتساعه، وفي الواقع أثبتت النتائج المتفاوتة التي توصل اليها العلماء إليها نتيجة تطبيقهم لتلك المعايير الثلاثة اختلاف الأساليب التي يمكن أن تنتظم اللغة بها. فقد أثبت عالم اللغة الدانماركي لويس هيلمسليف L. Hjelmslev إمكانية استبدال مصطلحي «لغة / كلام» أو langue / parole بمصطلحات: خطة schema، معيار norm، استعمال usage وكلام parole، حيث يشير مصطلح «كلام» عنده إلى الفعل الكلامي الفردي الذي لا يشكل بذاته أي جزء من النسق، أما مصطلح «استعمال» فيشير إلى الانتظامات الإحصائية للعناصر اللغوية، حيث يستطيع المرء جدولة تواترات مختلف طرق التلفظ الخاصة بالعناصر اللغوية أو جدولة استخداماتها الأخرى، حيث يكون لمحدثي أية لغة في العادة الحرية الكاملة في اختيار العناصر اللغوية وأوجه استعمالها أما مصطلح «معيار» فهو لا يمثل موضوعاً للاختيار الفردي ولا يمكن وصف الـ «معيار» إحصائياً، لأنه يتمثل في سلسلة الأحكام التي تتحقق بها العناصر اللغوية، على سبيل المثال أن الفونيم /p/ تحقق في اللغة الإنجليزية بوصفه فونيماً شفوياً صامتاً، أما مصطلح «خطة» فهو يمثل أكثر تصورات البناء اللغوي تجريداً، ولا يتضمن أية إشارة إلى العناصر الصوتية، حيث لا يتم تعريف تلك العناصر إلا في ضوء الحدود العلاقية المجردة. فيتم تحديد الفونيم /p/ بالمقارنة مع الفونيم /b/، ويتم تحديد الفونيم /t/ بالمقارنة مع الفونيم /d/... وهكذا، وذلك لأن مصطلح «خطة» لا يرتبط مباشرة بنوعية المظاهر الصوتية الفعلية التي استخدمت في تحقيق مثل هذه الاختلافات.

وفي ضوء هذا التمييز الرباعي الذي قدمه «هيلمسليف» يمكن للمرء تحديد الحد الفاصل بين مصطلحي لغة / كلام langue / parole وفقاً لأي طرف من الأطراف الثلاثة التالية: فقط تتكون اللغة la langue من «خطة» فقط، وقد تتكون من «خطة» و «معيار»، وقد تتكون من «خطة» و «معيار» و «استعمال». فقد كانت المناقشات الجدلية التي دارت حول طبيعة اللغة la langue دائماً من هذا القبيل. لقد عالج علماء اللغة في مدرسة براغ - على سبيل المثال - اللغة la langue على أنها مركب يتكون من «خطة» و «معيار» واثبتوا في ضوء تمييزهم بين علم الصوتيات Phonetics وعلم الفونولوجي Phonology أن علم الفونولوجي علم يختص ببحث الاختلافات الصوتية المرتبطة باختلاف المعنى. هذا مع أنهم وصفوا السمات الفارقة أو المظاهر التمييزية

distinctive features بمصطلحات طريقة التلفظ (أى بمصطلحات علم الصوتيات). وعلى ذلك لم تكن التقابلات التى قدمها رومان يالكبسون للمظاهر التمييزية (كالتقابل بين المجهور/ المهموس) مجرد مظاهر تجريدية للاختلافات الصوتية المرتبطة باختلاف المعنى فحسب، وإنما كانت فى الوقت ذاته تمثل معايير التحقق الفيزيائى أو الصوتى لها.

أما دانيال جونز D. Jones وأتباعه البريطانىون فقد فضلوا تعريف «الفونيم» بوصفه عائلة من الأصوات، ولذلك أخرجوا مصطلح «استعمال» فى اللغة **la langue**: لقد كان وصف النسق الصوتى لإحدى اللغات عندهم بمثابة وصف للاستعمال اللغوى والمعايير الوظيفية وللخطط المجردة فى آن واحد. أما هيلمسليف وأنصار الجلوسماتيكس **Glossematics** فقد عالجوا اللغة **la langue** بوصفها «خطة» مجردة، فلم تكن الخواص الصوتية لتدخل عندهم على الإطلاق فى الطريقة التى يتم وصف الفونيمات بها، ولا ينتهى الجدل... ومع ذلك بإمكان المرء أن يقرر على الأقل فى علم الأصوات الفونولوجيا أن الأسئلة الجوهرية التى طرحت فى هذا العلم كانت نتاجاً مباشراً للتمييز الذى قدمه نوسوسير بين «لغة/كلام».

وعلى المستوى النظمى **syntactic** كانت وجهة نظر نوسوسير فيما يتعلق بثنائية «لغة/كلام» وجه نظر غامضة وغير حاسمة ومثيرة للتساؤل، وذلك لأنه سلم بـ «الجملة **sentences**» بوصفها نتاجاً للاختيارات الفردية، ومن ثم عالجها بوصفها أمثلة من الـ «كلام **parole**» وليس بوصفها كينونات فى الـ «لسان **langue**» وقد ينزلق المرء ويقرر أن نوسوسير فشل فى التمييز بين «الجملة» ذاتها بوصفها أشكالاً نحوية و «الملفوظات **utterances**» التى تتحقق الجملة بها أثناء الكلام، إلا أن القضية أعمق من ذلك بكثير، لأن نوسوسير أدخل فى حسابه العبارات الاصطلاحية المقررة بوصفها جزءاً من النسق اللغوى، بل إنه أدخل كذلك «الجملة» ومجموعات الكلمات المبنية وفق أنماط منتظمة فى هذا النسق، ولكنه عارض بالرغم من ذلك - وكما هو واضح - إمكانية امتداد مفهوم «النمط المنتظم» إلى أبعد من ذلك، لأنه استنتج (فى ضوء الخطة التراصفية **syntagmatic**) عدم وجود حد فاصل بين حقائق اللغة **la langue** التى تمثل أمثلة الاستعمال الجمعى، وحقائق الكلام **parole** التى تعتمد على الاختيار الحر للفرد (١٥).

(١٥) Course, p. 125; Cours, p. 173.

ونتيجة لفشل دوسوسير في إدراج «الجمل» داخل النسق اللغوي ظهر تصوّره لعلم النظم syntax ضعيفاً على نحو لافت للنظر، لأن اللغة الإنسانية تُعد أكثر من مجرد عدها نسقاً من الوحدات المتبادلة الارتباط، حيث تُولف العلاقات التي تربط بين تلك الوحدات بعضها بعضاً وعدها أيضاً نسقاً من الأحكام rules. وهذا في الواقع المظهر الذي اهتم به نوعام تشومسكي حين استبدل ثنائية دوسوسير: لغة/ كلام بثنائيته المشهورة: كفاءة/ أداء competence / performance، حيث تشير «الكفاءة» إلى النسق الكامن من الأحكام rules التي ضلع فيها المتحدث، ولوصف تلك الكفاءة علينا تحليل اللغة إلى عناصرها الأساسية وأحكام تركيبها.

يكتب تشومسكي: «من الواضح أن وصف الكفاءة الجوهرية التي تقدمها القواعد grammar لا يختلط بالضرورة مع أية معالجة للأداء الفعلي كما أكد دوسوسير ببعد نظره، إلا أنه - كما يضيف تشومسكي - عدّ اللغة langue مخزناً من العلامات، أي عدها مخزناً من العناصر الشبيهة بالكلمة، ومن العبارات الثابتة، وربما من أنماط العبارة المحدودة. وهكذا لم يكن بمقدوره الإمساك بالعمليات المتكررة الكامنة في تشكيل الجملة. فقد عدّ دوسوسير تشكيل الجملة فيما يبدو إحدى مسائل الكلام parole وليس اللغة langue. أو إحدى مسائل الخلق الإرادي الحر، وليس القاعدة المنهجية العامة للغة، فلم يكن هناك مكان في مشروعه للإبداع المحكوم بالقانون من النوع المتضمن في الاستخدام اليومي المعتاد للغة» (١٦).

على أي حال فتلك ملاحظة جديرة بالاحترام لدقتها البالغة، لأن تشومسكي يعترف فيها بإبداع استخدام اللغة العادية، في حين لم يهتم دوسوسير بإدراج تشكيل الجملة في اللغة la langue، ولم ينجح في التوفيق بين حقيقة قدرتنا على إنتاج جمل جديدة تماماً وحقيقة احتواء اللغة على أنماط العبارة. فما كان ينقص دوسوسير هو مفهوم الإبداع المحكوم بقانون a rule: فالإبداع اللغوي ممكن بفعل أحد أنساق القوانين. ولكن دوسوسير لم يتحقق من إمكانية بناء المجموعة المحددة من القوانين التي ستولد الوصف البنائي للعدد اللانهائي من الجمل وهو الأمر الذي يمكن إنجازه -

(١٦) Chomsky, N. (1964): Current Issues in Linguistic Theory; The Hague, p. 29. وللإطلاع على المزيد من المناقشات الخاصة بنظريات تشومسكي ومكانته في تاريخ علم اللغة يمكن الرجوع إلي: John Lyons (1970): Chomsky; Fontana Modern Masters (وقد قمنا بترجمة هذا الكتاب وسنقوم بنشره قريباً إن شاء الله).

كما يقول تشومسكى - بالاستعانة بالقوانين المتكررة: قوانين يمكن تطبيقها مرة بعد مرة مثل القانون الذى يمكن المرء من إلحاق العبارة الموصولة بالعبارة الاسمية (مثال:

This is the dog that chased the cat that worried the rat that ate the cheese,
etc).

بإمكان أى شخص على معرفة بإحدى اللغات أن يدرك ما إذا كانت إحدى الجمل التى تشكلت وفق قوانين هذه اللغة قد سبق له أن صادفها من قبل أم لا، وهو يستطيع بنفسه إنتاج الجمل الجديدة التى تتفق وقواعد هذه اللغة، وتلك الحقيقة هى الدليل الملائم على ضرورة اعتبار الجملة إحدى وحدات النسق اللغوى، وهى حقيقة تركت على أى حال لتشومسكى لكى يثبت كيف يفسر النسق تشكيل الجملة، وفى الوقت ذاته كيف يفسر النسق إبداع المتحدثين الأفراد، وعدم قيام نوسوسير بذلك أمر غير مفهوم، فقد كان نوسوسير على وعى بطبيعة المشكلة، إلا أن إهماله للجملة بوصفها وحدة لغوية كان يمثل إخفاقاً نريعاً له. فلقد نسخ هذا الإخفاق مدخل نوسوسير فى مجال علم النظم Syntax نسخاً تاماً أكثر من أى مجال آخر (١٧).

ب - التمييز بين الـ "تزامنى" والـ "تعاقبى":

وهو التمييز الأقل خضوعاً للفهم الواضح، والأقل عرضة للبحث التعليمى بين خلفاء نوسوسير من بين كل التمييزات التى قدمها نوسوسير لعلم اللغة، فعلى الرغم من قبول الكثيرين لأسبقية الوصف التزامنى synchronic للغة كانت هناك بعض المحاولات (أثناء مناقشة العلماء لقضية التغير اللغوى) لتوضيح المشكلة النظرية الأساسية التى طرحها نوسوسير حول ما يتعلق بالمنظور التزامنى، وما يتعلق بالمنظور التعاقبى، ولقد أكد العديد من العلماء ضرورة التغاضى عن هذا التمييز أو على الأقل تجاوزه بغاية تقديم وجهة نظر كونية global للغة. ومع ذلك لم يبلغ هؤلاء حد التفاهم

(١٧) لقد ناقش واليس ريد Wallis Reid الضعف الغريب الذى أظهره نوسوسير فى علم النظم Syntax فى مقال له بعنوان :

"The Saussurian Sign as a Control in Linguistic Analysis"; Semiotexte 1, 2
(1974).

مع الأسباب التي اعتقد بوسوسير في ضوئها استحالة إنجاز ذلك. لقد كان تشارلز هوكيت Ch. Hockett على صواب - نون شك - حين لاحظ في المسح الذي أجراه لعلم اللغة عام ١٩٦٨ أن مشكلة العلاقة بين الدراسات التزامنية والتعاقبية لم ترسخ كثيراً.

لقد انقسم الباحثون عن تجاوز التمييز بين التزامني والتعاقبي في عرض دعواهم إلى فريقين، وقد اعترض أعضاء الفريق الأول بقولهم: في كل لحظة يحتوى النسق التزامني على عناصر تعاقبية تتمثل في استعمال أساليب أو ألفاظ مهجورة archaisms أو في استخدام تعبيرات وألفاظ جديدة neologisms، أو في التمييزات التي تتم نتيجة عملية الاندثار... إلخ. وهذا الاعتراض غير ذي صلة بقضية بوسوسير، لأن بوسوسير قرر صراحة أن اللغة تحتوى في كل لحظة على نسق قائم، وعلى تطور له، وأن اللغة تعد في كل لحظة نظاماً أنياً ومنتوجاً للماضي على حد سواء، ومع ذلك فلم يكن التزامني والتعاقبي عنده بمثابة نمطين من الشيء نفسه، وإنما كانا مدخلين لدارسة اللغة. فالموضوعات (أو المفردات) التي عرفت بقدمها في لحظة بعينها ستتحدد هويتها هكذا في أي تحليل تزامني، وعلى الرغم من ذلك فلن يكون لمثل هذا التحليل أية أهمية في البحث التاريخي لها (بل إنه قد لا يختلف البحث التاريخي عن الوصف التزامني - إذا كانت الأشكال التي شعر المتحدثون بقدمها قد استعيرت بالفعل من لغة أخرى).

أما أعضاء الفريق الثاني من المعترضين فقد عرضوا دعواهم في أسلوب أكثر ملائمة وأهمية، فلم يكن التغير اللغوي عند علماء اللغة في مدرسة براغ بمثابة إحدى القوى العمياء وإنما كان إحدى القوى العقلية المنهجية والمنظمة أساساً، حيث كان التغير اللغوي عندهم يمثل إحدى وظائف النسق، ولذلك اتخذ هؤلاء الباحثون في مجال علم الفونولوجي داخل سياق النحو التحويلي transformational grammar موقفاً معارضاً لبوسوسير. فعلى خلاف من بوسوسير الذي يحتفظ بالتغير الصوتي خارج النسق اللغوي، أي مع العوامل الخارجية المؤثرة في الكلام parole، يناقش هؤلاء الآن أن التغير الصوتي الذي ينشأ داخل النسق اللغوي ذاته يمكن أن يؤثر على العناصر النحوية، ومن ثم فقد وجدوا أنه من الأفضل وصف التغير اللغوي بوصفه أحد التغيرات التي تصيب الأحكام rules وليس بوصفه تطوراً أصاب عناصر التحقق ذاتها، على سبيل المثال في أحد العصور كان يتم لفظ الفونيم /k/ في أشكال مثل knowledge،

ومع ذلك فقد اعتمد التغير الصوتي الذي أصاب kn على البناء النحوي، لأن الفونيم /k/ بقي ملفوظاً في acknowledge واختفى في knowledge.

وليس هذا البرهان برهاناً جامعاً مانعاً على أي حال، لأن هناك أساليب أخرى – وإن كان لكل منها هدفه الخاص – يمكنها تفسير مثل هذه التغيرات، ولأنه من غير الواضح كذلك إن كانت هناك ضرورة للتخلي عن معارضة بوسوسير للتصورات الغائية teleological للتغير، بحيث نسلم بأن التغير لا يقع سوى لبحث النسق عن وضع مختلف، من المؤكد لا يمكن توضيح كثير من التغيرات في حدود غائية، فليس بمقدور المرء إثبات أن عدم التناسب بين fot/ foti هو الذي دفع النسق للبحث عن foot/ feet بوصفه الأسلوب الأمثل لتمييز صيغ الجموع. وربما نتج هذا المثال عن فشلنا في التمييز بين الوقائع التزامنية في تغير اللغة والوقائع التعاقبية فيه، وعموماً لم يتم سبر أغوار العلاقة بين التزامني والتعاقبي بشكل مناسب حتى الآن، ومع ذلك فإن موقف بوسوسير واضح في تلك المشكلة، وهو موقف ملائم لصياغة المشكلات الأساسية التي لم تظهر بعد حتى الآن.

ج - العلاقات في النسق اللغوي:

كما سبق وأن شاهدنا فقد أثبت بوسوسير بشكل واضح أن اللغة نسق من العلاقات، وأن عناصرها لا تتحدد إلا في ضوء العلاقات القائمة بين بعضها بعضاً داخل النسق، وبإمكاننا أن نذكر أنه توصل إلى هذا الاستنتاج بتأملاته في طبيعة الهوية في علم اللغة، وفي خواص العلامة اللغوية، فلم يكن في هذا الاستنتاج – من وجهة النظر اللغوية – أي عيب، وقد مارس تأثيراً جديراً بالاعتبار في علم اللغة، ومع ذلك فعندما يشرع المرء في تحليل لغة محددة بالذات سيجد من العسير تجنب الحديث عن الحدود الموجبة للغة، فليس من السهل تحليل اللغة بشكل مجرد بوصفها نسقاً من العلاقات، وهي مشكلة لم تتضح متضمناتها النظرية الدالة حتى الآن. وعلى أي حال من الأمانة القول إن علماء اللغة الذين بحثوا أنماطاً محددة من العلاقات كانوا أكثر نجاحاً من هؤلاء الذين اهتموا بمعالجة إحدى اللغات بوصفها نسقاً علائقياً محضاً.

على سبيل المثال فقد أثمرت التقابلات الثنائية binary oppositions التي أعطاها بوسوسير الأولوية المطلقة، وقامت معظم أبحاث علم الفونولوجي على اختزال

متصل الصوت إلى عناصر متميزة كان من السهل تعريفها بوصفها نقطة التقاطع للعديد من السمات الفارقة أو المظاهر التمييزية. وكما يقول چاكبسون: يحتوى كل مظهر تمييزى على الاختيار بين حدين فى إحدى التقابلات التى تكشف عن إحدى الخواص الاختلافية المحددة بالذات (مثال المجهور **voiced** مقابل المهموس **voiceless**). فقد أثبت چاكبسون وآخرون أن استخدام التقابلات الثنائية فى وصف البناء لا يُعد بذاته أحد الإجراءات المنهجية المحتملة بقدر ما يُعد انعكاساً حقيقياً لطبيعة اللغة ذاتها، فتلك التقابلات الثنائية تمثل إحدى الشفرات الأكثر طبيعية والأكثر خضوعاً للاستثمار، لأنها تمثل العمليات الثقافية الأولية التى يتعلمها الطفل بمجرد بدئه فى تبوء اللغة، وبشكل عام فهى تمثل إحدى الصفات الشائعة فى الفكر البشرى كله. وهكذا يعيد دوسوسير والتراث السوسيرى إقامة الصلات الوثيقة بين الفكر واللغة، وإن كان على مستوى العمليات البنائية الأساسية.

لقد شكلت العلاقات التراصفية **syntagmatic** والاستبدالية **paradigmatic** أيضاً بؤرة الاهتمام بين الكثير من علماء اللغة، وبإمكان المرء أن يثبت أن الاختلافات القائمة بين مختلف نظريات الوصف النحوى التى ازدهرت منذ دوسوسير لم تكن فى الأساس سوى النتيجة المترتبة على اختلاف وجهات نظر العلماء حول طبيعة العلاقات التراصفية وأساليب تحديدها، وهى اختلافات ليس من اليسير تلخيصها فى هذا المقام، ومع ذلك فإننا لا نغالى حين نقول إن مفهوم البناء الهرمى للمستويات اللغوية الذى يقول بأن مقومات أحد المستويات (كالفونيمات مثلاً) تتركب معاً لتشكل مقومات المستوى التالى (المورفيمات) هو المفهوم الشائع فى نطاق النظريات الوصفية التى تباينت فى أحكامها فيما يتعلق بالوزن الواجب إعطائه للعوامل المختلفة فى تحديد العلاقات. وعلى سبيل المثال: هل يتناول المرء تعبيرات متشابهة ثم يعالجها بوصفها متتاليات من الأشكال، مصنفاً لها فى ضوء النقاط التى تختلف فيها فيما بينها ثم يدرس التراصفات التى تدخل فيها العناصر المستقلة فى متتاليات أخرى، أم يبدأ بإحدى نظريات الوظائف المختلفة التى يمكن أن تقوم العناصر اللغوية بها، ثم يحدد بعد ذلك هوية العناصر التى تتراصف معاً لتقوم بهذه الوظائف؟.

على أى حال لم تتقهقر أهمية العناصر التراصفية والاستبدالية كما حددها دوسوسير إلا مع مجئ النحو التحويلي التوليدي فقط، وحتى فى هذا النحو فقد تم

استبدال المشكلة فقط، حيث نشأت في النحو التحويلي التوليدى أنواع متباينة من الفئات الاستبدالية من أمثال الفئات التى تعمل الأحكام rules وفقاً لها، أو الفئات الضرورية لأداء هذه الأحكام لعملها بشكل ملائم، ولم تكن هذه الأحكام إلا تمثيلاً حرفياً لما فهمه بوسوسير بوصفه يمثل علاقات تراصفية، فقد كان بوسوسير فيما يبدو يوسع منذ البداية معالجته للعلاقات ليقدّم الاحتياط المناسب للعمليات النظامية.

وعلى هذا الأساس يمكن رد الأبحاث المعاصرة للنحاة التحويليين - وإن كان على مستوى مختلف - إلى وجهة النظر التى قدمها بوسوسير: عندما يتأمل المرء العمليات التراصفية غير واضح فى الاعتبار أى شئ، فإنه يكتشف عدم وجود أى اختلافات جوهرية بين التراصفات المورفولوجية وبقية التراصفات النظامية الأخرى. ومع ذلك لم تكن وجهة نظره هذه إلا استنتاجاً فقط، لأن ملاحظاته فى علم النظم كانت سطحية جداً بقدر لم يمكنها من تقديم أى تدعيم لدعواه. ومع ذلك ولأن اكتشاف اللغة الحيثية Hittite قد دعم الآن فرضياته حول صوائت اللغات الهندية الأوربية، فقد يثبت النحو التحويلي بالمنوال نفسه نتيجة إحدى المسلمات أو التبصرات الأخرى عنده.

على أى حال هناك مسألة واحدة خاب فيها ظن أبى علم اللغة الحديث فى أبنائه، فقد أكد بوسوسير على أن علم اللغة هو أحد فروع علم العلامات Semiology، العلم العام الذى يدرس العلامات وأنساق العلامات، فلم ينتسب علم اللغة عنده للعلوم الطبيعية أو التاريخية وإنما انتسب لعلم العلامات. وكما تقول المحاضرات: «بالنسبة لى فإن مشكلة اللغة أساساً مشكلة سيميولوجية، ولو أردنا اكتشاف الطبيعة الحقيقية للنسق اللغوى فإن علينا دراسة ما يشترك فيه النسق اللغوى مع بقية الأنساق الأخرى المشابهة»^(١٨). ومع ذلك تجاهل علماء اللغة هذه النصيحة أو هذا البرنامج، فقد استوعبوا المفاهيم السوسيرية جميعها باستثناء هذا المفهوم الهادى (فكرة العلامة، وفكرة اللغة بوصفها نسقاً من العلامات) الذى صادف منهم الإهمال شبه التام، فقد تزود علماء اللغة بهذا المفهوم شفاهة إلا أنهم لم يسمحوا له على الإطلاق بأن يحكم تحليلهم الطموح للغات.

من المقنع تماماً أنه لو قدر للعلامة القيام بين علماء اللغة بالدور الطموح نفسه الذى قامت به عند بوسوسير لربما أدى ذلك إلى إعادة توجيه علم اللغة - ومع ذلك

وحتى تتم هذه المحاولة لا يستطيع المرء التكهن بالنتائج التي من المحتمل أن تترتب عليها^(١٩). وعلى هذا الأساس فإن كل ما يستطيع المرء أن يقوله هو : لقد أدى فشل علماء اللغة في جعل العلامة موضوعاً للاهتمام إلى وجود وضع شاذ، لقد نشأ علم العلامات بين أشخاص يعملون في تخصصات متباينة عديدة، ولكن علم اللغة ذاته - وهو العلم الذي وضعه نوسوسير بيده في قلب علم العلامات والذي اعتقد أنه سيقدم لعلم اللغة أحد الإسهامات الرئيسية - بقي بمعزل عنه. وعلى أي حال فلكي نفهم السياق (الابستمولوجي) الذي وضع نوسوسير فيه علم اللغة علينا أن نتخلى عند دراسة اللغة بهذا الأسلوب، وأن نبحث في المحاولات التي بذلت لدراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية الأخرى بوصفها لغات، أي بوصفها أنساقاً من العلامات.

(١٩) للاطلاع على المناقشات التي دارت حول هذا التساؤل يمكن الرجوع إلى :

Wallis Reid : "The Saussurian Sign as...", op. cit.

الفصل الرابع

علم العلامات الإرث السوسيرى

لم يخصص لعلم العلامات **Semiology** فى كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام» سوى فقرات قليلة جداً، وبتون شك فقد كان ذلك أحد الأسباب الرئيسية التى أدت بعلماء اللغة إلى عدم ملاحقة مبادرة نوسوسير الخاصة بإنشاء علم العلامات العام، وهو العلم الذى كان عليه تحديد موضع علم اللغة وتوجيهه. هذا على الرغم من كون المنظور السيميولوجى - عند نوسوسير - المنظور المركزى للدراسة الجادة للغة، فقد كتب: «أليس من الواضح أن اللغة هى قبل كل شئ نسق من العلامات؟ وأن كونها كذلك يدفعنا للالتجاء لعلم العلامات، وهذا إذا رغبتنا فى تحييدها على نحو دقيق»^(١).

«اللغة أحد أنساق العلامات التى تعبر عن الأفكار، ومن ثم يمكن مقارنتها مع الكتابة، وأبجدية الصم والبكم، والشعائر الرمزية، وأشكال الإتيكيت والرتب العسكرية... إلخ، ومع ذلك يظل نسق اللغة أكثر هذه الأنساق أهمية على الإطلاق».

«وبالتالى يمكننا أن نتصور علماً يدرس حياة العلامات داخل المجتمع، نطلق عليه علم العلامات **Semiology** (والاسم مشتق من الكلمة اليونانية **semion** وتعنى علامة. وبإمكانه أن يعلمنا مما تتكون العلامات، وطبيعة القوانين التى تحكمها، ولأن هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع التكهّن كيف سيكون. ومع ذلك فإن له حقاً فى الوجود، وموقعه مكفول مقدماً، وما علم اللغة إلا جزء من هذا العلم العام، وسوف تنطبق القوانين التى يكتشفها علم العلامات على علم اللغة، الذى سيجد نفسه ملازماً لأحد المجالات المحددة بدقة من الظواهر الإنسانية»^(٢).

لأن الكائنات الإنسانية تقوم بإصدار الضوضاء، واستخدام الإيماءات، واستعمال توليفات الموضوعات أو الأفعال لإرسال المعانى. فهناك مجال لدراسة هذه النوعية من النشاط وتحليلها وبيان أنساق الأعراف التى يستند إليها. ويناقش نوسوسير لو تصورنا علم اللغة بوصفه جزءاً من علم العلامات، فسوف يترتب عليه هذا التصور نتائج مهمة:

«... فمظاهر اللغة التى تظهر أهميتها البالغة (مثل استخدام الميكانيزمات اللفظية) للوهلة الأولى سوف تصبح مجرد مظاهر مساعدة حين يتم استخدامها فى تمييز اللغة عن الأنساق السيميولوجية الأخرى. وهذا النهج لن يوضح فقط مشكلات

(١) Engler, p. 47.

(٢) Course, p. 16; Cours, p. 33

علم اللغة، بل نحن نعتقد أن الشعائر أو الأعراف... إلخ، سوف تظهر للعيان في ضوء جديد لو تمت دراستها بوصفها علامات. وسوف يتيقن المرء من وجوب إدراجها في ميدان علم العلامات وتفسيرها بقوانينه»^(٢).

وهكذا قام علم العلامات على فرضية تقول: بقدر ما ترسل الأفعال أو الآثار الإنسانية «معنى» بقدر ما تُستخدم بوصفها علامات، أى يجب أن يوجد نسق كامن من الأعراف والتمييزات كى يوجد «معنى». وحيث توجد علامة يوجد نسق، وتلك فرضية تشترك فيها مختلف النشاطات الدالة. وحين يرغب المرء فى تحديد الطبيعة الجوهرية للنشاطات الدالة فإن عليه عدم معالجتها معزولة أو منفصلة، وإنما عليه معالجتها بوصفها أمثلة لأنساق سيميولوجية، وبهذا الأسلوب سوف تتضح المظاهر الكامنة أو المهملة فى أية ممارسات دالة غير لغوية حين تدرس - على الأخص - كما لو كانت «لغات».

ولكن لماذا كان يرجى من علم اللغة (وهو مجرد دراسة لأحد الأنساق الدالة المحددة) تقديم النموذج القياسى لدراسة الأنساق الدالة الأخرى؟! أو لماذا كان يرجى من علم اللغة بالذات تقديم هذا النمط العام 'le patron générale' من علم العلامات؟! والإجابة على هذه الأسئلة تعود بنا إلى إحدى نقاط الانطلاق المألوفة ألا وهى الطبيعة العشوائية للعلامة.

يناقش بوسوسير: يمكن استخدام علم اللغة بوصفه نموذجاً لعلم العلامات. لأن الطبيعة العشوائية والاصطلاحية للعلامة فى حالة اللغة واضحة على نحو خاص، فقد تبدو العلامات غير اللغوية لمن يستخدمونها علامات طبيعية، وقد يتطلب الأمر بذل الجهد للتحقق من أن تهذيب أحد الأفعال أو أن عدم تهذيبه لا يشكل بذاته إحدى الخواص الجوهرية أو الضرورية للفعل ذاته، وإنما يمثل أحد المعانى الاصطلاحية له، إلا أن التسليم بعلم اللغة بوصفه نموذجاً لعلم العلامات يجبر المحلل (السيميولوجى) على الاهتمام بالأسس الاصطلاحية للعلامات غير اللغوية التى يقوم بدراستها.

على أن ذلك لا يعنى بأى حال أن العلامات عشوائية كلية، فهناك قيود على المعانى التى يمكن أن يستدل عليها من فعل بعينه، وبالعكس هناك قيود جوهرية أيضاً على فئة الأفعال التى تلائم التعبير عن معنى بعينه، على سبيل المثال من الصعب تخيل «الكلمة على الفم» بوصفها فعلاً يمكن أن يعبر عن التحية الودية فى إحدى الثقافات،

ومع ذلك فبإمكاننا العثور داخل تلك القيود على أحد التصنيفات الإجمالية للأفعال التي يمكن استخدامها للتعبير عن التحيات الودية، حيث يستطيع المرء الحديث - داخل عالم الممكنات الثقافية المتاحة - عن العلامات بوصفها علامات عشوائية واصطلاحية، وكما كتب نوسوسير:

«في الحقيقة تقوم كل وسائط التعبير المستخدمة في أي مجتمع من المجتمعات في الأساس على أحد الأعراف الجمعية، أي تقوم - بتعبير آخر - على الاصطلاح. فمع أن علامات التهذيب - على سبيل المثال - قد تمتلئ بالتعبيرية التلقائية (وليتأمل المرء طريقة انبطاح أحد الصينيين أمام الإمبراطور تسع مرات بوصفه الأسلوب الأمثل للتحية) إلا أنها قد حددت بقاعدة *a rule* فالمرء لا يستخدم علامات التهذيب لقيمتها التكوينية، وإنما يستخدمها لتلك القاعدة. وعلى أي حال يمكن القول إن العلامات العشوائية الخالصة هي العلامات الوثيقة بالمثال السيميولوجي. وهذا هو الذي يجعل من اللغة - مع أنها أكثر الأنساق التعبيرية تعقيداً وانتشاراً - النسق السيميولوجي، الأكثر تميزاً، ويجعل بالإمكان أيضاً استخدام علم اللغة بوصفه نموذجاً لعلم العلامات، هذا مع أن اللغة في الأساس ماهي إلا نسق من أنساق هذا العلم»^(٤). وبمجرد أن يتخذ المرء من علم اللغة نموذجاً لعلم العلامات سيكون بإمكانه أن يتجنب الخطأ الشائع بأن للعلامات (التي تبدو طبيعية للذين يستخدمونها) معنى تكوينياً، وبأنها لا تستلزم أي أعراف أو اصطلاحات.

ما أهمية هذا الرأي؟ ولماذا ينبغي على المرء تأكيد الطبيعة الاصطلاحية للعلامات غير اللغوية؟ والإجابة على مثل هذه الأسئلة بسيطة للغاية: لو كانت العلامات طبيعية عندئذ لن يوجد فيها ما يمكن تحليله بالفعل، حيث يمكن أن يقرر المرء - على سبيل المثال - أن فتح أحد الرجال لأحد الأبواب المغلقة لإحدى السيدات بدلاً منها فعل يتسم بالتهذيب، ويصبح ذلك هو كل ما في الموضوع، ولكن حين يفترض المرء أن العلامات اصطلاحية فسوف يستتبط على نحو دقيق الأعراف التي استندت إليها، ويكتشف النسق الكامن الذي جعل من العلامات علامات. ومثلما تدفع الطبيعة العشوائية للعلامة - في علم اللغة - المرء للتفكير في نسق الاختلافات الوظيفية الذي يخلق العلامات اللغوية، فسوف تقوده أيضاً في الحالات الأخرى غير اللغوية إلى التركيز على الاختلافات الدالة، أي الاختلافات والتقابلات التي تحمل المعنى. ما الذي يميز بين إحدى التحيات المهذبة والأخرى غير المهذبة؟ أو ما الذي يجعل من أحد

(٤) Course, p. 48; Cours, pp. 100-1.

الأثواب ثوباً مسائراً للأزياء ومن ثوب آخر ثوباً غير مسائر لها؟. وعندئذ سوف يصل المرء إلى دراسة نسق العلامات - ليس العلامات المستقلة فحسب - وإنما أحد أنساق التمييزات.

١ - مجال علم العلامات:

فى الواقع لم يتم احتراف اقتراحات نوسوسير المتعلقة بعلم العلامات مباشرة، حيث لم يبدأ العلماء فى التحقق من أهمية اقتراحاته الخصبة إلا فى منتصف هذا القرن تقريباً أى بعد سنوات طويلة من نشر كتاب «محاضرات فى علم اللغة العام»، وهكذا بدا الأمر كما لو كان مقدراً على فروع المعارف المستقلة تطوير تقنياتها الخاصة، وأن تعيد اكتشاف رؤى نوسوسير لحسابها الخاص قبل أن تشيع هذه الرؤى بوصفها رؤى سيميولوجية دارجة، وفى الحقيقة لم تظهر البنيوية 'Structuralisme' إلى حيز الوجود إلا حين أدرك علماء الأنثربولوجيا ونقاد الألب وغيرهم أن الاقتداء بعلم اللغة يمكن أن يساعدهم فى توسيع ما كانوا يرغبون فى إنجازه داخل فروع معارفهم الخاصة وإثبات شرعيته، ولذلك فبمجرد أن بدأ هؤلاء فى التسليم بعلم اللغة بوصفه نموذجاً لفروع معارفهم الخاصة تيقنوا من أنهم لم يكونوا يقومون فى الواقع سوى بتطوير «علم العلامات» الذى اقترحه نوسوسير منذ زمن بعيد.

وهكذا يعرف الأنثربولوجى المشهور كلود ليفى ستروس **C. Lévi Strauss** الأنثربولوجيا فى الخطاب الافتتاحى لمقرر الأنثربولوجيا الاجتماعية فى الكوليج نو فرانس **Collège de France** عام ١٩٦١ بأنها فرع من علم العلامات، ويعلن البيعة الكاملة لنوسوسير بوصفه الرجل الذى قدم - أثناء مناقشته لعلم العلامات - أسس التصور الحقيقى للأنثربولوجيا، هذا مع أنه قبل هذا التاريخ بخمسة عشر عاماً، أى فى الفترة التى ظهر فيها مقال: التحليل البنائى فى علم اللغة والأنثربولوجيا **Structural Analysis in Linguistics and Anthropology** كان ليفى ستروس قد اتجه بالفعل إلى مفهومات علم اللغة ومناهجه بغاية إنشاء فرع البنيوية الخاصة به.

فى هذا المقال يتحدث ليفى ستروس عن الانتصارات التى أحرزها علم اللغة (على الأخص فى مجال علم الفونولوجى)، التى جعلت منه أحد فروع المعارف العلمية البارزة، ويقول: إن بمقدور علم الفونولوجى تقديم يد العون، وأن يقوم فى مجال العلوم الاجتماعية بالدور الإصلاحي نفسه الذى قامت به الفيزياء النووية فى مجال العلوم الدقيقة، ويقترح ضرورة اتباع عالم الأنثربولوجيا مثل عالم اللغة. فعالم الفونولوجى لا

يدرس «الحدود» المعزولة، وإنما يدرس العلاقات القائمة بين تلك الحدود وأنساق العلاقات، فهو ينتقل من دراسة الظواهر التي فهمها متحدثوا إحدى اللغات وعرفوها بشكل واع إلى دراسة البنية التحتية غير الواعية بها، إنه يسعى لتحديد أنساق العلاقات المعروفة بشكل غير واع فقط. ولكن ما الدرس الذي يمكن أن يخرج به العالم الأنثربولوجي من ذلك؟ يجيب ليفي ستروس: «يمكن لعالم الأنثربولوجيا اتخاذ علم الفونولوجي بوصفه مثالاً في المنهج: يمكن لعالم الأنثربولوجيا عند تحليل الظواهر الدالة، وعند بحث الأفعال أو الموضوعات ذات المعنى التسليم بوجود نسق كامن من العلاقات والسعى لفهم ما إذا كانت معاني العناصر أو الموضوعات المستقلة تعد إحدى النتائج المترتبة على التقابلات القائمة بينها والعناصر والموضوعات الأخرى داخل نسق العلاقات الذي لم يعيه أعضاء الثقافة بعد أم لا»^(٥).

لقد لخص نيكولاي ترويتسكوي N. Trubetzkoy بالفعل في كتابه مبادئ علم الفونولوجي **Principles of Phonology** (١٩٣٩) المضامين الميثولوجية للنظرية الفونولوجية بالنسبة للعلوم الاجتماعية، وقد كان هذا التلخيص انتصاراً لعلم العلامات كما اقترحه دوسوسير، في حين يهتم عالم الصوتيات **Phonetician** بخواص الأصوات الكلامية الفعلية (أي بوصفها ظاهرة طبيعية)، يهتم عالم الفونولوجي **Phonologist** بتصوير الملامح الاختلافية (الوظيفية) للأصوات الكلامية في إحدى اللغات (أي بوصفها ظاهرة ثقافية). والبحث (على خلاف عالم الصوتيات) عن الاختلافات الصوتية التي ارتبطت باختلافات المعاني، وعن كيفية ارتباط العناصر الاختلافية فيما بينها، وعن كيفية توافقها معاً لتشكيل الكلمات والعبارات، ويستمر ترويتسكوي قائلاً: من الواضح أنه ليس بمقدور عالم الفونولوجي إنجاز هذه المهام عن طريق مناهج العلوم الطبيعية (ومن بينها علم الصوتيات) التي تهتم بالخواص التكوينية للظواهر الطبيعية ذاتها وإنما عن طريق فهم المقدمات الاختلافية التي تعد بمثابة حوامل الدلالات الاجتماعية. بمعنى آخر لا يوجد في العلوم الطبيعية شيء يرتبط بالتمييز بين «اللغة **langue**» و«الكلام **parole**»، فالعلوم الطبيعية لا يوجد فيها عرف أو نسق اصطلاحى يوجب دراسته، في حين تهتم العلوم الإنسانية والاجتماعية بالاستخدام الاجتماعى للموضوعات المادية، ولذلك لا تهتم العلوم الطبيعية عادة بالتمييز بين الموضوعات ذاتها ونسق المقررات التمييزية أو الاختلافية التي تمنح تلك الموضوعات القيمة والمعنى.

(٥) يمكن العثور على مقال ليفي ستروس هذا في كتاب «الأنثربولوجيا البنائية» (١٩٦٨). أما ما يتعلق بالتقييم الدقيق لأعماله فما يختص بالعلامات انظر:

E. Leach,; Lévi Strauss; in Fontana Modern Masters.

ويناقش ترويتسكوى، تتماثل محاولات وصف هذه الأنساق تماماً مع البحث فى علم الفونولوجى، ويستشهد بدراسة الأزياء كما يجريها أحد علماء الأنثربولوجيا أو أحد علماء الاجتماع بوصفها مثلاً لهذا التماثل. فقد يكون لكثير من المعالم الفيزيائية الخام للأثواب عند مرتديها أهمية كبرى، ومع ذلك لا تشكل تلك المعالم الفيزيائية للأثواب بذاتها أية أهمية لعالم الأنثربولوجيا الذى لا يهتم سوى بالمعالم التى تنطوى على إحدى الدلالات الاجتماعية. وهكذا قد ينطوى طول الجزء السفلى للأثواب فى النسق الاجتماعى الخاص بإحدى الثقافات على قدر كبير من الدلالة، فى حين لا تنطوى المادة التى صنعت تلك الأثواب منها فى النسق الاجتماعى ذاته على أية دلالة تذكر، علاوة على ذلك قد يكون لارتدائى الملابس الكاكية اللون معنى اجتماعياً جديراً بالاعتبار، ومع ذلك فقد يقول الواقع إننى أفضل ارتداء الملابس الرمادية عن الملابس البنية، أو إننى لا أحبذ ارتداء الملابس المصنعة من الخامات الصوفية، ولذلك يتم إدراج مثل هذه التفضيلات ضمن نطاق الاختيارات الشخصية المحضة التى ليس لها أية علاقة بالدلالة الاجتماعية.

وهكذا فمثلاً يحاول عالم الفونولوجى تحديد الاختلافات الصوتية التى تنطوى على معنى، وتلك الاختلافات الصوتية التى لا تنطوى على أى معنى، يحاول عالم الأنثربولوجيا (أو عالم الاجتماع) الدارس للأزياء أن يعزل المقومات التى تنطوى على الدلالة الاجتماعية عن تلك المقومات التى لا تنطوى على أية دلالة اجتماعية، أى يحاول إعادة بناء نسق العلاقات والتمييزات التى تُمثِّلُه أعضاء المجتمع واستوعبوه، وهو النسق الذى يكشفون عنه حين يتخنون من أزياء بعينها علامة على أحد أساليب الحياة، أو على أحد الأنوار الاجتماعية أو على أحد الاتجاهات الاجتماعية السائدة. باختصار يهتم عالم الأنثربولوجيا (أو عالم الاجتماع بالمقومات التى تحولت بناء عليها الأزياء إلى علامات.

مثل عالم اللغة تماماً يحاول عالم الأنثربولوجيا (أو عالم الاجتماع) توضيح المعرفة المستترة التى تمكن أبناء المجتمعات من التواصل فيما بينهم، ومن فهم سلوك بعضهم بعضاً، فهو يحاول تفسير الحقائق المتعلقة بالمعرفة المستترة لأبناء المجتمع حين يُنظر لأحد الأفعال على أنه فعلاً مهنياً ولفعل آخر على أنه ليس كذلك. أو حين يكون أحد الأزياء ملائماً لأحد المواقف وغير ملائم لموقف آخر. فمتى وجدت معرفة أو سيطرة أياً كانت ملامحها (الاصطلاحية) وجد نسق يجب تفسيره، وهذا هو المبدأ الأساسى الذى يوجه التقدير الاستقرائى من علم اللغة إلى فروع المعارف الأخرى، شرط أن لا

تكون المعانى التى نسبها أعضاء إحدى الثقافات للموضوعات أو للأفعال بمثابة ظواهر عشوائية محضة، وبالتالي يجب أن يوجد دائماً نسق سيميولوجى من التمييزات والمقولات وقواعد التراصف كى يتطلع المرء لتفسيره.

وهكذا يصبح بمقدور المرء أن يعين لعلم العلامات ميداناً عريضاً للبحث، ولكن لو عد المرء أى شئ له معنى داخل أية ثقافة بمثابة علامة، وبالتالي عده موضوعاً للبحث السيميولوجى، فسوف ينتهى الأمر بعلم العلامات إلى احتواء معظم فروع المعارف فى مجال الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، حيث يمكن فهم أى ميدان من ميادين النشاطات الإنسانية (سواء أكان الموسيقى، أم فن العمارة، أو أساليب الطبخ، أو أداب السلوك، أو الدعاية والإعلان، أو فن حياكة الملابس، أو الأدب) فى ضوء المصطلحات السيميولوجية.

قد يعترض بعض العلماء على هذا النمط من علم العلامات الاستعماري الذى يسعى بهذا الأسلوب إلى تطوير الكثير من فروع المعارف الأخرى، على اعتبار أن الظواهر الدالة التى يصادفها المرء فى تلك الميادين المعرفية ليست متشابهة، حتى وإن عدت معظم النشاطات والموضوعات الإنسانية «علامات» فإنها ليست «علامات» متماثلة، وهو اعتراض معقول وله وجاهته بالتأكيد، لأن أحد المهام الأساسية لعلم العلامات هو التمييز بين مختلف أنماط «العلامات» والتحقق من أساليب دراستها المختلفة.

لقد تم بالفعل اقتراح عدد من نماذج العلامات، ومع ذلك لم يصمد من تلك النماذج المقترحة (استجابة لداخل مختلفة) سوى ثلاثة نماذج أساسية: الأيقونة icon، الدليل index، والعلامة sign بالمعنى الضيق للكلمة (وقد يطلق على المصطلح كلمة «رمز symbol» خطأً)، فكل العلامات تتكون من دال signifier، ومدلول signified، أى تتكون من أحد الأشكال المحددة وأحد المعانى المحددة التى ارتبطت به، ومع ذلك لا تتماثل العلاقة بين «الدال» و«المدلول» فى كل نموذج منها، حيث تستخدم «الأيقونة» شبيهاً حقيقياً بين الدال والمدلول، فتشير صورة الوجه (رسماً أو نحتاً) إلى الشخص الذى تمثل تلك الصورة صورة وجهه، ليس بأحد الأعراف العشوائية وإنما بالشبه، ويستخدم «الدليل» علاقة «علية» أو «سببية» بين الدال والمدلول، فوجود الدخان يدل على وجود النار، لأن النار عموماً هى سبب الدخان، وظهور الغيوم يعنى سقوط المطر إذا كانت هذه الغيوم من نوعية الغيوم التى تمطر، وتدل آثار الأقدام على نوع الحيوان الذى تركها. أما «العلامة» بالمعنى الضيق للكلمة فهى تستخدم علاقة عشوائية واصطلاحية كلية بين الدال والمدلول، فمصافحة الأيدي بالأسلوب المتعارف عليه يدل على التحية، وحلو الطعام هو الطعام المناسب لإنهاء الوجبات وفقاً للأعراف... وهكذا.

ولكن ما المرامى التى يرمى إليها هذا التقسيم الثلاثى لعلم العلامات؟ فى الحقيقة ينحصر المرمى الرئيسى الذى يرمى إليه هذا التقسيم فى جعل العلام **sign** بالمعنى الضيق للكلمة الموضوع الرئيسى لعلم العلام، واعتبار دراسة العلامات الأخرى بمثابة أحد النشاطات الثانوية المساعدة لهذا العلم، فدرس الأسلوب الذى تمثل به أحد رسومات الحصان، أو الذى تمثلت به إحدى الصور الفوتوغرافية التى التقطت للحصان ذاته قد يبدو وكأنه جزء من نشاط علم العلامات. ومع ذلك فهو لا يُدرج ضمن اختصاص علم العلامات، ذى الأساس اللغوى، وإنما يُدرج ضمن اختصاص النظرية الفلسفية للتصوير. فقد يقوم علم العلامات بتعيين هوية العلامات الأيقونية والتمييز بينها، ومع ذلك فإن درس الأيقونات ذاتها لا يُدرج ضمن النشاطات الرئيسة لهذا العلم.

أما الأدلة **indices** فهى من أكثر العلامات مراوغة وأقلها ثباتاً من وجهة نظر دارس العلامات، ونظراً لأنه لو أدرجها (الأدلة) فى مجال دراسته (علم العلامات) فسوف يخاطر فى الوقت ذاته بإبراج المعرفة الإنسانية كلها فى دائرة تخصصه، حيث يمكن النظر لآى علم يسعى لإقامة العلاقات العلية بين الظواهر على أنه علم يدرس الأدلة، وبالتالي سيتم إدراجه داخل نطاق علم العلامات، فقد يسعى الطب على سبيل المثال للربط بين الأمراض والأعراض، فاكتشاف أعراض أحد الأمراض لا يتم سوى بتعيين العلامات التى تدل على وجوده وبالعكس، فلتعيين مرض ما يجب تحديد الأعراض التى تمثل العلامات الخاصة به، وقد يسعى علم الأرصاد الجوية كذلك لتأسيس النسق الرابط بين أسباب الظروف الجوية ونتائجها. ومن ثم تتم قراءة الظروف الجوية بوصفها علامات لأحوال الطقس، أما الاستثمار الاقتصادى فهو يعتمد على القراءة المناسبة للعلامات الاقتصادية، حيث يساعد علم الاقتصاد فى تعيين هوية العلامات الاقتصادية وقراءتها، باختصار تحاول كل فروع المعارف حل شفرة العالم الطبيعى أو العالم الاجتماعى، وتختلف مناهجها فى هذا الشأن، ومع ذلك فليس هناك مبرر للاعتقاد فى إمكانية التوصل إلى تحقيق مساعى تلك العلوم بالفعل حين ندرجها جميعاً تحت راية علم العلامات الاستعماري.

وتمثل «العلامات **signs**» بالمعنى الضيق للكلمة (أى حين تكون العلاقة بين «الدال» و «المدلول» فى العلامة علاقة عشوائية أو اصطلاحية) المجال الرئيسى لعلم العلامات، وبالفعل فإن محاولة فهم ميكانيزمات أمثال تلك العلامات يوجب دراستها بسيميولوجيا، فحين تغيب الحلقة العلية بين «الدال» و «المدلول» (وهى الحلقة التى تسمح

بدراسة العلامات المستقلة) ليس أمام المرء سوى إعادة تركيب النسق السيميولوجي أو نسق الأعراف التي تشتق منه العلامات هويتها. ويتعبير أدق فلعدم اتصاف تلك العلامات (العشوائية) بالحافزية يجب على المرء إعادة بناء النسق السيميولوجي الخاص بها لأن هذا النسق وحده هو الذي يقوم بتفسيرها.

على أى حال ليس بمقدور المرء إقصاء «الأدلة» كلية عن مجال علم العلامات حيث تشكل «الأدلة» بذاتها إحدى الحالات الهامشية المهمة والمثيرة في الوقت ذاته، وفي الحقيقة يمكن استخدام أى دليل من الأدلة بوصفه علامة من العلامات الاصطلاحية، لأنه متى تم الاعتراف بإحدى العلاقات السببية أو التدليلية بين «دال» معين و «مدلول» بعينه في إحدى الثقافات أصبح هذا «الدال» مرتبطاً بـ «مدلوله»، واعتاد في الوقت نفسه على استدعاء المعنى الذي ارتبط به، حتى في الحالات التي قد تغيب فيها تلك العلاقة السببية تماماً، على سبيل المثال متى تم الاعتراف بأن الدخان يعنى النار، فقد أصبح بإمكانى استخدام الدخان للتدليل على النار، حتى وإن لم يكن الدخان المائل في هذه الحالة نتيجة لنار حقيقية، فلقد استخدم «الدليل» فيما يبدو بوصفه إحدى العلامات الاصطلاحية.

بطبيعة الحال يمكن بتلك الطريقة المسرحية استخدام كثير من الأدلة بوصفها علامات اصطلاحية، فلو وضعنا على وجه أحد الممثلين مكياجاً كي يبدو كما لو أنه قد أصيب بالحصبة، فنحن نقرأ البقع المصطنعة وكأنها تدل على الحصبة بأحد الأساليب الاصطلاحية، ولن نفكر في تلك الحالة أن تلك البقع المصطنعة قد ارتبطت علياً بالحصبة. وعلى أى حال هناك قائمة ضخمة من الأدلة التي خضعت للاصطلاح والتي تندرج ضمن اهتمام دارس العلامات، لأنها تشكل ما يطلق عليه الميثولوجيا الاجتماعية الاصطلاحية للثقافات، وأفضل الأمثلة على تلك الأدلة الاصطلاحية هو ما يعرف باسم «رموز المكانة status symbols»، فكما يوحى الاسم ذاته فتلك الأدلة الاصطلاحية ليست مجرد أدلة للمكانة بل رموزاً لها، فعلى الرغم من وجود علاقة سببية أو جوهرية بين تلك الأدلة والمكانة التي تدل عليها، إلا أنها لم ترتق أو لم تُعزز إلا بفعل الأعراف الخاصة بترتيب الرموز أو منزلتها الاجتماعية، وتحميلها معنى أكبر من المعنى الذي تقتضيه طبيعتها العلية أو التدليلية. وهكذا فقد تعد السيارة الرولزرويس دليلاً على الثروة بالتأكيد، أى يجب أن يكون المرء ثرياً لكي يمتلك واحدة منها، ومع ذلك فالعرف الاجتماعي هو الذي جعل من هذه السيارة أحد رموز الثروة، أى جعل منها أحد الموضوعات الأسطورية التي تدل على الثروة بشكل أكثر هيمنة عن أى شئ آخر

قد يساويها في الثمن الباهظ، فمن بين كل الأشياء التي تدل على الغنى الفاحش انفردت السيارة الرولنزويس بتلك الدلالة نتيجة الاستخدام الاجتماعي لها بوصفها أحد رموز الثروة، ولذلك يدرج دارس العلامات الذي يقوم بدراسة الحياة الاجتماعية بوصفها نسقاً من العلامات «الأدلة» الاصطلاحية في مجال دراسته بالتأكيد^(٦).

علاوة على ذلك هناك طريقة أخرى يمكن لـ «الأدلة» أن تقتحم بها مجال دارس العلامات، ففي داخل العلوم تتغير معاني الأدلة وفقاً لتغير الوضع النسبي للمعرفة، على سبيل المثال تختلف قراءة الأعراض الطبية ويختلف أسلوب تأويلها من عصر لآخر وفقاً لتقدم المعرفة الطبية، حيث تتغير الأعراض الطبية ويتغير أسلوب تأويلها مع تغير العصور، وهكذا يصبح بمقدور دارس العلامات قراءة التغيرات في الطب بوصفها أحد الأنساق التأويلية وتحديدها، وقد يسعى هذا الدارس لاكتشاف الأعراف التي تحدد الخطاب الطبي في إحدى الفترات التاريخية أو تجيزه، أو التي تسمح بقراءة الأدلة الطبية، في مثل هذا البحث لا يهتم دارس العلامات بالعلاقة السببية الحقيقية بين الدليل والمعنى، وإنما يهتم بقراءة الأدلة «الطبية» داخل أحد أنساق الأعراف الطبية.

إن ما مجال علم العلامات؟ وإلى أي مدى تمتد إمبراطوريته؟

من الواضح أنه ليس لعلم العلامات حدود ثابتة، فهناك الكثير من الموضوعات التي يمكن دراستها سيميولوجياً إلا أنها لا تستلزم بالضرورة دراستها بهذا الأسلوب، وفي الحقيقة لكي يحدد المرء مجال علم العلامات عليه أن يحدد الضروب المختلفة للحالات الدالة التي قد يصادفها.

(١) يوجد في أعماق المشروع السيميولوجي أنساق العلامات الاصطلاحية التي استخدمت بغاية الاتصال المباشر، وتشمل هذه الأنساق: أولاً: النظم الشفرية المختلفة التي استخدمت في نقل الرسائل التي تشكلت في إحدى اللغات الطبيعية الخية كالإنجليزية مثلاً، مثل: شفرة مورس Morse code، الشفرات الملوحة (التي تستعمل لتنظيم مرور القطارات)، أو شيفرة برييل Braille، وكل النظم الشفرية التي اخترعت بهدف التكم والسرية، أو التي يمكن استخدامها لنقل إحدى الرسائل الإنجليزية. ثانياً: هناك سلسلة كاملة من النظم الشفرية المتخصصة التي استخدمت في نقل نمط خاص

(٦) فيما يتعلق بهذا المظهر من علم العلامات انظر الفصل الأخير من:

Roland Barthes; Mythologies; London 1972.

من المعلومات لجماعات قد لا تشترك في اللغة الطبيعية ذاتها، مثل الرموز الكيميائية، إشارات المرور، علامات الطرق، أختام الفحوصات الفضية، رموز الرياضيات، والعلامات المستخدمة في المطارات واللافتات... إلخ، أو المجموعات الرمزية المبهمة من النظم الشفرية الخاصة بالنبلاء أو بالمشتغلين بالكيمياء^(٧). فكل هذه الحالات تحتوى على علامات اصطلاحية قامت على نظم شفرية صريحة، فنظراً لأنها صممت بغاية تحقيق الاتصال السهل الواضح فقد أنتهج منهاج صريح فيما يتعلق بتشفيرها **encoding** وحل شفرتها **decoding**، تماماً وكأئنا نبحث عن إحدى المفردات في أحد المعاجم. فتلك النظم الشفرية تمثل الأمثلة المجردة للأنساق السيميولوجية، إلا أنه وبسبب وضوح معالمها هكذا فمن السهل دائماً وصف المبادئ التي نشأت عنها. وهكذا تثبت تلك النظم الشفرية عدم أهميتها لدارس العلامات مقارنة بالأنساق الأقل وضوحاً والأكثر تعقيداً التي تتدرج في تصنيفنا التالي.

(٢) أما النظم الشفرية الأكثر تعقيداً والأقل وضوحاً فهي تلك الأنساق التي يتحقق الاتصال بها يقيناً، بشرط أن يكون من الصعب تثبيتها وبشرط أن تتميز بالإبهام أو القابلية للتعديل، وهذه الأنساق نجدها - على سبيل المثال - في الأدب، فلكي نقرأ الأدب وتفهمه فأنت مطالب بما هو أكثر من معرفة اللغة التي كتب فيها، مع أنه من الصعب جداً إثبات المعرفة الإضافية اللازمة للتأويل المرضي للأعمال الأدبية بشكل دقيق، من المؤكد أن المرء لا يعالج نوعية النظم الشفرية التي قد تنوب عنها كتب مفاتيح الرموز أو النظام الشفري. وعلى أي حال فلأن المرء في هذه الحالة يعالج أحد الأنساق الاتصالية الغنية والمعقدة إلى أقصى الحدود، فإن الدراسة السيميولوجية للأدب والنظم الشفرية الجمالية الأخرى (مثل النظم الشفرية للرسم والموسيقا) تعد بذاتها إحدى الدراسات السيميولوجية المهمة إلى أبعد الحدود.

من السهل تحليل التعقيد الغامض لهذه النظم الشفرية، فلقد تم تصميم النظم الشفرية المتعلقة بالنمط الأول لإيصال الرسائل والأفكار العامة المعروفة بالفعل بأسلوب مباشر واضح تماماً، ومن ثم يقدم أي نظام شفري منها بشكل مباشر أحد التنويقات **notation** المقتصدة للأفكار العامة التي تم تحديدها بالفعل، أما أسلوب التعبير الجمالي فهو يهدف إلى إيصال الأفكار، وبقائق الذهن، والتعقيدات التي لم يتم

(٧) لقد ناقش جورج مونان G. Mounin هذه النوعية من الأنساق في كتابه: مقدمة لعلم العلامات: Introduction a La Sémiologie (باريس ١٩٧٠).

صياغتها بعد، فحالما يتم إبراز أحد النظم الشفرية عموماً بوصفه نظاماً شفرياً (وبوصفه أحد أساليب التعبير عن الأفكار العامة التي اتسقت بالفعل) تميل الآثار الأدبية للفن عادة في الانحراف عن هذا النظام الشفرى، حيث تنتبه الآثار الأدبية للنظام الشفرى وتتهكم منه وتشوّه ما دامت قد اكتشفت تحولاتها وامتداداتها الممكنة فيه، فبإمكان المرء أن يقول إن معظم تأثير الآثار الأدبية للفن يكمن فى الأساليب التى تكشف بها تلك الآثار الأدبية النظم الشفرية ذاتها التى تستخدمها وفى كيفية تعديلها لها. وهذا ما يجعل من البحث السيميولوجى لتلك الأنساق الأدبية بحثاً مناسباً تماماً وصعباً فى الوقت نفسه.

(٢) أما النوع الثالث من النظم الشفرية الذى يجب أن يتصدى علم العلامات له فهو يغطى الممارسات الاجتماعية التى قد تظهر وكأنها لا ترتبط بالاتصال مع أنها فى الواقع ترتبت تماماً وفقاً لسلسلة كاملة من التمييزات لأجل خلق المعنى واستخدامها بالتأكيد، حيث تمثل الشعائر والطقوس وآداب السلوك وأنساق الأعراف التى تقرر صنوف الطعام أو الملابس - كما هو واضح - أنساقاً سيميولوجية، فارتداء المرء لمجموعة من الملابس وعدم ارتدائه لمجموعة أخرى منها يقوم بإيصال شئ ما بالتأكيد وإن تم بأسلوب غير مباشر، وقد يتمادى المرء ويقر أن المباني التى نساكنها، والأشياء التى نشترىها، والأفعال التى نؤدىها تندرج جميعها ضمن اهتمام دارس العلامات لأن كل الفئات والمهام التى استثمرت فيها هى فئات ومهام سيميولوجية أساساً، ولكن هذا لا يعنى - على سبيل المثال - أن شراء أحد المنازل يعد بذاته فعلاً اتصالياً، وإنما يعنى فقط أن الاختلافات الموجودة بين المنازل قد استثمرت فيما يتعلق بمعناها داخل أحد الأنساق السيميولوجية، ومن ثم فاخيتار المرء لأحد المنازل وعدم اختياره لمنزل آخر يعنى أنه يتعامل مع صورة ذهنية تجسدت فى أحد المنازل (أحد الأكواخ الريفية، إحدى الشقق أو الفيلات الحديثة، إحدى فيلات العصر الفيكتورى... وهكذا) وليس فى منزل آخر، فقد يقرر المرء شراء أحد المنازل التى قد تظهر صورته الذهنية - لأسباب عملية صرفة - غير متجانسة (لطابعه المعماري، أو لحاجته الماسة إليه)، إلا أن المرء قد استغرق - برغم ذلك - فى أحد الأنساق السيميولوجية. وعلى أى حال تنحصر مهمة دارس العلامات عند معالجة الملابس أو الموضوعات التجارية أو أساليب التسلية وكل الكينونات الاجتماعية الأخرى فى توضيح المعانى المستترة التى تحملها، وفى إعادة بناء نسق الدلالات التى قامت تلك المعانى المستترة عليه.

(٤) وأخيراً فقد توصلنا إلى النظم الشفرية التى أغفلتها عن عمد على اعتبار أنها تتعلق بـ «الأدلة indices» وليس بالعلامات signs بالمعنى الضيق لها، فروع

المعارف المتعلقة بالعلوم الطبيعية والاجتماعية التي تحاول تأسيس علاقات السبب والنتيجة بين الظواهر التي تدرسها، والتي تنتظر لمعنى الموضوع أو الفعل على أنه النتيجة المترتبة على العنصر الشرطي السببي السابق، أو تنتظر إلى دلالة في إحدى المخططات السببية، وكما وضع سابقاً أنه على الرغم من أن فروع المعارف هذه لا تعد بذاتها فروع معارف سيميولوجية، فإن ذلك لا يعنى أنها لا تتدرج ضمن اهتمام دارس العلامات، فعلى الرغم من أن موضوعات دراسات العلوم الطبيعية والاجتماعية لا تعد بذاتها «علامات» بالمعنى الضيق، إلا أن هذه العلوم ذاتها بوصفها فروعاً من المعارف، وبوصفها «لغات» أو أنساقاً يمكن دراستها بوصفها أنساقاً سيميولوجية.

وهو أمر ينطبق على أى حال على وضع العلوم التي تقابل الآن بالرفض مثل علم التنجيم **Astrology**. فنتيجة لعدم اعتقادنا فى العلاقات السببية التي يقيمها المنجمون بين حركات الكواكب والأحداث الواقعة فى حياة الأشخاص، يكون من السهل دراسة علم التنجيم بوصفه نسقاً من الأعراف، وبإمكان دارس العلامات أن يتساءل فى هذه الحالة عن القواعد أو عن الأعراف التي يستخدمها المنجمون لنسب المعنى للوضع النسبى للأجرام السماوية، أو عن الأعراف التي يقرها علم التنجيم كى يصبح المرء أحد المنجمين.

ونحن لا نتردد فى التسليم فى هذه الحالة بأننا بصدد أحد أنساق العلاقات التي يمكن استنباطها: فى الحقيقة لو تأملنا المسألة فسوف نفهم أن تحليلنا السيميولوجى لن يتأثر بأى حال إذا أثبتت الاكتشافات العلمية فى المستقبل أن كل ما قاله المنجمون كان صادقاً أو لم يكن، لأن قائمة القواعد ذاتها لا تزال كامنة فى الخطاب التنجيمى سواء أكانت التنبؤات المقدمة صادقة أم كانت تنبؤات مزيفة. وهكذا يمكننا توسيع حدود علم العلامات. بإمكان علم العلامات دراسة الأعراف التي تقرر خطاب أى فرع من فروع المعارف وتأويلاته. وعند دارس العلامات لا يشكل صدق قضايا أى فرع من فروع المعارف أو زيفها أية أهمية بالنسبة له، فلو أصبح كل ما يؤكد علم النبات **Botany** اليوم من إفادات - على سبيل المثال - مدحضاً فى المستقبل فلن يؤثر ذلك بأى حال فى أى تحليل سيميولوجى لأعراف علم النبات بوصفها نسقاً من العلامات، فعلم النبات لا يمثل فى الواقع حاصل جمع الإفادات الحقيقية للنباتات، وإنما هو أحد أنساق الخطاب، وفى كل العصور يوجد الكثير مما يمكن قوله بصدق حول النباتات (مثل ضرورة رعاية الزهور بشكل منظم أو ضرورة استئصال الأعشاب البرية بانتظام وما شابه ذلك) ومع ذلك لا تتدرج تلك الأقوال ضمن ميدان علم النبات،

ولا يهتم دارس العلامات في العادة سوى بالأعراف التي تؤدي إلى التسليم ببعض الإفادات في ميدان علم النبات، وإلى إقصاء بعضها الآخر. وعلى الرغم من ذلك فهناك من بين فروع المعارف من يعير نفسه بسهولة للتحليل السيمولوجي (كالطب، الأرصاد الجوية، التحليل النفسي، علم التنجيم)، ومن ثم تهتم فروع المعارف هذه أكثر من غيرها - كما هو واضح - بقراءة العلامات وتأويلها، وفي الحقيقة فعلى هذا المستوى يمكن دراسة أى نسق من أنساق الخطابات المعرفية سيميولوجياً، لأنه يعد بذاته نسقاً من أنساق العلامات.

٢ - ملامح التحليل السيمولوجي :

لقد ساعد استخدام علم اللغة - كما اقترح بوسوسير - بوصفه نموذجاً لعلم العلامات على لفت الانتباه إلى الطبيعة الاصطلاحية للعلامات والطبيعة الاختلافية للمعنى، ومع ذلك فقد اتضح للعلماء أن بعض مفهومات التحليل اللغوي وتقنياته كانت أكثر ملائمة لبحث بعض الأنساق - نتيجة لتفرع أنساق العلامات الذي أشرت إليه - دون الأخرى. وعلى كل حال يميز المحلل في كل الأحوال بين اللغة *langue* والكلام *parole*، ويحاول تجاوز الأفعال والموضوعات ذاتها إلى أنساق الأحكام *rules* والعلاقات التي تسمح لها بكسب المعنى، وفي معظم الحالات سيكون بمقدوره تعيين العلاقات التراصفية *syntagmatic* والعلاقات الاستبدالية *paradigmatic* : أى العلاقات القائمة بين العناصر التي يمكن ضمها معاً لتشكيل وحدات المستوى الأعلى، والعلاقات القائمة بين العناصر التي يمكن أن تحل محل بعضها بعضاً، والتي تتضاد بالتالي فيما بينها لتوليد المعنى. ومع ذلك فقد يكون النظم *Syntax* في بعض الأنساق ضعيفاً على نحو لا يسمح بوجود العلاقات «التراصفية» غالباً. فعلامات المرور (على سبيل المثال) لا تتضمن في العادة أكثر من وحدة واحدة حتى إن استخدمت تركيباً مكوناً من أكثر من وحدة واحدة (كما نجد أحياناً في اللافتات التي تشير إلى أحد الأخطار والرسوم التي تعين نوعية الخطر)، وعلى ذلك تعد العلاقة التركيبية فيها علاقة مباشرة وغير ذات أهمية، وبالتبادل ففي بعض الأنساق قد تكون التضادات «الاستبدالية» الأولية محدودة إلى أقصى الحدود، فلا يوجد في شفرة مورس (على سبيل المثال) سوى تضادين اثنين فقط : الضوضاء مقابل الصمت، والقصر مقابل الطول، وفي بعض الأنساق قد تكون التضادات الاستبدالية تضادات ضعيفة من الناحية الدلالية، على سبيل المثال تسجل مبعضات ليفيتكاس *Leviticus* الحيوانات، حيوان مسموح بأكله وآخر محظور أكله. وبإمكان المرء وبشيء من البراعة إعادة بناء نسق القواعد الذي يعين

الدلالة للحيوانات منفردة، هذا مع أن هذا النسق لا يولد سوى مغنيين فقط، النظيف والملوث (أو المسموح به والمنوع).

وباستثناء ذلك ففي معظم الأنساق توجد علاقات «تراصفية» وتضادات «استبدالية»، وتوجد تشكيلة متنوعة من المعاني التي يمكن توليدها بالتضادات والعلاقات المختلفة، ففي نسق الطعام - على سبيل المثال - يمكن للمرء أن يحدد على المحور التراصفي توافقات ألوان أو صنوف الطعام التي يمكنها ابتكار وجبات من كل الأنواع، ويمكن في هذا النسق شغل كل صنف من الطعام بأحد الأطباق الداخلة في تضاد استبدالى فيما بينها (ليس بمقتور المرء التوفيق بين اللحم المشوى، وقطع لحم الجمل في وجبة واحدة لأنهما بدلان في أية قائمة من قوائم الطعام) وغالباً ما تحمل الأطباق التي قد يتم التبديل بينها معان مختلفة بحيث تفيد ضمناً درجات متباينة من الترف، الأناقة ... إلخ.

على أى حال فقد تعقدت معظم الأنساق السيميولوجية بحقيقة اعتمادها في الواقع على أنساق أخرى وعلى الأخص نسق اللغة، وهكذا تعد أنساقاً من «الرتبة الثانية»، وخير ممثل لهذه الأنساق الأدب فهو يتضمن في الأساس لغة، أما الأعراف التكميلية له فهي الأعراف الخاصة بالاستخدامات المميزة للغة. وهكذا - ولنضرب أحد الأمثلة المباشرة - يمكن فهم الصور البلاغية كالاستعارة *metaphor* والكناية *metonymy* والمبالغة *hyperbole* والمجاز المرسل *synecdoche* بوصفها عمليات خاصة بأحد النظم الشفرية الأدبية من نوات المرتبة الثانية، فحين يكتب شكسبير *but thy eternal summer shall not fade* فإن كلماته تمثل علامات لديها معناها الحرفى في النظام الشفرى اللغوى للغة الإنجليزية، ومع ذلك فالصورة البلاغية للاستعارة هي التي تسمح للمرء بأن يستخدم العلامات اللغوية *eternal summer* لى يفيد شيئاً مثل: "الجمال الواهن الذى سيبقى فى نروته دائماً"، علاوة على ذلك يوجد فى شعر الحب عرف لخلق إطار مبالغ فيه من هذا النوع، وهو عرف يعتمد على استعارات الطبيعة والعمليات الطبيعية، بوصفها أحد الأشكال الملائمة للمديح.

والآن فمن الواضح أن نسق الأدب - أى المعرفة التي يجب على المرء أن يكتسبها علاوة على معرفة اللغة لى يقرأ الآثار الأدبية ويؤولها - لا يتضمن أياً من النظم الشفرية الصريحة التي احتوتها أنساق علامات المرور أو آداب السلوك. يستطيع المرء أن يتعلم مختلف أساليب تأويل اللغة التصويرية، والأعراف التي تقرر الأجناس الأدبية *genres* المختلفة، وأنماط البناء الأدبى أو التنظيم الأدبى. ومع ذلك فالأدب

يقوض باستمرار أساس أى شئ قد يهدده بجعله أحد النظم الشفرية الصارمة، أو قد يجعل منه مجرد قواعد صريحة للتأويل ويتهكم منه ويتملص دائماً. ففي حين لا تنتهك علامات المرور حرمة النظام الشفرى لعلامات المرور تنتهك الآثار الأدبية باستمرار حرمة النظم الشفرية للغة، وهذا لأن الأدب فى الأساس ما هو إلا اكتشاف لإمكانات الخبرة، واستفهام عن الفئات الموجودة فيها وتعميقاً لها، وهى الإمكانيات التى نشاهد من خلالها أنفسنا والعالم عادة. ولذلك تقوم النظم الشفرية الأدبية بإحدى الأدوار المهمة بإتاحتها تلك العملية الإستفهامية والتعميقية للخبرة، ففي حين تجعل قواعد آداب السلوك - على سبيل المثال - من السلوك سلوكاً مهذباً أو سلوكاً غير مهذب. فإن الآثار الأدبية لا تستلقى كلية هكذا داخل النظم الشفرية التى تحددها، وهذا هو ما يجعل من البحث السيميولوجى للأدب مشروعاً مفنياً إلى هذا الحد^(٨).

فى سلسلة من التعليقات غير المنشورة حول الخرافات الجرمانية فى القرون الوسطى يكشف نوسوسير عن اهتمامه بسيميولوجيا الأدب **Semiology of Literature** ويكشف عن وعيه ببعض المشكلات التى يطرحها هذا العلم. يكتب نوسوسير : «تتألف أية خرافة من سلسلة من الرموز التى تبقىها من بعض النواحي قائمة مستقلة بذاتها»، فلقد تقرر تلك الرموز - على الرغم من صعوبة تحديدها على الخلاف من وحدات أية لغة - بالتأكيد مثلها فى ذلك مثل العلامات الأخرى وفقاً للمبادئ ذاتها، حيث تشكل جزءاً من علم العلامات^(٩). فى حالة الأدب كما فى حالة اللغة أو الأنساق السيميولوجية الأخرى تنحصر المشكلة الأساسية فى تحديد الهوية. فى الأدب لا يعالج المرء علامات ثابتة إلى حد أن شكلاً بعينه سيكون له دائماً المعنى ذاته أينما ظهر، وإنما على النقيض من ذلك يعالج علامات غير ثابتة، فالأثر الأدبي يصاغ دائماً من العلامات الأسبق فى الوجود على وجوده هو، «مؤلفاً بينها، ومنتزعا منها معنى جديداً باستمرار». ويتوصل نوسوسير بالفعل - مع الأخذ بعين الاعتبار مشكلة الشخصيات **characters** فى الخرافات الجرمانية - إلى استنتاج أن المرء يجابه فى تلك المشكلة

(٨) فيما يتعلق بالدراسة البنيوية والسيميولوجية للأدب انظر :

J. Culler (1975) : *Structuralist Poetics : Structuralism, Linguistics and the Study of Literature*; London & Ithaca.

(٩) وهذا النص مقتبس من :

Jean Starobinski (1971) : *Les Mots sous les mots*; Paris, p. 15.

سلسلة خلاصة من عناصر (الأسماء لشائعة لوصف، لعلامات بين لشتتصيات، لتصرلات) ونسك لما يعبر المرء عنه بوصفه إحدى لشتتصيات لايمثل لى الحقيقة شيئاً سوى تمثيل دور لسقارئ، أى أنه لستيجة المترتبة على المقارنة المتواصلة سلعناصر المتفاوتة لستى يصادلها لسقارئ حين يقرأ لنص بسكصل وعلى عملية لستوييف بينها (١٠).

ويكشف بوسوسير لى تلك الملاحظة لسميقة بالمصادمة عن أحد أنساق الأعراف المهمة لى الأدب، وهو أن الآثار الأدبية لشتتصيات صكوصة دائماً بمجموعة من لسماذج لستقالية لستى تمكنا - على سبيل المثال - من الاستدلال على لسوالع من لملعل، أو الإستدلال على صفات لشتتص من صظهره. وهكذا سولنا أن إحدى لشتتصيات مد تغيرت لى سياق إحدى لسروايات أو لسقصص، لأن صا نقوسه لى هذه الحاسة وبلغه لسنماذج الأدبية لشتتصية سينا هو أن لسفطين أو لسففتين لساتين نسبنا لسى إحدى لشتتصيات المحددة باسذات يشكان تقابلين، لأنهم لصتنا لران : لولقا يتصوراتنا لشتتصية سولعل أحد الأشتناص لى لسبداية x ثم لعل بعد نسك y للا نستطيع أن نترك نسك إلا بقوسنا أن شتصية لشتتص ذاتة مد تغيرت.

٣ - الجنس التصحيفى ومركزية اللوجوس :

على لسرغم من رؤية بوسوسير لصحيحة سسيموسوجيا الألب إلا أن صلاخطاته حوسها خانت صلاخطات نامصة وصع نسك خان هناك صشروع آخر وثيق لصصلة بسسيموسوجيا الألب خرس بوسوسير سه نفسه لى أواخر حياته، وترك سنا صلاخطات غزيرة حوسه، هذا على لسرغم من عدم تجربته على نشر شئ حول هذا الموضوع، لقد طور بوسوسير لسنظرية لستى تذهب لسى تعمد لشعراء لسلاطينين حجب الجنسات لستصحيفية anagrams لأسماء الأعلام لى مصائدهم. ومد اعتقد بوسوسير بنسك أنه لختشف أحد أنساق لسطهيات الإضالية أو صجموعة الأعراف الحميمة لسلازصة لإنتاج المعنى، وسقد صلا بوسوسير عدداً خبيراً من لسكراسات بملاخطاته حول صتتلف أنماط

(١٠) نقلاً عن :

D'Arco Silivio Avelle (1973) : 'La Sémiologie de la narrativité chez Saussure' in

Essais de la théorie du texte, ed. C. Bouazis, Paris , p. 33.

الجناسات التصحيفية التي اكتشفها (حروف تتأثرت في متن النص text، بترتيبها الصحيح حيناً، ومع تغير في ترتيبها حيناً آخر، ومثنى وثلاث ... إلخ أحياناً آخر) وهكذا اكتشف بوسوسير في السطور الثلاثة عشر الأولى من قصيدة لوكرتيس Lucretius المعنونة de rerum nature (والتي احتوت أحد الابتهاالات إلى فينوس Venus) ثلاثة جناسات تصحيفية للاسم اليوناني للمعبودة أفروديت^(١١) Aphrodite.

وهذا المثال مثال نموذجي بالفعل، فقد بحث بوسوسير عن الجناسات التصحيفية في أسماء الأعلام ذي الصلة بمحتوى الأبيات الشعرية، واهتم بالحالات التي تكررت في النصوص، ولم يهتم بالحالات العرضية أو الناتجة عن الصدفة. وبالفعل لقد جمع بوسوسير بعض الحالات المثيرة للإعجاب ومع ذلك فقد أجهده قضييتين جعلتا يترك تأملاته غير منشورة، القضية الأولى هي قضية « القصد »، وهي إحدى القضايا الحاسمة دون شك : لو كان الجنس التصحيفي يمثل بالفعل أحد الأعراف في الشعر اللاتيني، أي يمثل أحد الأعراف التي يتبعها الشعراء اللاتينيون، فإن السؤال عندئذ : لماذا لنعثر على أية إشارات إلى ممارسته أو على أية مناقشات حوله في النصوص الكلاسيكية ؟ والقضية الثانية هي أن التوصية التي أخذ بها (بشأن الترجيح الإحصائي للجناسات التصحيفية من النوع الذي اكتشفه) لم تكن مقنعة، وكما كتب في أحد الخطابات : «إنني في حيرة في أكثر القضايا أهمية، بمعنى هل على المرء التفكير في الواقع ، أم عليه التفكير في الخيال الجامع للمسألة بالكامل»^(١٢).

إلا أن السؤال المهم بطبيعة الحال هو ما الذي يجب علينا نحن التفكير فيه؟ هل كان ذلك يمثل - كما أشار أحد النقاد - إحدى لحظات الجنون عند بوسوسير، أم كان - كما ناقش آخرون - انتقاداً جذرياً منه للغة وعلى الأخص للعلامة؟ هل سيطرت على بوسوسير إحدى المشكلات الوهمية، أم أنه كان يحاول بالفعل اختراع أسلوب جديد في القراءة، وهو متحرر من قيود الشفرات اللغوية الاصطلاحية وعلاقات العلامة ؟.

(١١) فينوس : إله الحب والجمال عند الرومان.

أفروديت : إله الحب والجمال عند الإغريق.

Starobinski, op. cit., p. 138.

(١٢) نقلاً عن :

ولقد نشر ستاروبينسكي مقتطفات كثيرة من ملاحظات بوسوسير حول الجناسات التصحيفية.

فى اعتقادى أنه يمكن القول ويكل صراحة أن إقتناع بوسوسير بالجناسات التصحيفية لم يكن فى ذاته نقداً للعلامة، أو محاولة منه لهدم «العرف» كى يترك للقراء حرية إنتاج المعنى أو خلقه وفقاً لأساليبهم الخاصة. لأنه افترض خضوع الجناسات التصحيفية لأعراف إضافية صارمة، وبالفعل فهو لم ينظر إلى اكتشاف الجناسات التصحيفية فى النص على أنه شكل من أشكال التعبير عن الذات، أو على أنه هروب من التقيد. وعلاوة على ذلك لم تكن الجناسات التصحيفية بالنسبة لبوسوسير تكشف عن أحد الأسرار، أو عن أحد المعانى المتهمة وإنما كانت تدعم بالفعل كلمات أخرى - أى أسماء الأعلام - وهى الكلمات التى أكدت ماتضمنه النص فى ذلك الحين، فقد عززت تلك الكلمات المعنى الذى انطوت عليه العلامات الأخرى فى النص ولم تقوضه.

عندئذ ما الذى يمكن قوله عن نظرية بوسوسير؟ فقد ينظر المرء لنظرية بوسوسير من إحدى وجهات نظر التحليل النفسى ويقرر إنه اكتشاف بالفعل إحدى الحالات الخاصة لما عُرف بـ «إلحاح الحرف فى اللاوعى» عند قراءة شئ قد كتبه المرء مرة أخرى، من المعتاد أن يكشف المرء - بون أى معنى لذلك - أنه قد أعاد إحدى الكلمات بمعنيين مختلفين، أو أنه قد استخدم كلمات متماثلة فى الرنين فى حين متقارب ضيق وتفسير ذلك (افتراضاً) أن الكلمة الرئيسية قد بقيت فى اللاوعى القريب، وساعدت فى تحديد اختيار الكلمات اللاحقة. لقد أوحى لنا تفسير التحليل النفسى (وعلى الأخص ذلك التفسير الذى نجده فى كتاب فرويد S. Freud: «علم أمراض النفس فى الحياة اليومية») بأهمية القرائن اللفظية الصرف - القرائن من نوعية التورية punning والجناس التصحيفى - فى أداءات الوعى. وهكذا قد يكون لدى المرء المبرر الكامل للاقتناع بأن اللغة الشعرية poetic - التى تخلو من أى أهداف اتصالية محددة، والتى تمثل النطاق الأكبر لعمليات تداعى المعانى - تؤثر فى الكم الأكبر لتكرار الجناس التصحيفى.

لو أن الحالات المقنعة من الجناس التصحيفى اقتضت التكرار - كما اعتقد بوسوسير - فإن بإمكان المرء عندئذ ربط الجناسات التصحيفية بالعمليات الشعرية الأخرى، ففى إحدى الأبيات الشعرية عن بودلير Baudelaire:

Je sentis ma gorge serrée par gla main terrible de l'hystérie

تعيد الأصوات المكتوبة بالحروف المائلة is terri إنتاج الكلمة النهائية فى بيت الشعر: hystérie، فلقد أراد الشاعر (افتراضاً) نسيجاً صوتياً غنى الأثر ولذلك خلق

جناساً تصحيفياً، ومع ذلك فإن هذا الجناس التصحيفي الكامل أقل أهمية من أصداء:

"king fishers catch fire" و "hung.... swung..... tongue"

حيث تشكل الأوزان الشعرية **rhymes** والجناس الاستهلاكي **alliteration** والسجع **assonance** عناصر أساسية للجناسات التصحيفية، وحين تظهر تلك العناصر فليس هناك أهمية لما إذا كانت تلك العناصر قد أخذت شكل الجناسات التصحيفية أم لا، ذلك أن تأثيرات الخصوبة والتوكيد هي ذاتها صاحبة التأثيرات الحقيقية في كل الحالات.

يعود سبب الاهتمام الذي أظهره بعض دارسي أنساق العلامات وسيميولوجيا الأدب ببحث نوسوسير الخاص بالجناسات التصحيفية إلى رغبتهم في إبراز ما أطلق عليه مركزية اللوجوس **logocentrism** في الثقافة الغربية، وإلى اعتقادهم أن نوسوسير انتقل بهذا البحث من «العلامة» إلى «الحرف». ومن ثم فقد أُلغى عن التصورات المتمركزة حول اللوجوس لصالح المعنى^(١٢). باختصار يقتضى منظور «مركزية اللوجوس» الاعتقاد في أن الأصوات ما هي إلا تمثيل (أو صورة) للمعاني الحاضرة في وعي المتحدث. فالدال **signifier** ما هو إلا تمثيل أنى ينتقل بواسطته المرء لإدراك المدلول **signified** الذى يميل إليه المتحدث. أما الكلمة المكتوبة فهي شكل ثانوى ناقص، إنها تمثيل لإحدى المتتاليات الصوتية التى هي بذاتها أحد تمثيلات الفكر. ففي ضوء هذا النموذج يصبح «التأويل» بمثابة إحدى العمليات الشغوفة باستعادة الأوضاع الماضية واستعراضها، إنه محاولة لاكتشاف المفاهيم الحاضرة في وعي المتحدث أو الكاتب وقت الكتابة، وبالطبع تمثل «العلامة» من منظور «مركزية اللوجوس» - كما هو الحال عند نوسوسير - الوحدة الأساسية، أما الفونيمات **phonemes** والحروف **letters** فهي الوسائل المناسبة التى يمكن أن تستخدم (بالتأويل بينها) لتمثيل جوهر العلامة، أى لتمثيل المدلول.

على الرغم من جفاف ما استقر في الفكر الغربى، فإنه يمثل بالتأكيد التقاليد المركزية فيه، وكثير من تصريحات نوسوسير يمكنها أن تضعه داخلها بالخطأ. وهناك

(١٢) فيما يتعلق بمشكلة مركزية الكلمة وعلاقتها بنظرية نوسوسير انظر:

Jacques Derrida (1970): *De la grammatologie*, Paris.

Julia Kristeva, 'Pour une sémiologie des paragrammes' in *Semiotikè*, Paris 1969. and the special issue of *Recherches/ Semiotext*, 'Les Deux Saussures', (number 16, September, 1974).

مبرران رئيسان يسمحان بالإفلات من هذا الوضع، المبرر الأول منطقي، والآخر أخلاقي وسياسي، يذهب البرهان الأخلاقي والسياسي إلى أن المعنى ليس هو الشيء الذي نقوم باكتشافه مباشرة، وإنما هو هذا الشيء الذي نتججه أو نبده. حيث يجب على «التأويل» أن يغير العالم، وليس مجرد اكتشاف أحداث زمن مضى، وذلك لأن الاكتشاف هدف مستحيل، فليس بمقدور أى شخص فهم ما سبق أن مال إليه شخص آخر، وعلى الأخص لو كانت الفترات التي تفصل بينهما طويلة. وبالتالي يجب على المرء الترحيب – على العكس من الشروع الآثم في مهمة مستحيلة – بضرورة التأويل الإبداعي، وأن يمعن النظر في نفسه كما تمثل في إحدى سلسلة العلامات والآثار التي استخدمها لتوليد الفكر والمعنى. فلم يعد عالم العلامات مستقر في «المدلول»، غير الملموس وغير القابل للاسترداد، وإنما في «الدال»، وعلى الأخص في الآثار المادية للغة المكتوبة التي يمكن للمرء تأويلها بفعالية وبطريقة متحررة.

وعلى أى حال كيف يمكن لنا الربط بين بحث دوسوسير الخاص بالجناسات التصحيفية وهذا البرهان؟ وهو في أفضل الأحوال بحث غامض. من المؤكد أن دوسوسير اعتقد أنه لن يكون لهذا البحث أية قيمة إلا إذا اكتشفنا بالفعل ما كان شعراء اللاتينية القدماء يفكرون فيه، فهو لم يبحث عن إظهار أهمية التأويل الإبداعي أو ترويجه بالتأكيد. ولقد أثبت خصوم منظور «مركزية اللوجوس» أن دوسوسير خبر كل جاذبيات التأويل الإبداعي الغريب، وهذا ما يفسر مثابته لإنجاز مشروعه، بحيث أن هذا الشعور بالإثم وتلك الحيرة اللذان قاسى منهما قد اشتقا من موقفه التاريخي، وهما يبرهنان في الوقت ذاته على فساد منظور «مركزية اللوجوس»: فلم يكن بمقدور دوسوسير نتيجة وقوعه في شرك منظور «مركزية اللوجوس» – أن يقبل الطبيعة الحقيقية والمتحررة لما كان يقوم بإنجازه بالفعل، ومن ثم فهو لم يوقع نفسه في الشكوك فقط، وإنما فرض قيوداً على ما كان يقوم بإنجازه (كقرار البحث عن الجناسات التصحيفية لأسماء الأعلام فقط)، وهي قيود لم يستطع العثور على الوسيلة التي تحرره منها.

على الرغم من اختلاف البرهان الفلسفي المعارض لمنظور مركزية اللوجوس إلا أن دوسوسير قد لعب فيه أيضاً الدور الغامض نفسه. فقد أكد دوسوسير باستمرار أسبقية اللغة المنطوقة على اللغة المكتوبة، ونظر للكتابة على أنها تمثيل ناقص وثنائى للكلام، وفي ذلك اتبع تقاليد منظور مركزية اللوجوس في أفضل صورها. وعلى أى حال لم تعارض المبادئ الأساسية عنده منظور مركزية اللوجوس. إذن كيف يستقيم الأمر هكذا؟

أولاً: من الواضح أن المرء لا يبدأ - وفقاً لـ بوسوسير - من أى مفهوم أو أى جوهر عقلى على الإطلاق، وإنما يختار إحدى المتتاليات الصوتية لتصويره ثم ينتقل المرء منه إلى مفهوم مستقل آخر عليه أن يعثر له على تعبير صوتى. وكما وضحت مناقشتنا فى الفصل الثانى أن الدال **signifier** والمدلول **signified** كليهما - عند بوسوسير - شكل وليس محتوى، فهما فى المقام الأول موضوعان اختلافيان، ولا توجد الدوال وكذلك المدلولات سوى من خلال التقابلات التى تنظم أحد المجالات، أى من خلال الاختلافات التى تشكل أحد الأنساق: «لا يوجد فى النسق اللغوى سوى الاختلافات التى ليس لها حدود موجبة».

وهكذا لم يؤمن بوسوسير بوجود المفاهيم المتسقة التى يسبق وجودها على وجود أحد أنساق الدوال، ولم يسلم كذلك بالتعبير الصوتى ذاته بوصفه عنصراً أساسياً لهذا النسق من الاختلافات، حيث يمثل الصوت عنده أحد أساليب تحقيق دوال أية لغة من اللغات، وقد تحدت تلك الدوال ذاتها فى حدود تقابلية وتوافقية **combinatory** بدون أية إشارة إلى المادة الصوتية. وهكذا فلم يكن مفروضاً على بوسوسير تأكيد أسبقية اللغة المنطوقة، ومع ذلك فقد كان لنظريته نتيجة أخرى، وهى نتيجة ربما كانت أكثر أهمية لو كانت أكثر الصفات الدقيقة المميزة للعلامة - كما كتب بوسوسير - هو أنها تختلف عن العلامات الأخرى، فسوف تحمل كل علامة عندئذ - بمعنى ما - آثار كل العلامات التى تتواجد معها بوصفها كينونات تحدها. وهذا يعنى أنه لا يجب على المرء أن يسلم - كما تذهب «مركزية اللوجوس» - بوجود أى مدلول مستقل منفرد فى الوعى. فما يوجد فى الوعى هو إحدى شبكات الاختلافات. فلو نطقت كلمة **brown** فإن المفهوم الحاضر فى عقلى (إن كان هناك مفهوم حاضر فى العقل) لا يمثل بذاته جوهرأ بعينه، وإنه يمثل قائمة كاملة من التقابلات. وبالفعل يمكن لنا القول وبشكل مطلق أن التصور الكامل للنسق اللغوى (التصور الكامل للغة **la langue** كما حدده بوسوسير) هو تصور لشبكات الاختلافات على مستوى «الدال» وكذلك «المدلول»، الشبكات التى أخذت موضعها الصحيح بالفعل، والتى نُقِشت فى عقل الحالة المدروسة أو كُتبت فيه كيفما اتفق، ومن الواضح أن فعل التلفظ ذاته ما هو إلا أحد الأساليب المؤقتة (ومن ثم الناقصة) لاستخدام شبكة واحدة من الاختلافات (وهى اختلافات الدال) لإنتاج أحد الأشكال التى يمكن تأويلها فى حدود شبكة الاختلافات الأخرى (وهى اختلافات المدلول).

فمعنى كلمة **brown** لم يكن جوهرأ بعينه موجوداً فى عقلى لحظة النطق بها، وإنما هو حيز ما فى شبكة الاختلافات البيئية (أى فى النسق الدلالي للغة).

أما محاولات الاعتراض على «مركزية اللوجوس» فقد أفرزت قدراً كبيراً من المشكلات المعقدة جداً، وهي مشكلات لم تظهر على أى حال سوى فى المناقشات العويصة والمبهرة التى تميزت كتابات جاك داريدا **Jacque Derride** وحدها فيها بالبراعة والذكاء، وتوضح الملاحظات السابقة بعض المؤشرات الخاصة بخطوط البرهان ويموقف نوسوسير الرائد والغامض أيضاً، وذلك لأنه الرجل الذى أكد أوضاع منظور «مركزية اللوجوس» بوضوح تام، هذا مع أن أبحاثه سعت - وبأساليب عديدة - إلى اقتطاع جزء من تلك الأوضاع.

هناك مظهران فى أعمال نوسوسير تدفع المرء للتأكيد عليهما فى ضوء تلك المشكلة. المظهر الأول وهو مظهر قد أصبح الآن أكثر وضوحاً وهو لماذا أصر نوسوسير على الحقيقة السيكلوجية للغة *la langue*، وعالجها بوصفها أحد النتاجات الاجتماعية التى يتمثلها الفرد بشكل مستتر. وكما أشرت من قبل فقد أصبح اللاوعى حيزاً من التمثيل، وأصبح النسق الكامل منقوشاً داخله. ويمكن لنا الآن رؤية أهمية هذا الرأى: حيث لا ينصرف ذهن المرء أثناء الحديث أو الكتابة إلى مجرد أحد الأشكال أو أحد المعانى التى استحضرت فى الذهن للحظة عابرة، وإنما ينصرف إلى النسق الكامل لإحدى اللغات، نسق منقوش أكثر بواماً.

ولهذا بإمكاننا أن نؤكد - كما أكد نوسوسير - أن المعنى أو المدلول لا يعد كينونة قائمة بذاتها طالما أنه يمثل تقريباً حزمة من القيم الاختلافية، أو طالما أنه يعد حيزاً داخل أحد أنساق الاختلافات. فلكى تضيف المعنى على إحدى الكلمات أو على إحدى الجمل فانت تملأ هذا الحيز بالعلامات الأخرى، وحرفياً فانت تميز بين بعض تلك الاختلافات التى تحدد هذا الحيز وبعضها الآخر. (ولذلك فاضفاء المعنى على كلمة للغة *la langue*، يقتضى تحديد الاختلاف بين تلك الكلمة وكلمة *parole*). ولأن المدلولات غير ملموسة هكذا فنحن نبرر - وفقاً لاعتقاد راسخ - الأسبقية الممنوحة للدال الذى يستطيع المثل أمامنا بوصفه إحدى الكلمات المكتوبة المتعده للمعنى، والمحروسة لنا على أن نلحقه فى ملاحقته. ومع ذلك علينا أن نتذكر أن تعهد المدلولات المقررة - أى المعانى التى قررهما العرف - هو وحده فقط الذى يجعل من أحد الأشكال بمثابة أحد الدوال.

تحمل مشكلة «مركزية اللوجوس» المرء من جديد للنظر فى تأكيد نوسوسير على الطبيعة الاجتماعية للغة، وتأكيدده على اللغة بوصفها أحد النظم الجمعية التى يتمثلها الفرد مع أنها تتعلق فى الأساس بالعالم الاجتماعى وليس بالفرد. وأنها دائماً شئ آخر

غير الفرد. وبإمكان المرء القول بأن نظرية بوسوسير توضح أخرى **otherness** المعنى. فما تعنيه كلماتي هو المعنى الذي تقتنيه تلك الكلمات في هذا النسق البينى الذى انبثقت عنه. فالنسق فى الموضع الملائم بالفعل بوصفه أساساً للمعنى أو شرطاً له. وتؤيل العلامات ليس سوى قراءتها داخل حدود النسق.

وقد يدفعنا ذلك إلى المضى قدماً لمواجهة الاعتراض على تورط بوسوسير فى منظور «مركزية اللوجوس»، ولكن ذلك لن يجعل من «التؤيل» هذا الضرب من العملية الإنتاجية المتحررة التى يبتغيها بعض المنظرين له (أى التؤيل). فى الواقع قد يحتج هؤلاء المنظرون بأن صياغتي قد أخلت أحد الأنساق السيميولوجية محل المدروس الفردى حين جعلت من النسق - وليس من الوعى الفردى - مصدراً للمعنى وكفياً له. والأمر هكذا بالفعل ولكن الإجابة على هذا الاعتراض هى أنه لا يمكن إنتاج معنى بون نسق، ولو افترضنا أن بمقدور المرء الإفلات من الأنساق السيميولوجية كلية، وأن بمقدوره تحرير نفسه من قيودها، فقد يكون بمقدوره حينئذ التحرر من تعيين المعنى عشوائياً ومع ذلك فلن يكون المعنى شيئاً مفتوحاً. ومن ناحية ثانية لأن من المحتم مجئ المعانى المعينة من مكان ما بون أية مقاومة فإنها لن تكون فى هذه الحالة إلا معانى سطحية ليس لها أية أهمية.

ولتلك القضية الأخيرة أهميتها الخاصة، وذلك لأنها تنطبق عموماً على طبيعة الأنساق السيميولوجية ووظائفها وذلك لأن أكثر التؤيلات أهمية وتعقيداً على الإطلاق هى تلك التؤيلات التى تنبثق عن الحالات التى نجد فيها أحد الأنساق السيميولوجية من ناحية، والموضوعات والأفعال والنصوص التى من الصعب تؤيلها فى لغة هذا النسق من الناحية الأخرى. حيث تعد تؤيلاتنا بلغة النسق تؤيلات غامضة ومن الواضح أنها تقلت منه. ومع ذلك ولأننا محكومون بالإلحاح السيميولوجى الإنسانى - حاول أن تخلق معنى للأشياء - فلا مفر من أن نتصارع مع الموضوع العنيد المراوغ، وأن نعمق من تصوراتنا للدلالة ونوسعها، وأن نعدل فى أحكام النسق ونوسعها، وهنا فنحن نصادف إحدى القضايا التى سبق وأن أثرت من قبل فيما يتعلق بالنسق السيميولوجى للأدب، فلو افترضنا وجود إحدى الشفرات السيميولوجية الصريحة والمستقيمة التى يمكنها أن تقدم لنا أحد التؤيلات الآلية لكل عمل أدبى، فلن يكون للأدب أية أهمية، ولكن الخطوة الأولى التى يقوم بها المؤلفون هى الاعتداء على أحكام هذه الشفرة أو تجاوزها.

والثير فى الأمر أن الموضوعات والأفعال والنصوص قد تبدوا أنها تتجنب - جزئياً على الأقل - الأنساق السيميولوجية التى ارتبطت بها، ومع ذلك فالأمر الحاسم:

إنها ارتبطت جميعها بأحد الأنساق، إن لم يكن هناك أعراف قد ألزمتنا حدودها على قراءة الموضوعات والأفعال والنصوص وتحديد معناها في ضوءها فلن تكون هناك أى مصادر أخرى لتعيين المعنى غير المفاهيم التى أختبرناها بالفعل. وهنا فلن يكون بإمكاننا انجاز أى اكتشافات سواء تعلقت بالعالم الخارجى أو بأنفسنا. ولكن إن شرعنا فى تأويل أحد الموضوعات أو الأفعال أو النصوص - بشرط التفكير فيه على أنه يتعلق بأحد الأنساق التى لم نفهمها تماماً بعد - فلسوف نجهد أنفسنا لاكتشاف مصادر جديدة للتأويل داخل الذات، وسوف نعثر على الأساليب التى تربط بين هذا الموضوع والنسق السيميولوجى الوثيق، وسوف تؤدى هذه العملية - بالإضافة إلى ذلك - إلى تزايد الوعى بالذات، وإلى تحقيق الفهم الأفضل للشفرات والعمليات التى يتم خلق المعانى بها على حد سواء.

الاستنتاجات

يقول الفيلسوف المشهور إرنست كاسيرر E. Cassirer «ربما لا نعثر فى كل فصول تاريخ العلم على فصل أكثر سحر وأكثر إثارة من ظهور «علم» جديد لعلم اللغة فى بداية القرن العشرين، فقد بلغ تأثير هذا العلم إلى حد التأثير الذى بلغه العلم الجديد الذى ينتسب لجاليليو Galileo الذى غير تصوراتنا للعالم الطبيعى فى القرن التاسع عشر». لقد سبق لنا أن لخصنا فى الفصلين الثانى والثالث من هذا الكتاب الدور الذى قام به فريديان نوسوسير فى ظهور علم اللغة الحديث وشرحنا بالتفصيل الأسباب التى جعلت من هذا العلم أحد العصور الخلابية فى تاريخ الفكر الحديث. ومع ذلك فليس من السهل تقييم تلك المقارنة الجريئة التى عقدها كاسيرر بين علم اللغة الحديث وعلم جاليليو الجديد. فما الذى يعينه كاسيرر من تلك المقارنة، وكيف يمكننا تجسيد ذلك بالفعل؟

وفقاً لما ذهب إليه كاسيرر فإن المظهر الثورى الحاسم فى علم اللغة الحديث هو التأكيد على أسبقية العلاقات وأنساقها. وبالفعل ففى تلك النقطة بالذات تمثل نظرية اللغة عند نوسوسير - بتصوراتها النظرية ومسلماتها المنهجية الأساسية - أحد التعبيرات البليغة المتميزة للاستراتيجيات الشكلية التى غيرت فى ضوءها العلوم - إبتداء من الفيزياء حتى الرسم - ذاتها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وغدت بذلك علوماً حديثة.

وببساطة شديدة يمكننا تحديد ملامح هذه الاستراتيجيات فى التغيرات التى حدثت فى بؤر اهتمامات العلوم وانتقالها من التركيز على «الموضوعات» إلى الاهتمام بـ «العلاقات». إن «العلاقات» تخلق «الموضوعات» وتحددها وليس العكس. ولقد قدم وايتهد Whitehead إيضاحاً عاماً للمسألة على النحو التالى: «لم يكن الاعتقاد فى الوجود المستقل - وهو الاعتقاد الذى لازم التراث الفلسفى قروناً طويلة - سوى أحد الاعتقادات الخاطئة، حيث لم يكن هناك فى الواقع مثل هذا النموذج للوجود، وقد كان من الواجب فهم كل كينونة فى لغة الأسلوب الذى تتناسج به مع بقية الكون».

وفى كتاب «العلم والعالم الحديث» بين وايتهد كيف أدت الاكتشافات العلمية الجديدة إلى التعقيد، وكيف كان من المحتم أن تحرص فروع المعارف على تغيير منظوراتها كي تحدد ذاتها وتحدد موضوعات دراستها. فقد اكتشفت الفيزياء على سبيل المثال أن من الصعب تفسير الظواهر الكهرطيسية فى لغة الوحدات المادية المستقلة وحركاتها. وكان الحل فى عكس المشكلة: أى بدلاً من تناول المادة فى البداية ثم الشروع بعد ذلك فى تحديد القوانين التى تحكم سلوكها، لماذا لا يتم تناول الطاقة ذاتها فى البداية، ثم الشروع بعد ذلك فى تعريف المادة فى لغة القوى الكهرطيسية. وهو أمر أدى إلى اكتشاف موضوعات علمية جديدة، فلم يعد الإلكترون فى ضوء المنظور الفيزيائى الجديد إحدى الكينونات الإيجابية بالمعنى القديم، وإنما أصبح نتاجاً لأحد مجالات القوة، أى أصبح يمثل أحد نقاط الالتقاء فى نسق العلاقات مثله فى ذلك مثل أى فونيم phoneme لا يمكن أن يوجد مستقلاً عن نسق العلاقات بأى حال.

وهكذا أفسحت النزعة المادية (الوضعية التى تسلم بالأسبقية الوجودية للموضوعات) الطريق للنظرية النسبية بالمعنى العريض، وكما يقول وايتهد: «على النقيض من النظرية المادية التى أبقت المادة، ومن النظرية العضوية التى احتفظت ببناء النشاط الحيوى فقط ركزت النظرية النسبية على البناءات، لقد أصبح الحدث حدثاً ليس بسبب وجوده قائماً بذاته وإنما بسبب التوحد الذى يحمله داخل ذاته مع العدد الكبير من العلاقات، وبحيث لم يعد يوجد خارج أنساق العلاقات سوى العدم».

ويطبيعة الحال فتلك هى الأفكار التى قررها لوسوسير فى وضوح واقتدار، وعلى أى حال لم تكن تلك الأفكار لديه مجرد وجهة نظر فى العالم الطبيعى، وإنما كانت بمثابة المسلمات المنهجية الضرورية لتحليل «اللغة الإنسانية» على نحو دقيق. وعلى أى حال يمكن لنا وضع تصريح الرسام جورج براك G. Braque جنباً إلى جنب تأكيدات لوسوسير، فقد صرح: «أنا لا أؤمن بالأشياء وإنما بالعلاقات». وهو تصريح يمثل

باختصار عقيدة الحداثة. وبالفعل ماذا تكون «التكعيبية Cubism» إن لم تكن التوكيد على أسبقية العلاقات؟. ففي الرسوم التكعيبية تفقد الموضوعات عادة ترتيباتها الأولية، ولا تنبثق سوى من خلال التفاعل القائم بين الخطوط والمسطحات أو بينها وبين الفراغات ويتم تعطيل البعد الثالث الذي يدعم الموضوعات المألوفة، وذلك بهدف اظهار المنظورات أو العلاقات القائمة بينها بشكل تلقائي. وبإمكان المرء أيضاً أن يلاحظ التغير الذي أصاب الشعر والرواية في الأدب الحداثي. فلم تعد تلك الأجناس الأدبية تهتم بتمثيل الموضوعات والمشاهد المتميزة ومحاكاتها وإنما أضحت أكثر اهتماماً بتجاوز الأشياء، وأصبحت القيم العلاقية بالتالي - سواء كانت علاقات بين كلمات، أو علاقات بين أنماط مختلفة من الألحان - تمثل المقومات الأساسية للأعمال الفنية.

لقد أدى التغير الذي حدث في أسلوب معالجة التفاصيل - في مختلف فروع المعارف - إلى الاهتمام بأنساق العلاقات وهذا هو ما يمثل في الواقع أساس الإدعاء الجريء الذي ادعاه كاسيرر لعلم اللغة الحديث: ذلك أنه في فكر القرن العشرين لم يعد العالم بمثابة مجموعة من الكينونات أو مجموعة من الموضوعات الموجودة على نحو مستقل وإنما أصبح سلسلة من العلاقات وأنساقها.

في الواقع كان الانتقال من الاهتمام بـ «الموضوع» إلى الاهتمام بـ «البناء» بمثابة أحد التغيرات الجوهرية التي لحقت بتصوراتنا للعالم، إلا أن هذا الانتقال لا يوضح في حقيقة الأمر إلى أي حد يمكن لنا أن ننسب الدور الذي قام به جاليليو في القرن السابع عشر إلى نوسوسير وعلم اللغة الدوسوسيري. لأنه من وجهة النظر التاريخية لم تكن نظرية نوسوسير في اللغة سوى تعبير واضح عن التغير الذي تم بشكل تلقائي في عدد كبير من فروع المعارف وعلى ذلك فهي لم تكن سبباً أساسياً مسئوول عن هذا التغير.

ومع ذلك ومع أن نوسوسير لم يقم بالفعل بنور جاليليو القرن العشرين فإن حقه في تبوء تلك المكانة يعتمد على نموذج التفكير والتخصص الذي أوجده بالفعل، أقصد علم العلامات **semiology**. فقد اقنعنا نوسوسير بضرورة النظر إلى الحياة الاجتماعية والثقافية الإنسانية بوصفها سلسلة من أنساق العلامات، وقدم النموذج أو الأمثلة التي تساعدنا في الدرس والتحليل. وهذا هو في الواقع الإسهام الفعلي الذي يجعل نوسوسير بالفعل مساو لجاليليو.

إلا أنه من السابق للأوان الحكم على المغزى الحقيقي لنوسوسير في تاريخ الفكر في القرن العشرين. وذلك لأن البحث في ميدان علم «العلامات» لم يبدأ إلا حديثاً ولم يتضح حتى الآن ما إذا كان هذا العلم سيصبح بالفعل إحدى الحركات الفكرية

الرئيسية في عصرنا الحديث أم لا. ومع ذلك فلو قدر لهذا العلم أن يكون له وجوداً رئيسياً بوصفه أحد فروع المعرفة الرئيسية فإن الفضل في ذلك يعود إلى جهود العديد من العلماء إلى جانب دوسوسير. لأن رؤيته لعلم العلامات واصراره البالغ على اتخاذ علم اللغة نموذجاً لهذا العلم هو الذي دفع العلماء الآخرين لتقديم هذا التعبير المتناسق للمنظور السيميولوجي: «الإنسان مخلوق يعيش بين العلامات. ولذلك يجب عدم الاكتفاء بفهم معناها فقط، وإنما يجب الحرص أيضاً على فهم الأعراف المسئولة عن هذه المعاني» فدوسوسير هو صاحب هذا الادعاء الذي سلم الكثيرون من العلماء به، ذلك أن دراسة الإنسان ليست سوى دراسة مختلف الأنساق التي ينشأ عليها وينظم بها ثقافته ويضيف بها أيضاً المعنى على العالم.

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد قزاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتكوفا	ت : أحمد الحضري
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الأنطكي
٨- مشعلو الحرائق	ماكس قريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جوى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن الموبن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : ياشراف أحمد عثمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر التسائي فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يعنى طريف الخولى / بدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجةة العناني
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصري
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باننيكار	ت : أحمد قزاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانتقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكتز	ت : أحمد قزاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . بيكسون	ت : خليل كلفت

- ٢٦- نظريات السرد الحديثة
٢٧- واحة سيوة وموسيقاها
٢٨- نقد الحداثة
٢٩- الإغريق والحسد
٤٠- قصائد حب
٤١- ما بعد المركزية الأوربية
٤٢- عالم ماك
٤٣- اللهب المزوج
٤٤- بعد عدة أصياف
٤٥- التراث المغنور
٤٦- عشرون قصيدة حب
٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)
٤٨- حضارة مصر الفرعونية
٤٩- الإسلام في البلقان
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
٥١- مسار الرواية الإسبانية أمريكية
٥٢- العلاج النفسي التدعيمي
٥٣- الدراما والتعليم
٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح
٥٥- ما وراء العلم
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)
٥٨- مسرحيتان
٥٩- المحبرة
٦٠- التصميم والشكل
٦١- موسوعة علم الإنسان
٦٢- لغة النص
٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)
٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية
٦٧- مختارات
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى
٦٩- العلم الإسلامي في أوائل القرن العشرين
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمي
- والاس مارتن
بريجيت شيفر
آلن تورين
بيتر والكوت
آن مكستون
بيتر جران
بتجامين بارير
أوكتاقيو پاث
آلنوس مكسلي
روبرت ج نيا - جون ف أ فاين
بابلو نيرودا
رينيه ويليك
فرانسوا دوما
هـ . ت . نوريس
جمال الدين بن الشيخ
داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستي
بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج .
روجسيفيتز وروجر بيل
أ . ف . ألنجنون
ج . مايكل والتون
جون بولكنجهوم
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
كارلوس مونيث
جوهانز ايتين
شارلوت سيمور - سميث
رولان بارت
رينيه ويليك
آلان وود
برتراند راسل
أنطونيو جالا
فرناندو بيسوا
فالتين راسبوتين
عبد الرشيد إبراهيم
أوخينيو تشانج روبريجت
داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مغيث
ت : منيرة كروان
ت : محمد عبد إبراهيم
ت : عاطف أحمد / إبراهيم قنحي / محمود ملج
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تانرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد علي
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جويجاتي
ت : عبد الوهاب علوب
ت : محمد برادة وعثمانى لليلود ويوسف الشلبي
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحي
ت : علي يوسف علي
ت : محمود علي مكي
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد الغنى
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعى .
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض .
ت : رمسيس عوض .
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمي
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
ت : حسين محمود

٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكتر	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكن وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الفانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميغيل	ميغيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحة)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صابقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم اللسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جينتز	ت : أحمد زايد ومحمد محبى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ترياس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣-	الإسبانيونأمريكى المعاصر	مايك فينرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب طوب
٩٤-	محدثات العولة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥-	الحب الأول والصحبة	أنطونيو بوينو بايخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦-	مختارات من المسرح الإسباني	قصص مختارة	ت : إينوار الخراط
٩٧-	ثلاث زنبقات ووردة	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨-	هوية فرنسا مج ١	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	ديفيد روينسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠-	تاريخ السينما العالمية	يول هيرست وجراهام توميسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١-	مساعدة العولة	بيرنار فاليت	ت : رشيد بنحو
١٠٢-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإبريسى
١٠٣-	السياسة والتسامح	عبد الوهاب المؤتب	ت : محمد بنيس
١٠٤-	قبر ابن عربى يليه آباء	برتول بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	أويرا ماهوجنى	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦-	مدخل إلى النص الجامع	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعور
١٠٧-	الأدب الأندلسى	نضبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
١٠٧-	صورة الفنان فى الشعر الأمريكى المعاصر		

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسييس هيتندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	ول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سميرة رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سيثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لقد	ت : نخبه من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بليغ
١٢٥- التطيل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراية	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا نولورس أسيس جاروت	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندز فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولة	مايك فينرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كرونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيثلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأنونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميمس	ت : أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	بيريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولونوى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فويتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليس	ت : على عبدالرؤوف البمبي
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد نورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام القراءة	فيولن فاتويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوثير	ت : نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المسلمين والطمانيين فى إسرائيل	يشعيا هو ليتمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رايندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الألب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميفيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حصه إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فستنت ب. ليتش	ت : محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوة	وب. بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت: نسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنورود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	يُزْدَجْ علوى	ت: علاء منصور
١٨٨- موت الادب	الفين كرتان	ت: بدير الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	ت: سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت: محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام وأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحته ابراهيم بيك	زين العابدين المراعى	ت: محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أيزاهامز	ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	انوين إمزى وآخرون	ت: ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندائوى	ت: جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد الطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخزى لييب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصار
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	م. سولوفيتشيك، ز. روفشوف	ت: احمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى- سفورزا	ت: احمد مستجير
٢٠٦- الهبولة تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل افريقى	رامون خوتاستنير	ت: محمد ابو العطا عبد الرووف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوربان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثويات حكيم سنائى	سنائى الغزونى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى

(نحت الطبع)

الولاية	ديوان شمس
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع- القسم الثانى)	مصر أرض الوادى
الاسلام فى السودان	الرافيل أو الجيل الجديد
العربى فى الأدب الإسرائيلى	سحر مصر
المسرح الإشبانى فى القرن السابع عشر	رايولا
فن الرواية	بقايا اليوم
ما بعد المعلومات	لغة التمزق
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	فكرة الاضمحلال
عن الذباب والفتران والبشر	حقول عدن الخضراء
العولة والتحرير	مئزق البطل الوحيد
علم اجتماع العلوم	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان

رقم الإيداع : ١٦١٣٧ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي / X - 263 - 305 - 977 / I.S.B.N.

مطابع إدارة المطبوعات والنشر ق . م



SAUSSURE

Jonathan Culler

مع وفاة فرديناند دوسوسير F. de saussure في أوائل هذا القرن فقدت جامعة جنيف Geneva أحد مؤرخي اللغات الهندية الأوروبية المرموقين ، الذين أنفقوا معظم حياتهم الأكاديمية في تدريس الفيلولوجيا التاريخية والمقارنة . ومع ذلك لم يشتهر هذا « الأستاذ » أو يُداع صيته بعد وفاته من هذا المنظور الفيلولوجي الأكاديمي الضيق ، وإنما بوصفه العقل السديد الذي ظهر عن استحقاق يرسم معالم الطريق الاستعماري الحبيب الذي سار فيه علم اللغة الحديث ، بالشكل الذي احتفظ له بموقع الريادة والمبادأة بين مختلف فروع المعارف الإنسانية ، بلا استثناء ، تلك الفروع التي لم تجد مفرًا من اتخاذ هذا العلم مصدرًا للإلهام والإثارة ، والمبدء بطريقه موازية لتحديد هويتها العلمية الخاصة .

إن هذا الكتاب - على الرغم من قصره - يعقل جوهر الملخص الفكري الذي قدمه دوسوسير لعلم اللغة واللغويات الإنسانية الحديث على حد سواء ، من منظور جديد ، كما أنه يمثل - على هذا النحو - مقدمة تعليمية عامة لهؤلاء المستبدلين الذين يرفهون في الاطلاع على أهم ملامح الفكر الفيلولوجي الحديث في أسلوب واضح المعالم وممتع .